

دينامية النص

* دينامية النص

* المؤلف: د. محمد مفتاح

* الطبعة الثانية: حزيران 1990

* الناشر: المركز الثقافي العربي

* العنوان:

□بيروت/الحمرا - شارع جان دارك - بناية المقدسي - هاتف/343701-352826 /ص. ب. 5881-13

□الدار البيضاء/● 42-44 الشارع الملكي - الأحباس - هاتف/303339-307651 /ص. ب. 4006

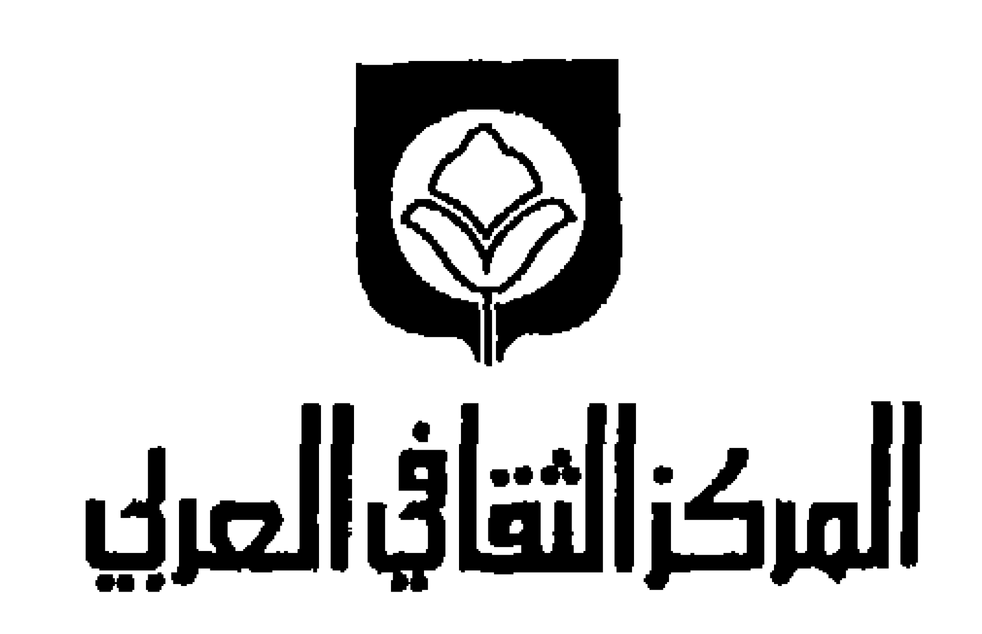
● 28 شارع 2 مارس - إقامة 2 مارس - هاتف/276838-271753/

د. محمد مفتاح

دينامية النص

(تنظير وإنجاز)

جائزة المغرب الكبرى للكتاب
في الآداب والفنون 1987



تقديم

﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾.
(قرآن كريم ، من سورة النحل آية 125 .)

ربما لم يبق مستحسناً ـ بعدما بدأت المناهج الحديثة تشيع بين المهتمين ، والطلبة ، وعموم المثقفين ـ أن يكتفي الكاتب فيها بتقديم تطبيقات بدون الكشف عن الخلفيات الإبستمولوجية والتاريخية التي نمت وترعرعت فيها تلك المناهج ، وإنما صار متعيناً عليه أن يُبيِّنَ قواعد اللعبة وآلياتها ، ويهتك خبايا أسرارها .

إن هذا الصنيع هو ما حاول مدخل الكتاب أن يفعله ، فقد كان في وسعي أن أقوم بنشر الدراسات وحدها ، ولكنني أبيت الا أن أدل على الأسس التي تعتمد عليها حتى يتسنى للقارىء أن يقبل عن بينة، أو أن يرفض عن بينة، لأن غياب الخلفيات والنظريات والمناهج كثيراً ما أدى الى مماحكات لفظية واهية الأسس عديمة الجدوى ، أو إلى قبول متعصب أعمى ، ومن ثمة نجد من يعتقد أن بين تلك النظريات حدوداً فاصلة لا يمكن اجْتيازُهَا ، وأن لها قداسة لا تداس حرمتها ، وحصانة لا ينتهك حماها ، وشمولية لا تبقي باقية ، ولا تذر لقائل ما يقول .

إن الأمر بخلاف المعتقد المذكور . ذلك أن من يُعْمِلُ فيها بعض النظر يجد بينها تداخلاً كبيراً ، وتقاطعات شتى ، وصلات وثيقة ، وتتبين له تاريخيتها، وَنِسْبِيَّتُهَا، وديناميتها؛ فقد هيمنت مثلاً السيميولوجيا الفرنسية ، وخصوصاً سيميوطيقيا « كريماص »، في سياق ابستمولوجي وتاريخي ، هو سياق علوم العقدين الخامس والسادس ، ولكن بعض الباحثين بدأوا يناقشون نظريته ، ليلغوا بعض عناصرها ، ويكيفوا بعضاً منها في ضوء علوم العقدين الأخيرين . وهكذا يجد القارىء مفاهيم فزيائية وبيولوجية ورياضية ومعلوماتية شرعت تغزو ميدان الدراسات اللسانية والسيميائية . مثل (التشعب النموذجي) (والدينامي) ، و (التحكم الذاتي) ، و (التفرد) ، و (الذاكرة الطويلة والقصيرة . . .) .

إن هذه الدينامية هي ما حاول « المدخل » أن يرصدها ، ذلك أن ما نعثر عليه لدى «كريماص» من مفاهيم علمية لا تكاد تفصح عن هويتها ـ ركز عليها الكارثيون والبيولوجيون والمشتغلون بالذكاء الاصطناعي وأوضحوه ، على اختلاف في درجات التركيز والتوضيح .
ولذلك فان القارىء اذا ما صادفه غموض في بعض الصيغ التعبيرية ، فإن عليه أن يتجاوزها إلى ما بعدها ليتوضح له الأمر، إذ كل فقرة تُخَصِّصُ سابقتها، وتبينها، وتفسرها، وتتحاور معها ؛ على أنه اذا تعسر عليه الفهم ـ مع ذلك ـ فليتقدم الى الدراسات التطبيقية حتى يتيسر له الغرض ويحصل المطلوب ، ولكنه لا يظفر ببغيته كاملة غير منقوصة الا اذا قرأ الكتاب من أوله الى آخره وانتقل من تنظيره الى تطبيقه ، وتابع الفصل بما يليه ، فقد لا يفهم بضبط وإتقان « الانسجام في النص القرآني »، دون الرجوع الى فقرتي « الاتجاه السيميوطيقي » ، و « الذكاء الاصطناعي » : اذ من الأولى إستَمْدَدْتُ المورفولوجيا التصنيفية التي قبلت ـ في ضوئها ـ بعض العلاقات، ورفضت بعضاً منها ، ومن الثانية حَـدَّدْتُ مفهوم الإطار ، كما أنه لا يستوعب « الحوارية في النص الشعري » إلا إذا كان على علم ما بنظريات تداخل الأطر ، والتشاكل ، ونمو النص وانسجامه .

هناك ، إذن ، علاقة وثيقة بين فصول الكتاب جميعه ، وصلات حميمة بين فقرات كل فصل منه ، والتحام قوي بين أجزاء كل فقرة ، واتساق بين جمله ؛ وعليه ، فان القراءة بالطفرة لا تجدي ، والانتقاء المتعسف لا يغني ، وإنما ما فيه جِـدَّةٌ وَغَناءٌ هو المتابعة الخطية الاستدلالية العلاقية ؛ فهذا الكتاب ـ وإن كان مجموعة أبحاث مستقلة ـ نَصٌّ ، ومن ثمة تحكمه آليات النص نفسها ، وبسبب ذلك تتعين قراءته بمحتواه ، فنواته « المدخل ». وبؤرته « نمو النص »، وتخصيصهما ما تبقى .

إنه ـ مع ذلك ـ كتاب متعلم معلم : يتعلم ما يتيسر له مِنَ ٱلْمَناهِج ـ في حدود إمكاناته ـ لخدمة نصوص أدبية وفكرية ودينية ، بكل أمانة وصدق ووضوح ، ويرفض الاحتفاظ بسر المهنة أَنانية وَأَثَرَة ، وإنما يعلمها وسيدأب على تعليمها حتى تصير متاعاً مشاعاً، وسيحث من كانت له رغبة السير في هذا الطريق إلى أن يتفوق على معلمه .

سعياً من المؤلف لضمان قدر من الصحة العلمية ، وخوفاً من اقتراف كبائر الأخطاء عرض أغلب فصول هذا الكتاب على بعض الزملاء الذين قرأوها وزودوه بملاحظات وجيهة ، وهم الأساتذة : محمد الكنوني ، وطه عبد الرحمان ، ووقيدي محمد ، وسالم يفوت ، وأحمد العلوي أطلس ، وبو جمعة الأخضر ؛ لهم جزيل الشكر منه ولكل من ساهم ـ من قريب أو بعيد ـ في إخراج هذا الكتاب .

محمد مفتاح

الرباط - 28/4/ 1987

مدخل

البيولوجيا هي « مفتاح البنيوية ». جان بياجي .

I

الأسس ال

يرى المتصفح لهذا الكتاب أننا استعملنا مفاه ـب « النمو » و « الحوار » و « التناسل » و « الصراع » ، و « الحركة »، و « السيرورة » و« الانسجام » . وهذه المفاهيم ترجع كلها الى مقولة جامعة هي « الدينامية »، وقد اعتبرناها جميعاً أولية غير معرفة لأن المتلقي يدرك معناها ودلالتها بالسليقة والحدس ، شأننا في ذلك شأن النظريات التي بنت نفسها على أوليات من مثل العلاقة ، والانقطاع[1] . . . على أننا اذا تجاوزنا التحديد ، فاننا لا نسمح لأنفسنا بتقديمها غفلاً دون الاشارة الى سياقها التاريخي والابستمولوجي والعلمي الـذي ولدت فيـه وصارت تنتمي اليه .

يظهر أننا لا نجد كبير عناء للتـذكير بـذلك السيـاق ، إذ إن من له أدنى اطـلاع يدرك مصدرها الأساسي الذي هو النظرية البيولوجية التطورية[2]، كـما يدرك أنها نمت وتفـرعت الى اتجاهات عديدة وتفرعت عنها فلسفات اجتماعية ولغوية ، فقد كانت مصدراً أسـاسياً وملهـماً فعالاً للفلسفة الماركسية ، وكانت موجهاً ضرورياً لمنهاجية البحث في اللغة ، وزاداً للدراسات الاجتماعية ، كما كانت موضع مناقشات وأبحاثٍ في طول الأرض وعرضها .

تكون ، اذن ، إعادة القول في المعروف من قبيل الحشو الذي لا فائدة فيه ، وهذا ما لا

---

(1) Jean Petito - Cocorda, Morphogenèse du sens. T.1. 1985, P.U.F. Paris, PP. 271 - 273.

(2) Encyclopaedia Universalis. (ed) Paris, Biologie. PP. 301 - 307.

نفعله، وإنما سنبين أن النظرية البيولوجية عادت الى اكتساح ميادين العلوم المعاصرة، وهي في حلتها الجديدة المستمدة من « ابستمية » المنتصف الثاني للقرن العشرين . ونتيجة لذلك ، فإن المهتم كثيراً ما يجد لفظ « بيو » يصاحب مختلف العلوم : علم النفس البيولوجي ، وعلم الاجتماع البيولوجي وعلم السيميوطيقا البيولوجى ، وعلم اللسان البيولوجي ، وعلم الابستمولوجيا البيولوجي[3] . . . . كما أننا نجد كثيراً من الباحثين يستثمرون مسلمات البيولوجيا وان لم يصرحوا بلفظ « بيو » .

إذن ، تغلغل علم البيولوجيا في ميادين شتى من المعرفة ، ولكن الذي يهمنا هو ما يتعلق ببيولوجيا « علم النص » وبديناميته خصوصاً . ولذلك ، فاننا سنركز على الاتجاهات التالية :

* النظرية السيميوطيقية .
* النظرية الكارثية .
* نظرية الشكل الهندسي .
* نظرية الحرمان .
* نظرية الذكاء الاصطناعي
* نظرية التواصل والعمل .

على أننا سنعقب المؤشر البيولوجي المشترك بمزيد إيضاح للخلفيات الإبستمولوجية التي تكمن وراء كل نظرية مبينين مدى افتراقها واختلافها حتى لا نقع في اختزال مُخِلٍّ فنردها كلها إلى النظرية الوضعية أو إلى النظرية الذاتية ، ثم سنتبع هذا بإعطاء لمحة عن كيفية توظيفنا للمبادىء الأساسية من تلك النظريات .

أولاً ـ النظرية السيميوطيقية :

ليس من الضروري التعرض الى مبادىء النظرية وخلفياتها ، فقد فعلت ذلك الكتب التطبيقية والشارحة أو الناقدة[4]، وإنما سنقتصر على ما يهم اشكاليتنا ، وهو تبيان الدينامية التي تتجلى في كل مكونات النظرية :

1 ـ المقصدية :

أي ذات ← موضوع، بمعنى أن هناك توقاً ونزوعاً من الذات نحو الحصول على موضوع

---

(3) Walter A. Koch, Art, Biogenesis and Semiogenesis, Semiotica 49 - 3 - 4 (1984), 238 - 304.

(4) Voir, Petito, (1985).

ذي قيمة ، فهي ـ بهذا المفهوم ـ أساس كل عمل وفعل وتفاعل ، وهي شرط ضروري لوجود أية عملية سيميوطيقية ؛ فالذات لا تحصل على موضوعها الا بحركةٍ ما قد تكون عسيرة أو يسيرة ، وتتضمن هذه الحركة أطراف نزاع قد تكون متأبية أو منقادة . ومهما يكن الأمر ، فان هناك تفاعلاً يجري في فضاء ـ وزمان معينين ويتحقق فيهما عبر العلامات اللغوية[5] .

2 ـ المربع السيميائي :

على أنه لتحقيق النوايا وترجمتها الى عمل وفعل وتفاعل يحتاج الى أرض تكون ميداناً تتموقع فيه الأطراف المتواجهة والمتجاذبة ، ذلك الميدان هو المربع السيميائي[6] .

قبل أن نبسط شكله للعيان نتعرض إلى علاقاته بالإيضاح لتجتمع الحساسية والفهم ويحصل الإدراك بعد التصور ، وعلاقاته هي : التضادية (التضاد وَشِبْهُ التضاد) ، والتناقض ، والتضمن ، وهذه العلاقات تحكمها قيم موقعية وتعارضات كيفية وَجِرْمَانِيَّةٌ (وعدمية) ؛ فالتعارضات الكيفية تَعْتَرِي التضادية ، والتعارضات الحرمانية تصيب التناقض . فـ « رجل / امرأة » من قبيل النفي الكيفي ، و « رجل / عجلة » من قبيل النفي الحرماني ، وتوضيحه : أن مقومات « رجل » وأعراضه هي :

[+ حي]، [+ ذكر]، [+ بالغ]، [+ عاقل]. . . [+ أبيض]. . . أن مقومات « امرأة » وأعراضها ، هي :

[+ حية]، [ـ ذكر]، [+ بالغة]، [+ عاقلة]. . . [+ بيضاء]. . . أن مقومات « عِجْلة » وأعراضها هي :

[+ حية] ، [-ذكر] ، [– بالغة] ، [– عاقلة] ، [– بيضاء] . . .

يتبين من هذا أن ليس هناك فروق كثيرة بين الحدين « رجل / امرأة »، وانما هناك فرق واحد هو [– ذكر]، ومن ثمة كان النفي كيفياً ؛ على أنها كثيرة بين « رجل / عجلة » ، اذ لا جامع الا [+ حي]، ولهذا يمكن أن يدعى هذا النفي حرمانياً .

على أننا إذا قلنا : «رجل / لا رجل »، ونحن مراعون وحدة الشخص والزمان والمكان ، فإنَّ التحليل يؤدي الى ما يلي : رجل : [+ حي]، [+ ذكر]، [+ بالغ]. . . [الى آخر

(5) أنظر رقم «1» من فقرة « تركيب » ، وكذا الفقرة رقم «1» من « توظيف » .

(6) A, J. Greimas, J. Courtés (1979), Sémiotque - Dictionnaire raisonné de la Theorie du langage, Hachette Paris, «Carré Sémiotique» PP. 29 - 33.

اللوازم والأعـراض]. لا رجل : [- حي]، [- ذكر]،[- بالغ] . . . [الى آخـر اللوازم والأعراض]. وبناء على هذا ، فـإنَّ الحدين متناقضان، بمعنى أنهما لا يجتمعان ولا يمكن أن يرتفعا معاً . وقد يصح أن نسمي هذا بالنفي العدمي[8].

بيد أنه يمكن أن يقال أحياناً : « لا امرأة / لا رجل » ، وينتج عن هذا القول :

لا رجل : [+ حي]، [± ذكر]، [+ بالغ]. . .
لا امرأة : [+ حية]، [± ذكر] ، [+ بالغة]. . .

ان هذه الحدود جميعها تطرح اشكالات عديدة . وقد اجتهـد الباحثـون[9]لحل بعضهـا وتركوا بعضاً آخر منها معلقاً ؛ فالنفي الكيفي ، بدوره ، نفي حرماني لأنه يزيل من الحد الأول بعض المقـومات أو بعض الأعـراض ، ومن ثمة ، فـإن النفي الحرمـاني أعم ، وإن كل نفي حرماني نفي كيفي ، على أنه لا عكس . كما أن حدي التضاد يمكن أن يرتفعا معاً ، وحينئذ ، فـإنَّهُمَا همـا اللذان ينتـج عنهـما الـطرف المحـايـد ، فـإذا قلنـا : « أحمـر / أصفـر » ، « رجل / امرأة » . . . فان الشيء الملون قد لا يكون « أحمر » ولا « أصفر » ، وانما قـد يكون أبيض أو أسود ، كما أن الكائن الحي الإنساني قـد لا يكون رجـلاً ولا امرأة ، وإنمـا يكون طفلاً ، ويعني هذا أن الحد المركب هو ما يتولد من محور شبه التضاد ، إذ هو الذي يشاب فيه الطرف بغيره فيحصل « مُؤَلَّفٌ » مزيـج هجين ، ولكنـه يمكن أن يضاف الى أحـد الحدين . وهكـذا ، يخيـل الينـا أننـا بهـذه المحـاولـة نَحُلُّ استشكـال « كْريماص » و« جـان بتيطو ـ كوكوردا »[10].

تلك ، اذن ، علاقات التضاد وشبه التضاد والتناقض ، ولكن بقيت عـلاقة التضمن، ونظن أن خطبها سهل ، فاذا قلنا : « لا أصفر » ⊂ أحمر ، أبيض ، أسود . . .

واذا قلنا : « لا أحمر » ⊂ أصفر ، أزرق ، أخضر . . .

---

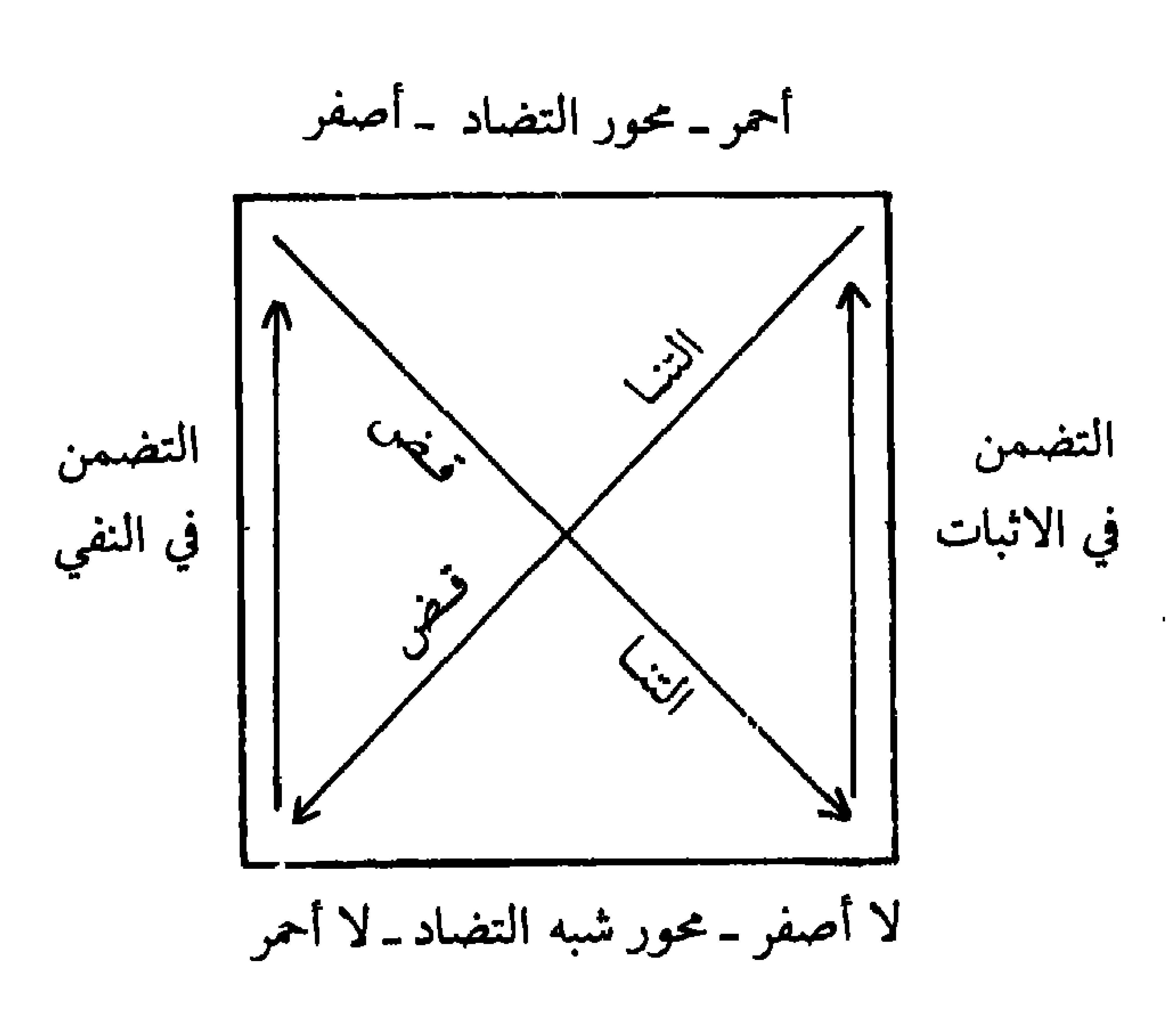
(7) النَّفي الحِرْماني ترجمة لـ : Négation privative
بناء على ما ستتعرض إليه في « نظرية الحرمان » ، ويترجمها د. جميل صليبا بـ : « النفي العدمي » ، أنظر المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1973، مادة « ن » ، وقد خصصنا نحن هذا النوع من النفي بالتناقض المنطقي الذي نَظُنّ أنه يكاد لا يوجد في عملية التواصل اللغوي .

(9) أنظر معجم « كريماص » في مادة « المربع السيميائي » المشار إليها في هامش «6» .

(10) أنظر « بتيطو » (1985) ص 222 - 230 .

على أن التساؤل الذي يطرح نفسه : أهناك ، حقاً ، نفي كيفي وحرماني من جهة ، وهناك نفي عدمي من جهة أخرى ؟ قد يكون الجواب بالإيجاب اذا اعتبرنا العلاقات بين الحدود منطقية سكونية ، ولكنه يكون بالنفي اذا ما أخذنا في الحسبان دينامية العلاقات بين الأطراف . وبهذا الاعتبار الأخير ، فإنه ليس هناك إلا النفي الكيفي والحرماني الذي يسلب بعض المقومات أو كثيراً منها ، مما يجعل النص ينمو أفقياً (وعمودياً) بوسيلتي المشابهة والاختلاف .

أين موقع هذه العلاقات ؟ أية واحدة منها تكون منطلق عملية التوليد ؟ للاجابة نرسم الشكل حتى ينجلي كل غموض :



بيد أننا ركزنا قبل على التوليد الأول ، ولكن هناك توليداً ثانياً وثالثاً[11] ؛ فالثاني هو العلاقة بين محور التضاد ، وشبه التضاد ، وهي ـ في هذه الحالة ـ تناقض : « أحمر » / « أصفر » / «لا أحمر»/ « لا أصفر ». وأما الثالث فهو العلاقة بين مؤشر الإثبات ومؤشر النفي ، وهي ـ في هذه الحالة ـ تَضَادٌّ : « لا أصفر » « أحمر » / « لا أحمر » « أصفر ». وعلى هذا ، فان المربع السيميائي لم يصبح وسيلة عِيَانٍ تساعد على الفهم وحسب ، وإنَّمَا صار شكلاً

---

(11) أنظر معجم « كريماص » مادة « المربع السيميائي » هامش «6» .

هندسياً يصح توليد مفاهيم منه لصياغة نظرية تعتمد على الطوبولوجيا والعلاقة والاختلاف والائتلاف[12].

يتحصل ـ مما سبق ـ أن التعارض الذي رأيناه في علاقات المربع المذكور منطلقه الموقع ، وجوهره الاختلاف والائتلاف مثلما يظهر الأمر في علاقات التضاد وشبه التضاد والتضمن .

3 ـ العوامل :

إن هـذه العلاقـات نفسها هي التي تـولد البنيـة العامليـة[13]نفسها ، ولكن العـلاقـة التضمنية هي التي تهيمن ، وتبيان ذلك أن المرسـل يتضمن المرسـل اليه ؛ والـذات الباحثـة تقتضي موضوعاً مبحوثاً عنه ، وَتُعِينُ للحصول عليه مساعدات ، وتمنع منه معوقات ؛ هناك ، اذن ، دينامية وتفاعل ، على أنهما إذا كانا موجودين من حيث النوع ، في كل مكونات البنية ، فإن درجتهما تختلف ، ولذلك فإنه لا مناص من توضيح نوع العلاقة بين مختلف عناصـرهما ؛ فالعلاقة بين المرسل/ المرسل اليه صراعية ، ولكن درجة الصراع ليست قصوى وخصوصاً اذا كان المرسل متسامياً تنازل إلى المرسل اليـه على شيء من سلطتـه ، وَفَوَّضَـهُ إليه ، بعـد تهييئه وإعداده للقيام بالمهمة المسندة اليه. ومن ثمة ، فالعلاقة بينهما تواصلية ، ولكنها ، مـع ذلك تحتوي على نفي كيفي . فاذا افترضنـا أن سلطات المرسـل هي : (+ أ + ب + جـ . . .)، فانها عند التنازل والتفويض تصـير : (+ أ + ب) ، وبهذا تصبح العلاقـة بين طـرفي عمية التواصل دينامية تفاعلية سالبة لبعض سلطات المرسل وإنْ كَانَ متعالياً ؛ والعلاقة بين الذات / الموضوع صراعية جدالية . إذ تتحرك العملية السيميـوطيقية من الامتـلاك إلى الفقد ، ومن الفقد إلى الامتلاك . . في دوريَّةٍ تنتهي إلى تسوية أو تأليف يؤدي إلى حد محايد أو مركب أو إلى الاستبداد .

يتضح من هذا أن نظرية . .«كريماص» تقوم على الدينامية والتفاعل والصراع . . . بما تعنيه من حركة وأحداث وأعمال وأفعال . . . وهذا شيء لا غرابـة فيه ، لأنـه استقى أسس نظريته من تحليل الحكايات الشعبية والأسطورية . . . ؛ وكُـلٌّ من هذين الجنسين يقوم عـلى الصراع بين قوى متضادة ، ولأنه تأثر بعلم البيولوجيا الذي يظهر في مصطلحـاته من مثـل : التحـويل ، والتـوازن ، والتحكم الذاتي . ولأنـه استوحى من السـوسيولـوجية المـاركسية ، ولأنه . . . تأثر ـ في آخر المطاف ـ بالدراسات الرياضية .

---

(12) هذا ما ألح عليه « بتيطو » في كتابه ، و « بالمر » في مؤلفه .

(13) أنظر « بتيطو » ص 230 - 249 .

ثانياً : ـ النظرية الكارثية .

ان نظرية « كريماص » هذه كشف إشكالياتها وبين خلفياتها مُتَبَنّو النظرية الكارثية ؛ على أنه من الصعب ـ جداً ـ على المتأدب أن يخوض في إبستمولوجية النظرية المذكورة وفي تبيان تطبيقاتها الرياضية وفعاليتها ، ولكنه لا مناص من التعرض الى منطلقاتها الأساسية التي اعتمدت عليها في مناقشتها لـ « كريماص ».

يمكن أن ترصد ـ بصفة عامة ـ مرحلتان جوهريتان :

1 ـ مرحلة روني طوم :

« René Thom » التي عرض فيها مشروعه الرئيسي في كتابه « الاستقرار البنيوي وقوانين الأشكال[14] ». وقد ذكر فيه القوانين المحددة للشكل والبنية والدينامية . فما هي هذه القوانين المحددة ؟ وما هي المبادىء العقلانية السيميو ـ لسانية التي انطلق منها ؟ إنها هي[15] :

* اختزال المفاهيم اللسانية إلى مورفولوجيا .
* اختزال كل مورفولوجيا الى نظام من الانقطاعات الكيفية في فَضَاءٍ مُعْتَمِدٍ « Substrat ».
* كل موضوع أو كل شكل فيزيائي يمثله مركز جذب « L'Attracteur » س ضمن نظام دينامي في فضاء من المتغيرات الداخلية .
* وسيلة الادراك الأساسية هي الحواس .
* لكل كائن تفرده وشكله .
* الشكل يحكم الموضوع .

اذا كانت الاستراتيجية الكارثية تسلك في انجازها التحليلي تحديد الظاهرة بوصفها مورفولوجيا ذات انقطاعات كيفية ، فانها لم تزد أن عمقت ما فعل « بروب » في « مورفولوجيته » ، و « كريماص » في « مربعه » ، وما قام به آخرون من اكتشاف ثوابت من مثل « دوميزيل » و « ليفي ستراوس » ؛ فبعض هؤلاء اعتبر الظاهرة ـ بدرجات متفاوتة ـ مورفولوجيا وحلّلها الى مجموعة أحداث متوالية تتالياً ضرورياً أو

(14) لم نطلع على هذا الكتاب بكيفية مباشرة ، وإنما من خلال ما قدمه « بتيطو » ، وقد حاولنا جاهدين للحصول عليه وعلى الكتابات الأخرى لـ « طوم » ، ولكننا لم نفلح .

(15) Voir, Petito (1985), «Les principes de la Theorie des Catastrophes, PP. 76 - 91.

احتمالياً[16]« Créodes »، كما انتهى بعضهم - بعد التحليل - الى اكتشافه ؛ بيد أن النظرية الكارثية بحثت بجدية أكثر عن :

النماذج الدينامية المحلية للتوالي الضروري « Créodes ».

* النماذج الدينامية الشاملة لإدماج أحداث التوالي الضروري أو الاحتمالي وتوليفها في بنية شاملة[17].

هم النظرية الكارثية - اذن - هو البحث عن الاستقرار والتحول في آن واحد ، فمركز الجذب « L'Attracteur » يجب أن يحافظ عليه بالإبقاء على استقراره البنيوي ليحصل الانسجام ويدرك الموضوع . ويضمن المحافظة على البقاء لِلنّفْي الكيفي والحرماني أو الأحداث التي تزيلُ بعض « المقومات » المعنوية وتضيف أخرى في انقطاع مما يضمن تفرد « الموضوع » وشبهيته . إن تلك الأحداث التي هي وليدة المنافسة بين الأنظمة (بين حدين أو حدود) هي ما يدعى بالكوارث الأولية ، على أن مركز الجذب قد يختفي للقضاء على نواته ، فيعوض بمركز جذب آخر ، ولكن هذا لا يحصل إلا عندما تحل كارثة التشعب الأقصى ، وقلما يحصل لأن التشعب لا يعني القضاء المطلق على النواة (أو مركز الجذب) التي وقع البناء بسببها وعليها ، وإنما يعني التفرع والتنوع والتفرش (شكل الفراشة) ، وهذا يتلاءم مع طبيعة الأشياء ، إذ لا تحصل كارثة مطلقة إلا في حالات نادرة .

ومهما يكن ، فإن الأحداث (النفي الكيفي) والكوارث (النفي الحرماني) هي جوهر دينامية النص ، فبها ينمو ويتناسل ، وتتحقق الدينامية ضمن مسبقة الفضاء - الزمان، وتصاغ مفاهيمها من خلال هندسة الفضاء .

---

(16) إن الكلمة مكتوبة في « بتيطو » بـ «Chreodes» ولكننا لم نفلح في الحصول عليها من المعاجم الفرنسية ، إذ هي مكتوبة فيها بالشكل التالي «Créodes» ، ومعناها : (اشتقاقياً : الطريق الضروري) ، مرحلة ، أو بتعبير أكثر دقة هي متوالية غير اعتباطية في نموها . المتواليات ، إذن ، هي خطوط التطور التي يمكن أن يتنبأ بها قبلياً ، كما يمكن أن تفسر بعدياً . :. . وقد استعمل المفهوم بعض البيولوجيين مثل « وادينكطون » Waddington لتعديل نظريات الطفرة الخاضعة للمصادفة ونظريات الانتقاء الطبيعي ، وقد نقل المصطلح إلى علم النفس « بياجي ».

Voir, Jenri Pieron, Vocabulaire de la Psychologie..

وبهذه المناسبة أشكر للأستاذ شداد جهيد بحثه عن هذا المصطلح .

(17) أنظر « بتيطو » ص 88 .

2 ـ مرحلة « جان بتيطو ـ كوكوردا » :

« Jean Petito - Cocorda » تلك ، اذن ، أهم المبادىء النظرية التي يعتمد عليها الكارثيون ، وقد ترجمناها الى لغة سيميوطيقية لتقريبها الى القارىء المتأدب . على أن « جان بتيطو ـ كوكوردا » هو الذي عَمَّقَ البحث في هذه النظرية وأعطى لمشروع « روني طوم » كل أبعاده الفلسفية والإبستمولوجية والنظرية والمنهاجية[18]، ولذلك ، فان أغلب ما جاء في كتاب «الاستقرار البنيوي وقوانين الأشكال» أوضحه كتاب «مجموعة القوانين المحددة للمعنى» .

يصعب ـ بكل تأكيد ـ على المتأدب أن يستوعب كل ما ورد في هذا الكتاب ، ولكننا ـ مع ذلك ـ سَنُجْهِدُ أنفسنا لتوضيح نقطتين أساسيتين فيه ، إذ هما جوهره ، ومن أجلهما ألف ، وهما : الدينامية وتوضيح هذه الدينامية وتطبيقها على نظرية «كريماص» السيميو ـ لسانية .

1 ـ الدينامية :

لقد أفاض القول في البرهنة على البنيوية الدينامية ، وعلى إثبات فعاليتها وَخِصْبِهَا في ميادين ـ من البحث والدراسة ـ متعددة ، وهكذا ، فقد تعرض للبنيوية البيولوجية وللنظرية الجشتالية وللظاهراتية ولعلم وظائف الأصوات ، وللبنية العاملية ولنحو الحالات وللبنيات السيميو ـ سردية .

على أن المؤلف اذا تعرض في هذه المداخل ليبين بعض مصادر البنيوية الدينامية وبعض تجلياتها ، فانه تقدم ـ بعد ذلك ـ خطوات ليطرح إشكال صورنة البنيات صورنة رياضية معتمدة على بعض مسلمات « كانط » من مثل : الزمان ـ المكان ـ التعالي ، وعلى فلسفة « البرلوتمان » الرياضية . بيد أنه تجنب « صورنوية[19] » شومسكي ومن سار على نهجه لأن منطلقات شومَسْكِي النظرية ذات محدودية : اللغة الطبيعية لا تتيح للإنسان أن يولد منها ما يشاء بعكس اللغة الصورية ، وليس هناك نحو شامل لكل لغة طبيعية وإنما هناك أنحاء تقريبية محلية في تنافس مستمر كما أنه ليس هناك فطرية معصومة من الخطأ محددة تكوينياً[20]الخ .

تلك بعض حدود النظرية الشومسكاوية ، ولذلك ينبغي تَعْدِيلُهَا بوضع فرضيات أخرى

---

(18) أنظر مقدمة « روني طوم » لكتاب « بتيطو » المذكور ، ص 11 - 15 .

(19) هي ترجمة لـ : Formalisme ، و « بتيطو » يفرق بين « الصورنة » Formalisme,Formalisation « الصورنوية » .

(20) أنظر « بتيطو » ص ص 130 - 135 .

تعدل بعض منطلقات شومسكي وتتممها ـ أي الجمع بين النحو التوليدي ـ التحويلي والنحو العاملي المؤسس على خلفيات بيولوجية : والفرضية الأساسية هي أن هناك بنية عاملية ذات نماذج أولية هي المورفولوجيا العلاقية الأولية التي تتحمل أدواراً دلالية كلية في إطار تحويل نموذج بنيات . تلك البنية العاملية مستقرة وشمولية وثابتة ، ولكن ما هي عناصر البنية ؟ لا نجد ذكراً لها ، وإنما تستنتج من إلحاح « بتيطو » على إطْرَاءِ الفرضية الموقعية التي تُعَيِّنُ بمحددين : تركيبي يتعلق بعامل ، وموقعي يتعلق بالوضع الفضائي ـ الزماني . وبناء على هذا ، فإنه تعرض لبعض نماذج نحو الأحوال ، وَذَكَرَ أولياته[21]، مثل :

* العاملُ الحي للعمل الموصوف بالفعل .
* الكائن الحي المتأثر بالحالة أو بالعمل الموصوف بالفعل .
* الممكن المعين للمكان أو التوجه الفضائي للحالة أو للعمل .
* الأداة ـ القوة أو الشيء اللاحي الذي يتدخل سببياً في العمل أو في الحالة .
* المحايد (المفعول به) .

تلك بعض عناصر البنية العاملية كما توجد عند القائلين بأولية الأدوار الدلالية ، والمؤلف يسير في نفس الاتجاه ، كما يتجلى في نقده لشومسكي ، وفي تبنيه لعوامل « كريماص » .

2 ـ المورفولوجيا :

على أن ما يحكم البنية العاملية ويسيرها هو العملية الدينامية المحايثة للتعبير اللساني حتى وإن لم تلاحظ ، حتى وان حطمت نفسها أثناء الظهور ، لأنها مفترضة كعلة مادية[22]. وأهم خصائص الدينامية ومرتكزاتها : « الطوبولوجيا وما تعنيه من موقع ، قار بنيوياً ومنظم ذاتياً للالتحام بين القيم الموقعية ، ولا يوجد الا كذلك »[23]. وعلى هذا ، فان مواقع العناصر والعلائق فيما بينها وتمايزها وتفردها هي ما تعطي للعنصر هويته ، فالموقع سواء أكان ذهنياً أم فيزيائياً هو أرض العمليات الدلالية ومنطلقها ، « فالبنيوية ليست منفصلة عن الفلسفة المتعالية

---

(21) أنظر « بتيطو » خاصة «Les grammaires casuelles» .

ويمكن ترجمته « بنحو الحالات » ، ص 152 - 165، أنظر أيضاً : عبد القادر الفاسي الفهري ، المعجم العربي ـ نماذج تحليلية جديدة ـ دار توبقال ـ الدار البيضاء ، 1986، ص 34 - 40 .

(22) العلة المادية : وهي التي لا يلزم عن وجودها بالفعل وحدها حصول الشيء بالفعل . . العلة الصورية هي التي يجب عن وجودها بالفعل وجود المعلول لها بالفعل .

(23) أنظر « بتيطو » ص 62 .

الجديدة ، حيث المواقع Les lieux تتغلب على ما يملؤها »[24].

على ضوء مفهوم الطوبولوجيا وإضْفَاء الصبغة الهندسية[25]، وما يرجع اليهما من مفاهيم ناقش « بتيطو » نظرية « كريماص » منطلقاً من عدة مبادىء ، أهمها : « أن النظرية السردية بنيوية وعلاقية وموقعية ، ومن ثمة ، فان توضيحها Schématisation يجب أن يعتمد على « هندسة الموقع » واذن على التصور Eidétique الوصفي الكارثي[26]». وعلى ضوء هذا المبدأ العام صاغ فرضيات يدعو فيها الى إضفاء الصبغة الرياضية Mathématisation عَلَى المفاهيم اللامحددة ، والمفاهيم المشتقة ، والمربع السيميَائي ، ومع أن بعض الباحثين رحبوا بالصبغة الرياضية ، فانهم رأوا أنه يجب أن يسار في طريقها بتَدَرُّجٍ واحتياطَ حتى تلحق السيميو ـ سردية بالعلوم البحتة[27]ولكن بِغَيْر اختزال وَتَمَحُّلٍ .

بيد أن تِلْكَ العمليَّة ليست سهلة بسيطة ، وإنما تعتريها صعوبات كثيرة ، من بينها تعقيد النظرية المفهومية ـ الوصفية المشتقة من مفاهيم أولية ، وعجز الرياضيْين أنفسهم عن إيجاد مفاهيم كافية لتشريح النشاط السميو ـ سردي[28]. لهذا ، فإن النظرية الكارثية لم تدفع بالرياضيات الى أقصاها ، فاذا ما نظرنا الى ما قام به « بتيطو » لم نجد إلا بعض التطبيقات في المربع السيميائي ، وأما ما عدا ذلك ، فاننا نجد انتقادات أو وضع تساؤلات حول نظرية « كريماص » ليس غير . وهكذا ، فاننا نجده ركز على المربع السيميائي : ماهيته ، ومكوناته ، وعدم اتساقه ، وإحراج تقابلاته[29]. وقد اتخذ منطلقه الى كل ذلك التحديد التالي : « الكينونة ـ الصورية للمربع السيميائي ترجع في نهاية المطاف الى طوبولوجيا دينامية للأمكنة « Les Places » وللالتحامات « Les Connexions »، ولا ترجع الى منطق ساكن للحدود والعلاقات[30]»، ولهذا نجد كثيراً

(24) الكتاب المذكور ص 67.

(25) ترجمة لـ : «géométrisation» .

(26) أنظر « بتيطو » ص 134 .

« التحليل التصوري » Eidétique ، أو الوصف التصوري : Eidétique هو خطوة أولى في المنهج الذي استعمله « هسرل » Husserl لتكوين ظاهرة ـ حقق المصطلح الأستاذ شداد جهيد .

- Robert Lafon, Vocabulaire de psychopathologie et de Psychiatrie de l'enfant.

(27) Voir, Semiotica 61 - 3/4 (1986), 369 - 388.

(28) هذا ما أكده مراراً « بتيطو » نفسه عدة مرات .

(29) أنظر الهامش رقم «10» .

(30) أنظر « بتيطو » ص 52 .

ما تتردد التعابير التالية في كتابته : القيم الموقعية Les Valeurs posisionnelle ، والأمكنة Les Places ، والفضاء ـ الزمان Sptio - Temporel ـ ، وكثيراً ما نعثر على تعابير : السجال Polémique ، والمعركة Conflit، والصراع Lutte، والهيمنة domination، والانتصار Victoire ، والاختلاف differentiation، والانقطاعات discontinuites، والتفرد Singularité ، والتضمن Presupposition.

النظرية الكارثية تعتمد على هندسة الفضاء ، والتفاعل ، والتتابع الضروري أو الاحتمالي ، وهي ركائز نجدها أساسية في كثير من البحوث المتزامنة مع النظرية الكارثية ، (البنيوية ـ علم الاجتماع ـ الذكاء الاصطناعي) ، وَإِذَنْ ، فصنيعها ليس جديداً كل الجدة ، وَمَع ذَلِكَ ، فَإننا سنقتبس قولاً لـ « بتيطو » يلخص جوهرها ، يقول : « إن النظرية الكارثية لغة صورية بمعنى جديد كل الجدة ، إنها لغة ، ولكنها ليست منطقية ، وإنما هي هندسية طوبولوجية مبنية كلغة طبيعية ؛ لغـة »، علم دلالتها مهندس ، وتركيبها مكون ـ محلياً ـ من أحداث وتفاعلات بسيطة كل البساطة ، أي أحداث وتفاعلات نموذجية أولية Arechétypes « متتالية » ritualisés، وإِذَنْ مُؤَتْمَتَةٌ « automatisés »[31].

ان هذا الهاجس التجديدي هو الذي دعا « بتيطو » الى نسف النزعات المُهَيْمِنَة في الإبستمولوجيَا المعاصرة ، إبستمولوجيَا الثلاثينات المتجلية في الوضعية والتجريبية ، وهو الذي جعله يعتنق إبستمولوجيَا الحدس والحرية المبدعة والتحديدات الخالقة المؤدية الى موضوعية غير معطاة ، وإنما مبنية بجهد وعمل في إطار نظرية رياضية لا تاريخية ، ولكنها متطورة تستطيع أن تتجاوز حدودها وَتَعْقِدَ علاقات مع النظريات الأخرى ، وسنده في إبستمولوجيته فلسفة « البرت لوتمان » Albert Lautman الرياضية ، وبعض المقولات الكانطية ، والكانطية الجديدة . والظاهراتية[32]. .

ثالثاً : نظرية الشكل الهندسي[33]:

اذا كانت النظرية الكارثية ـ إبستمولوجيا ـ مثالية جديدة ، وأداتها ـ منهاجياً ـ الرياضيات

---

(31) أنظر « بتيطو » ص 84 .   (32) أنظر « بتيطو » ص 30 - 71 .

(33) ليست هناك تسمية لنظرية من النظريات بهذا العنوان ، وإنما هو من اقتراحنا ، إذ ركز المؤلف « طوماس بالمر » على الشكل الهندسي في إقامة نظريته على الهندسية . وأما عنوان كتابه ، فهو :

الأسس البيولوجية للتواصل اللساني : Biological foundations of linguistic Communication - Towards a biocybernetics of language.

- Thomas. T. Ballmer (1982).

وخصوصاً الهندسة ، وهدفها ـ عملياً ـ تحطيم الحدود بين الإنسانيات والعلوم البحتة ، فإن نظرية أخرى تبنت نفس الأداة ، وتوخت نفس الهدف ، ولكنها ـ إبستمولوجيا ـ تجريبية . تلك هي نظرية الشكل الهندسي Geometrizer . وصاحبها هو « طوماس بالمر » الذي أوضحها في كتابه : « الأسس البيولوجية للتواصل اللساني »، وسنقدم للقارى ، من هذه النظرية ، ثلاث قضايا أساسية متلازمة :

1 ـ العلاقة بين بيولوجية الكائن الانساني وتطوره اللغوي .

الفرضية التي تنطلق منها هذه النظريّة هي أن العلاقة الموجودة بين اللغة وبين الدماغ علاقة حميمة أكثر مما يتوقع ، ومن ثمة ، فان هناك علاقة وثيقة بين اللغة والفكر Thought والواقع ، ولإثبات شمولية التشابه بين اللغة والبيولوجيا اندفعت تؤسس علاقته نظرياً ومنهاجياً وفلسفياً في تناول مازج بين علم بحت وهو البيولوجيا ، وعلم إنساني وهو اللسانيات[34]. وهكذا نجد تناولاً للبنية البيولوجية والدماغية والعصبية ، كما نعثر ـ في نفس الوقت ـ على آراء مثبتة للعلاقة بين اللغة والدماغ ، ومبينة لكيفية نموهما ، بمعية ، في محيط ، هو فضاء التفاعل وتعميق الصلات بين كل أنواع نشاط الشخصية ، وخصوصاً التفاعل بين المخزون اللغوي وبين أدوار نمو العضو المركزي Central Organ[35].

إذن ، هناك مشابهة بين البنية اللغوية والبنية الدماغية ، بل إن هناك علاقة احتواء ، اذ اللغة تشمل الدماغ Brain والدماغ يحتوي اللغة ، ولكن اللغة مستقرة في الدماغ نفسه[36].

2 ـ الشكل الهندسي : Geometrizer .

كيف يمكن اثبات الفرضية الأساسية والفروض الاحتمالية الأخرى نظرياً ومنهاجياً وفلسفياً ؟ انَّ تلك النظرية تلجأ الى وسيلة فعالة أثبتت جدواها لدى بعض الباحثين في ميادين مختلفة ، وهي الاعتماد على التشكيل الهندسي ، ولهذا ، فإنها اخترعت وسيلة فضائية بنت عليها نظريتها ، ودعتها بالشكل الهندسي[37]. ولكن ما تحديده ؟ لا نجد شيئاً نهائياً ، ولكن

---

(34) سرد المؤلف قائمة طويلة من الذين كتبوا في الصلة بين البيولوجيا واللسانيات ص 2 .

(35) أنظر في هذه القضايا ص 1 - 27 .

(36) نجده يلح على هذه القضية في أكثر من موضع ، أنظر VI ، كما أنه خصص في فصل اللسانيات والبيولوجيا قسماً هاماً للعلاقة الموجودة بين اللغة والدماغ .

(37) أنظر ص 27 - 34، ص 46 - 67 .

الخلفية الإبستمولوجية والفلسفية للنظرية وجهتها الى التركيز على تحديدين ، وجعلتنا نحن نختارهما .

أولهما يحيل على الميدان الهندسي ، وهو « تجريد موقعي Localistic ، أي أن العضو والمحيط وقدراتهما موقعية أي فضائية »[38] ، وأسباب هذا التحديد كثيرة منها : أن عملية التطور والدينامية تقع على أرض الفضاء الفيزيائي ، وأن هذا الفضاء يتيح خلق المفاهيم والوصف الرياضي والتحليل ، كما أن العملية الكلامية عليه تتحقق وتنجز.

ثانيهما عام ، وهو : « تجريد من وضع شامل ubiquitous يعيش فيه العضو ، أي في محيط طبيعي وعقلي واجتماعي ولغوي كذلك ، حيث يزود العضو فيه ، فوق ذلك ، بالإدراك والقدرات الفعلية ، ويتفاعل بدينامية مع خصائص المحيط »[39] . إن هذا التحديد يتلاءم مع الطبيعة النظرية والمنهاجية التي تحققها مسبقة الفضاء والطوبولوجيا ، ويتماشى مع المنطلق البيولوجي الطبيعي المادي حيث لا انفصام بين اللغة والفكر والواقع ، وحيث لا كلل للدينامية ولا فتور .

3 ـ الدينامية :

ان القول بالطوبولوجيا تسليم بالعلاقة والارتباط والدينامية ، وتبني الشكل الهندسي يعني اتخاذه مولداً Generator للمفاهيم التي ما كان ليتاح خلقها بغنى وخصب لولاه ؛ وقبل ذلك وبعده ، فان هناك دينامية ضمن محيط . ولكن ما هي أدوات الدينامية وقوانينها ؟ يجيب عن هذا التساؤل الفرع العلمي المدعو بـ « تنظيم المفاهيم[40] » Blastematic الذي يعني بجمعها ومقارنتها ووصفها وتصنيفها انطلاقاً من الشكل الهندسي ، وبصفة أساسية بضبط مجموعة الأوضاع The Entire set of setting وبمشاكل تكوين المفهوم Concept formation ، وخصوصاً تكوين مفهوم العضو في المحيط ، كما تجيب عنه النظرية المدعوة بـ « قوانين التطور[41] » Prorhematics التي تجمع مختلف المفاهيم الوصفية المستخلصة من الشكل الهندسي والمدمجة في « تنظيم المفاهيم » وتصوغ لها القوانين التي تحكم التطور الأساسي .

تلك ، اذن ، ثلاث مراحل أساسية لضبط الدينامية وقوانينها ، وهي خلق المفاهيم ، وتنظيمها ، وصياغتها في قوانين تبين كيفية حصول التطور ؛ على أن مفهوم التطور يحتمل عدة دلالات ، فقد يقصد به عملية التطور التاريخي Philogenetic المراقبة بالطفرة Mutation

(38) أنظر ص 47 .

(39) نفس ما تقدم .

(40) أنظر ص 37 — 90 .

(41) أنظر نفس ما تقدم .

والانتقاء Selection، وقد يعني به عملية التطور الذاتي Ontogeneticلتعلم اللغة[42]. على أنه ، وان كان مفهوم « تطور » غامضاً ، وان كان يحتمل عدة دلالات ، لا ينبغي إعارة كبير اهتمام لهذه الثنائية إلا في حدود ضيقة ، وإنما الشيء الذي يجب التركيز عليه هو النواة ـ الموضوع الثابت الذي تنصب عليه عملية التطور .

عملية التطور الدينامية ، اذن ، ومراقبتها ووصفها وصياغة قوانين لها هي صلب هذه النظرية ولبها : وقد برهنت عليها نظرية الشكل الهندسي من خلال دراسة الأفعال في اللغة الألمانية[43] .

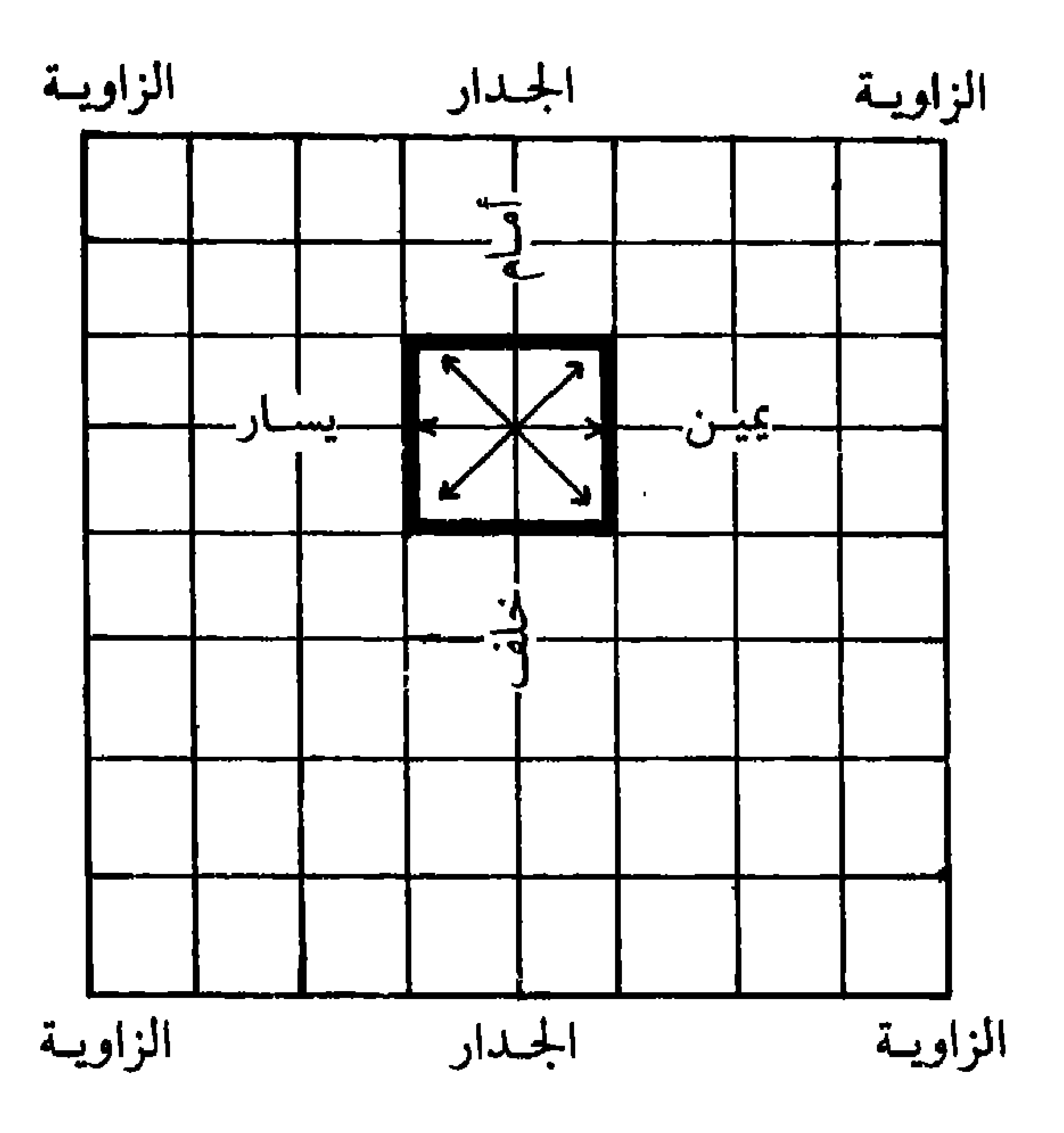
قد يقال : ان هذه النظرية تتناول دينامية اللغة حقاً ، ولكنها ليست بالمستوى الذي نحن فيه ، أي دينامية النص ، على أننا سنبين أنها ـ وإن كانت تناولت مستوى التطور وزمانه ونموذج التطور من خلال الأفعال ـ اهتمت بدينامية النص بطريقة مباشرة ، وبطريق المشابهة والإسقاط .

ان الطريقة المباشرة نجدها في تحديد المؤهلات اللغوية بأنها هي : « القدرة على انتاج متواليات صوتية مع شكل تركيبي ما ، ومع بعض المعنى ، ومع بعض القصد ، وفي بعض السياق الطبيعي والعقلي والاجتماعي ، بموافقة بعض النماذج Patterns والقواعد والاستراتيجيات واللغات ثمار المفهومية والجهازات البيولوجية ـ الاجتماعية[44]» ، لماذا هذه القدرة اللغوية مع ما ينتج عنها من عمليات ؟ لتحقيق التواصل والحوار وما يتبعهما من عمل أو فعل أو تفاعل لغوي واجتماعي معاً أو لغوي فقط . ذلك أنه ، اذا لم تكن الغاية المعرفية والعملية وراء الإنتاج اللغوي ، فإنه ما كانت لتوضع مثل هذه الشروط لتحقيق التخاطب : شروط لغوية ، وشروط نفسانية ، وشروط مقتضيات أحوال .

أما طريق المشابهة والاسقاط ، فاننا نستنتجها من الشكل الهندسي[45] :

---

(42) أنظر ص 42 .
(43) أنظر ص 29 - 345 .
(44) أنظر ص 44 .
(45) أنظر ص 48 - 56 .



لنعتبر هذا المربع نصاً ، وهو المجال ، ولنفرض أن المربع الصغير الموجود في وسطه هو الكلمة ، اذن هذه الكلمة تربط علاقات في الاتجاهات الأربعة ، وإذا ما نقلنا هذه العلاقات الى الميدان البنيوي ، فاننا نعبر ، حينئذ ، بالمحور الأفقي وبالمحور العمودي ، وعليه ، فان أية كلمة تكون لها علاقة بما قبلها وبما بعدها مُـركَّبياً. وإبدالياً ؛ على أنها قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية ، ولكنه مهما كان الأمر ، فإنها موجودة بالضرورة . بيد أنه ، إذا كان ليس هناك إشكال في هذا الرسم ، فان مسألة الموقع تصبح محرجة في بداية النص وفي نهايته : أي « قبل » في البداية أفقياً وعمودياً ؟ وأي « بعد » في النهاية أفقياً وعمودياً ؟ إذا انطلقنا من المحسوس تصبح الإجابة عسيرة ، ولكننا اذا نظرنا الى الأمر في دينامية يصير الجواب سهلاً يسيراً . وتوضيح ذلك أن الجملة المنطلق ليست إلا امتداداً لغوياً لما قبلها ، وإن كان في حالة إضمار ، وجملة النهاية ليست إلا تكثيفاً لما قبلها كما أنها ستمطط فيما بعدها ، ومع ذلك فموقع الكلمة في محيطها المحسوس يحدد مقدار تحركها وإشعاعها وتضامنها وتفاعلها .

على أن هذه الفعاليات قد تتجاوز الوجهات الأربع الى ثمان أو أكثر ، ولكننا نعتقد أن ليس كل الكلمات على مستوى واحد في الفعالية والتشعب ، وإنما نزعم أن الكلمات الأمهات أكثر تشعباً ، وأن البنات هي دون ذلك . بيد أنه يمكن طرح السؤال التالي : أيمكن التنبؤ بمدى التشعب في محيط النص ؟ لا يمكن معاملة الكلمة في كل النصوص على شاكلة واحدة ، ففي

النصوص اللا أدبية يمكن أن يتوقع ما يتلو ضرورة أو احتمالاً ، وأما في الأدبية فانه يصعب ، ومع ذلك ، فان التنبؤ ممكن ولكن بدرجات من الاحتمال كثيرة[46].

قد تظهر هذه النظرية البيولوجية ـ اللسانية أن لا علاقة لها بنمو النص ، ولكننا عندما نتأملها نجدها تذهب في المشابهة Similarity بين اللغة ، ومنها النص بطبيعة الحال ، وبين البيولوجيا الى أقصى الحدود . هذه المشابهة التي تصل الى حَدِّ المطابقة بين اللغة والفكر والواقع ؛ وعليه فقد يصح القول : إن النص ليس الا تجلياً تفاعلياً للعمليات الذهنية المتفاعلة ، مهما كانت درجة التفاعل سواء أدى الى تشعب نماذج أولية Fork Archetypes أم أدى الى تَشَعُّبِ ديناميَّةٍ Fork dynamics ؛ ولكن هذه الثنائية ليست الا إجرائية ، فالنوعان يتحققان وينجزان على مستوى فضاء المعنى Meaning space'[47].

رابعاً ـ نظرية الحرمان[48] :

ان هذه المطابقة ، أو على الأقل ، المشابهة بين آليات عمل الدماغ وعمل الآليات اللغوية ، هي ما نجده ، مع نوع من الاحتياط وقليل من الحماس ، في اتجاه يأخذ بنظرية الحرمان Theorie de frustation . ويمكن أن يتخذ نموذجاً له بحث « جان ماري بـرادي » Jean Marie Pradier الذي عنوانه : « البيو ـ لوجي والسيميو ـ لوجي : من بنية الحي الى حياة المعنى »، ومنطلقه الأساسي هو أن المعرفة لا تقتصر على التداول المنظم للمعلومات وحسب ، ولكنها تمارس تأثيراً في الأعضاء التي بقاؤها نفسه خاضع للمعرفة ؛ وسرعة عملية الانعكاس المؤسسة للمعرفة فرضت إعادة تقويم الإدراك ، والسنن الرمزية التي تضمن خزن المعلومات ونقلها وعلاجهـا ، وما أدى الى هذه السرعة في ميدان المعرفة هي العلوم المعاصرة مثل البيولوجيا والفيزياء والميكانيكا . وقد ساهم بعض هذه العلوم في الكشف عن العلاقات الوثيقة التي تربطه بالسيميوطيقا .

---

(46) هذا ما برهن عليه « بالمر » نفسه في ص 50 - 56 .

(47) أنظر مقاله في : 493 - 539 ، Poetics A 2 (1982) .

(48) ليس هناك نظرية بهذا الاسم ، وإنما استنتجناها من آخر المقالة «Theorie de frustration» ، وإنمـا عنوان المقالة :

Bio - Logique et Sémio - Logique. de la Structure du vivant à la vie du sens -Degrés. PP.1 - 16.

Jean Marie Pradier.

لذلك يجب الرجوع إلى أصلها الفيزيائي للاطلاع على معناها بدقّةٍ ؛ ومهما يكن الأمر فإن ما يهمنا منها هو : الدينامية والتفاعل .

على أن « محاولة إلحام العلاقة بين البيولوجيا وَالسيميوطيقا العامة قد تتطلب مسبقاً فحص مشكل المعرفة وَنَقْلَهَا[49] كيف تحصل المعرفة ؟ أبطريق الحدس والاستبصار أم بطريق التجربة ؟ هل وصل البحث منتهاه في علم البيولوجيا ؟ ليس هناك إجابات محددة ونهائية . وتبعاً لذلك فان العلاقة بين البيولوجيا / السيميوطيقا تبقى افتراضية أي خديعة leurre . ذلك أنه ، اذا كان الدماغ حقيقة دينامية ، فإنه تجهل ، في نفس الوقت ، قدرته البنيوية وحدود كفايته الوظيفية على خلاف ما يظهر للعقلانية القائمة على الثنائية (يمين الدماغ / يسار الدماغ) .

بيد أن ما تسهم به النظرية البيولوجية المعاصرة هو مفهوم التنظيم الذاتي الذي هو : « نوع حالة مثلى » « Optimum » بين نظام صلب وغير متحرك وعاجز عن أن يتغير بدون أن يتحطم ـ مثل البلور ـ من جهة ، ومن جهة أخرى ، بين تجدد مستمر ، بدون أي استقرار ، محدث للفوضى ، أي نفثات ملتفة من الدخان . يتعلق الأمر ، اذن ، بتسوية ـ وهي ضرورية ودينامية هنا ـ تسمح برد الفعل على الاضطرابات اللامتوقعة ، الناتجة عن « الصدفة » بتغييرات تنظيم تسمح بظهور خصائص جديدة . هذه الخصائص يمكن أن تكون بنية جديدة ، أو سلوكاً جديداً مشروطاً هو نفسه ببنيات جديدة ليس هناك ما يسمح بتوقع تفاصيلها أو خصوصيتها[50] .

إن هذا النص هو لـ « هنري أطلان » « Henri Atlan» ، وقد تبناه كاتب البحث لأنه يساير التقاليد البيولوجية التطورية منذ « لا مارك » الى النظرية الكارثية المعاصرة . ذلك أن الثابت البنيوي القار والصلب تعتريه الدينامية والصراع مما يسمح بحدوث شيء ، بنية ، كيان ، ولكنها تنتمي اليه . وليس هذا إلا صياغة جديدة للمفهومين الكارثيين : الحادثة والكارثة ، فالحادثة تؤثر في البنية الأساسية بإزالة بعض خصائصها وأوصافها ، ولكنها تضيف خصائص وأوصافاً ترجع ـ في نهاية التحليل ـ الى أن تقبل لتركم على البنية الأولى ، وأما الكارثة فهي ما تقوم بتغييرات كبيرة في البنية الأولى فتتشعب الى أنواع عديدة ، ومع ذلك ، فان ما يتبقى من البنية الأولى يظل موجهاً لسائر البنى .

ان هذه النظرية البيولوجية الثنائية هي التي نجد أصداء لها في الدراسات السيميوطيقية وفي تحليل الخطاب ، وفي فلسفة اللغة . . فهناك منظور سكوني يرى أن اللغة مرآة عاكسة لأشياء المحيط ، واللغة والمحيط ـ بدورهما ـ ساكنان ومعطيان مرة واحدة ، وهناك منظور

---

(49) أنظر ص 2 .　　(50) أنظر ص 6 .

دينامي يعتقد أن اللغة والمحيط في تفاعـل مستمر ونمـو مطرد وتشعب أبـدي ، على أنـه يمكن التـوفيق بين وجهتي النـظر هذه ، اذ يمكن التحـدث عن المعنى كتسويـة مما يسمـح بضمـان الانسجام الوجودي ـ الشخصي والجماعي ـ وبضمان الأعضاء « اللامستقرة » ؛ فاللغة تستعمل وتخلق وتتداول في مختلف الأشكال تكملة لما عجزت عنه الأعضاء البيولوجيـة[51]، وهذا يعني تداخل البيولوجي مع الثقافي ، وتأثير كل منهما في الآخر ، ومؤدى هذا أن المؤهـلات اللغويـة تختلف باختلاف البيئة ، ومن ثمة ، فانه غير ممكن القيام بسيميوطيقا عامة ، وسنناقش هذا فيما بعد .

بيد أن المشابهة بَيْنَ البيولوجي واللغـوي تتوضـح لدى كـاتب البحث في قولـه التالي : « الحمولة الإعلامية لوحدة بيولوجية متغيرة جداً بسبب موقعها في مجموعة ، وبارتباطها المؤسس بينها وبين عناصر المجموع[52]» ، ففي هـذا تذكـير واضح بمـا قدمنـاه في نظريـة « كـريماص » والنـظرية الكـارثية ، ونـظرية الشكـل الهندسي ، فهي كلهـا تعنى بالـموقع . وبـالمجموعـة ، وبالعناصر ، والعلاقة ، والالتحام ، والدينامية ، والصراع ـ أي التفاعل والتحارم مع امتناع القضاء على الثابت .

خامساً : ـ نظرية الذكاء الاصطناعي .

ان هـذه النظريـة النسبية المحتـاطة تقـابلها نـظريات إعـلامية ومعلومـاتيـة ونفسـانيـة وبيـولـوجيـة . وقـد أدمجت هـذه النـظريـات جميعهـا فيـما يصـطلح عليــه بـ « الـذكـاء الاصطناعي[53] » ، فقد بالغت هذه النظرية التوليفية في المشابهة بين الذاكرتين : ذاكرة الكائن الانساني ، وذاكرة الحاسُوب ؛ ونتيجة لهذا ، فقد تم اللقاء بين الدراسات اللسانية النفسـانية واللسانيات التحسيبية وإجراءات الذكاء الاصطناعي من خلال محاولات تـطبيقية لفهم و/ أو توليد النصوص في اللغة الطبيعية ، ولإعادة إنتاج الأقوال وفهمها ، بل لإظهار الآليات اللغوية وعمليات إعادة الإنتاج .

وإنجـازاً لهذا المشـروع ، ورغبـة في ضبط السلوك الإنسـاني وغيـره صيغت نـظريـات ومفـاهيم[54]مثـل : الأطـر Frames ، والمـدونـات Scripts ، والحـوارات Scenarios ،

---

(51) أنظر ص 7 .

(52) أنظر ص 13 .

(53) أنظر مقالات :

C - C 8 Jean - Luc Vidick, Sémiologie et Intelligence artificielle.

B - B 23. Jean Claude Gardin, Sémiologie et informatique - Degrés .

(54) Gillian Brown and George Yule (1983), Discourse analysis, PP. 238 - 250.

والخطاطات Schema أو Schemata ، ومن القاعدة الى القمة Bottam - up[55]، ومن القمة الى القاعدة Top - doum، والفرض الاستكشافي[56]Abduction.

ما معنى هذه النظريات ؟ ما العلاقة بينها ؟ هل لها كلها نفس المستوى ؟ ما مدى نجاعتها في فهم الخطاب وإعادة انتاجه ؟ لا يمكن لنا الإجابة عن هذه الأسئلة بكل تفصيل ، وإنما سنحاول أن نلقي بعض الأضواء ثم نرشد القارىء إلى المراجع ليستكمل معلوماته .

إن هذه النظريات والمفاهيم ليست لها تحديدات واحدة عند جميع الباحثين في هذا الميدان ، ولكننا ـ مع ذلك ـ نستطيع أن نستخلص الثوابت التي جعلتها تَتَشَابَهُ وتنتمي الى نفس الحقل المعرفي .

* الأطر هي شبكة من العلاقات يكون مستواها النموذجي الأولي مطابقاً لأحداث ثابتة Stereotyped متعلقة بأوضاع نموذجية ، وشبكة دنيا هي تحققات لتلك الشبكة ، وبتعبير آخر ، فان الأطر تتكون من عناصر ضرورية Slot ، وعناصر اختيارية مالئة filler لتلك العناصر الضرورية المجردة .

* المدونات هي متتالية ثابتة من الأحداث النموذجية التي تصف وضعاً ـ أي تتالي العلاقات الزمانية والمكانية وانتظامها[57].

* الخطاطات تشبه ـ الى حد كبير ـ المدونات ، اذ كل منهما يعني التتابع والترابط .

* الحوارات تتسم بالتتابع والتتالي .

إذا كانت هذه النظريات جميعها تلح على تبعية المفاهيم والأحداث بعضها لبعض ، وعلى تعالقها وارتباطها ، فإنه يستفاد من بعض الدراسات أن الأطر أعم من المدونات[58]، ومن

---

(55) أنظر الكتاب المذكور فويقه ص 234 .

(56) ترجمنا : «Abduction» بالفرض الاستكشافي ، استئناساً بمفهوم «Detective Model»، ويترجمه د. جميل صليبا بـ : « القياس الاحتمالي » وهو ما يكون قياس كبراه يقينية وصغراه محتملة ، ونتيجته محتملة كذلك في قوة الصغرى أو دونها » ص 211 المعجم الفلسفي .

(57) Jerry Samet and Roger Schank (1984), Coherence and connectivity. Languistic and philosophy 7 (1984) 57 - 82.

(58) Neal Norrick, A frame theoritical analysis of Verbal humor: Bisociation as Schema Confliet. Semiotica 60 - 3/4 (1986), 225 - 254.

أنظر أيضاً في العدد نفسه :

Graziella Fonfoni, Paradoxes and Censors. Semiotica 60 - 3/4 (1986) 247 - 257.

الخطاطات ، وعلى هذا الأساس ، فقد يصح جعل هذين عبارة عن بعض الأحداث الضرورية التي هي جزء من إطار عام أشمل ، ولكن تلك الأحداث نفسها تحتوي على أحداث اختيارية أو مشاهد Scenes يمكن أن يملأ بعضها كما يمكن أن يظل بعضها فارغاً ، ولكنه محايث للبنية الذهنية لمنتج الخطاب كما أنه متضمن في « العلبة السوداء » للمتلقي ، إذ يستطيع أن يملأه اعتماداً على ما هو مخزون في تلك العلبة .

ان هذه النظريات جميعها ـ بما تركز عليه من بنيات ثابتة معطاة ، وتتال ، وكلية ، واختزان ، وسحب ـ تجعلنا نتساءل : ألا يمكن للمتلقي أن يتعرف على الإطار الا اذا كان على علم سابق به ؟ فاذا لم يكن له علم ، فما العمل اذن ؟ قدمنا قبل، أن وقت الجواب عن هذا السؤال بكيفية قطعية ونهائية لم يحن بعد ، ولذلك ، فان ما يقدم من أجوبة في هذا الشأن ينبغي أن يعتبر مجرد محاولات . وبهذا الاعتبار ننظر الى إجابات اللسانيات التحسيبية وخصوصاً جانبها التواصلي « Computing communication function »[59].

لقد وضعت عدة مفاهيم منها : « من القاعدة إلَى القِمَّةِ » و « من القمة الى القاعدة » ، ويعني المفهوم الأول أن المتلقي اذا وجد مؤشراً لغوياً ما ، (وليكن كلمة أو تركيباً ، أو عنواناً أو . . .) ولم يفهم معناه ، فان عليه أن يتفهم المؤشر ثم البنية ثم الجملة ، واعتماداً على هذه العمليات التحسيبية الفهمية يمكن أن ينطلق المتلقي من القمة الى القاعدة في عملية تنبئية معتمدة على البنيات المعرفية المختزنة في الذاكرة . وهكذا ، فان « ما يعطى » يتخذ مؤشراً « Cue » « لبناء نماذج ذهنية مألوفة[60] » ، ومعنى هذا أن النص لا يقدم كل ما في جعبته على سواد الصفحة ، وإنما على المتلقي أن يلجأ أحياناً كثيرة إلى القيام بعمليات استدلالية بسيطة أو معقدة مثل ما أشرنا اليه هنا ، ولكن أشهرها هو ما يدعى بـ« الفرض الاستكشافي » الذي هو شكل من الاستدلال لتفسير الفرضيات ، فلذلك ، فإنه لا يمكن أن يبرر ـ قبلياً ـ منطقياً أو تجريبياً[61] ، وقد يظهر ـ بادىء الأمر ـ أن « الفرض الاستكشافي » بعيد عما نحن فيه ، اذ يتعلق أمره بالقياس المنطقي ، وبمناهج الاستقراء والاستنتاج ، ولكن هذا الظهور لا يلبث أن

---

(59) أنظر المؤلف المذكور في هامش «54» ص 226 - 331 . بصفة خاصة .

(60) المؤلف المذكور فويقه ص 251 .

(61) Jean Petito, Thèses pour une objectivité Semiotique g.Degrés, 1 - 23.

أنظر أيضاً المقال الوارد في هامش «53» .

et Paul Thagard, Charle Peirce, Sherlock Holmes, and Artificial intelligence. Semiotica 60 - 3/4 (1986). 289 - 295.

يتلاشى . ذلك أن فهم النصوص وتأويلها وخصوصاً الغامض منها ينطلق من مؤشرات لا تصلح أن يعتمد عليها بكيفية نهائية لمنح النص معنى ودلالة ، وإنما على المتلقي أن يتتبع آثار تلك المؤشرات بطريقة بوليسية حتى يظفر بالمعنى الظنين ويلقي القبض عليه ، وحينئذ ، فإنه يختبر ما توصل اليه بالاستقراء ، فاذا ما صح فانه يستنتج : (إذا كان كذا ، إذن يكون كذا) ، وإذا لم يتحصل المقصود ، فإنه يعيد النظر في الفرض المنطلق منه . ويستبدل به غيره . وأما إذًا كانت النصوص واضحة مثل بنية الشعر العربي التقليدي فإن ما ينطلق منه يصبح بمثابة فرض استنتاجي : (إذا بدأ الشاعر بكذا ، فان القصيدة أو المقطوعة هي كذا . . .) ومهما يكن ، فان « الفرض الاستكشافي » ـ في حال صحته ـ يجمع بين الاستقراء والاستنتاج .

ان الفرض اشتغل ، في كلتا الحالتين ، من معرفة مختزنة في الذاكرة ، على أنها ليست خاصة بالمتلقي . وإنما هي مشتركة بينه وبين المرسل ؛ فالمرسل يراعي ما يتوقعه منه متلقيه فيماشيه ويكيف خطابه إرضاءً له ، والمتلقي يُؤَوِّلُ النص بانتظاره وتوقعه ، وبعبارة أخرى ، فإن عملية إنتاج النص تقتضي انتقاء وتركيباً ، وهدماً وبناء ، كما أن عملية فهمه تحكمها الآليات نفسها ، ذلك أن خزان الذاكرة يمد المرسل بِفَيْضٍ غزير من الأطر للتعبير عن موقف ما ، ولكنه يختار منه ما يلائم المتلقي ويناسب مقتضيات الأحوال ، كما أنه يفعل نفس الصنيع مع المتلقي ولكنه ينظم عمليتي : الاسترداد Retrieval والاستدلال inference بحسب مقتضيات النص إن كَفَتْ ، فاذا لَمْ تَكْفِ فلتعزز بالمقتضيات الخارجية ؛ وعلى هذا ، فإنه صار مشروعاً إدخال السياق الخارجي لملء فراغات النص، وللتمكن من تأويله ، كما أنه صار مشروعاً تعميم مفهوم « القمة ـ القاعدة » ليشمل انسجام النص الداخلي والخارجي[62] .

يستنتج مما تقدم أن ما يدعى بالذكاء الاصطناعي هو استغلال لنتائج عدة علوم ، وتوليف بين مناهجها ومفاهيمها ، أهمها :

* علم البيولوجيا ، فهناك علاقة وثيقة بين هذا العلم والمعلوماتية ، فمن الاكتشافات البيولوجية الحيوانية والإنسانية الى تطبيقاتها على الآلة ، ومن نتائج التطبيقات إلى إعادة الكرة للتعمق في آليات الانسان .

* علم النفس المعرفي الذي تولدت عَنْهُ نظرية الأطر ، ونظرية المدونات ، ونظرية النماذج الذهنية ، وعلم النفس الجشتالتي .

---

(62) رأينا هذا التوسيع في مقالة :

Jean Michel Adam, Dimention Sequentielle et configurationnelle du Texte - Degrés - B.B 22.

* نظرية اللسانيات التحسيبيـة التي راعت استعمال الثقـافة الاجتمـاعية العـامة لفهم الرسالة واعتبارها عملاً ، وربطت بين الرسائل بوضع مبدأ المشابهة ، وألحمت بين المتواليات بوسائل التأويل المحلي ، وبالاستدلال ، وبالسؤال والجواب .

* نظرية البنيوية الدينامية التي تنظر إلى العلامات في دينامية وتفاعلية عن طـريق النفي الكيفي والحرماني والعدمي كما لاحظنا لدى« كريماص » و« بتيطو » ، و« بالمر ».

قد يظن ـ لأول وهلة ـ أن لا علاقة بين هذه النظريات ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فاذا كان الذكـاء الاصطنـاعي ، وهو مُقْتَبِسٌ من علـم النفس المعـرفي . والجشتالتي، يؤكـد على مستويات من المعارف مجردة وثابتة وكُلِّيَّة مختزنة في الذاكرة ، ومستويات فرعية مرتبطة بها عن طـريق التداعي ، فـان النماذج التحسيبيـة قدمت « الـوسيلة الاجرائيـة لتأسيس العـلاقـات الـوظيفية الممكـن وجـودها بـين مختلف المستويـات تجريـدياً[63] ». وكـذلـك فعلت نـظريـة « كريماص » والنظرية الكارثية ونظريات انسجام النص المختلفة .

ان هذه النظريـات وهذه المفـاهيم يجمعها هـاجس مشترك ، وهـو قصد البـرهنة عـلى انسجـام النص ، إذ صار الشغـل الشاغـل للباحثـين في ميدان تحليـل الخطاب في السنـوات الأخيرة . ولعل من أهم الدراسات ما يركـز على استغـلال نظريـة الأطر لـدراسه أنـواع من الخطاب مثل الدُّعَابَة والنكت والألغاز . . . فقد استثمر بعضها مفهوم صراع الخطاطات Sche-ma Conflict . ووضع بعضها مفاهيم لإقامـة جهاز رقـابة ليبـين من خلالـه مدى الصـراع وليستخلص به الإطار الأصلي والأطر الفرعية . على أننا سنبين ـ فيما بعد ـ أننا سنـذهـب بهذه المفاهيم الى أبعدَ مدى[64].

سادساً : ـ نظرية التواصل والعمل .

رأينا ـ فيما سبق ـ أن جـوهر مـا تقوم عليـه نظريـة الذكـاء الاصطنـاعي هو الـديناميـة والتفاعل ، وهذا الجوهر هو ما ترتكزعليه « نظرية التواصل والعمل أيضاً[65] »، بل انها ذهبت بالتفاعل ـ خصوصاً ـ الى أبعد الحدود ، وحاولت أن تقنن له .

---

(63) أنظر المقال الوارد في هامش 53، ص 7 .

(64) أنظر الفقرة رقم «3» من التوظيف .

(65) Leo Apstel, Pragmatique Praxéo Logique: Communication et action, PP 193 - 315 in le langage en contexte Amsterdam, 1980.

إن هذه النظرية هي توليف بين نظريات مختلفة ، إذ هي تنتقي من نظرية العمل التاريخية والاجتماعية ، وهي تمتحُ من نظرية الأفعال الكلامية ، ونظرية اللعب اللغوي وغيرهما .

نَنْطلق من الفروض التالية : « نظرية الخطاب ونظرية فعل التواصل يجب أن يـدمجا في اطار نظرية عامة للعمل[66] » ، « كل مشاكل النص يمكن حلها ضمن نظرية العمل [67] » ، كما أنها تنتهي الى النتيجـة الأساسيـة الآتية : « كـل النصوص هي جـزء من الحوار الصـريح أو الضمني ، وهي ليست الا أشكالاً من التعاون ، ومن ثمة تجب دراستها في اطار نظرية العمل الجماعي[68] » .

تبتدىء بمناقشة آراء المؤرخين ، وعلماء الاجتماع في نظرية العمل ، ولذلك نجد عرضاً لآراء Von Wright ، و Chisholm ، و Agvist ، و Scheffer ، فتقديماً لبعض مصادراتها ، مثل : « أن الحالة الابتدائية للتواصل والحالة النهائية له هما بناء العامل الذي يتكلم والعامـل الذي يسمع » ، فصورنتها لاستخراج حالات تحول العامل المتكلم والعامـل المستمع ولضبط نوع علاقة التفاعـل بينهما ، ثم صـورنتها للنـظرية القصـدية للدلالـة بواسـطة منطق العمـل المتضمن للمقصدية وللمعرفة المبادلة ، هادفة الى تجاوز ما جاء عند بعض فلاسفة اللغة ، ثم انتهت الى الخلاصات التالية[69] :

- « فعل التواصل هو تحويل للمتكلم وللمخاطب ولعلاقاتهما في آن واحد » .
- « فعل التواصل يتحدد بهدفه » .
- « كل فعل تواصل هو في نفس الوقت ينتج حصيلة مختلفة عن مجرد وجود تعبير شفوي أو كتابي » .

بيد أنها لم تكتف بتسجيل هذه الخلاصات ، وإنما اندفعت الى ميدانـين خاصـين ، هما نحو النص ، والنظرية الحوارية ، ولعل هذا القسم هو الأكثر اتصالاً بمجال تحليل النصوص ، ففيه مناقشة لكثير من القضايا التي تتعلق بهذا المجال : تحديد النص، وانتـاجه ، وتـأويله ، ودلالتهِ ، وتداوله . . . وقواعد « كرايص » ــــ والنحو المقولي . . . وأثناء ذلك نجد مصادرات هي أساس التحليل والموجهة له ، مثل : « نظرية النص مشتقة من أن قولاً ما غير منفصل :

---

(66) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 230 .

(67) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 227 .

(68) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 306 .

(69) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 216 - 217 .

ينتهي دائماً ، فعلاً أو قوة، الى نص فسيح الأرجاء[70]» ، ولكن ما العلاقة بين نظريـة العمل ونظرية النص ؟ إنها علاقة اشتقاق ، فالعمـل لا يفهم إلا كعنصر من عائلة أعمـال ، كما أن الجملة لا تفهم إلا بإدماجها في نظام الجمل[71]» ، وعليه ، فإن « انسجام النص لا يفهم إلا كانسجام لمتوالية أعمال[72]» .

إن انسجام النص يتحقق على المستوى اللغوي والعاملي والزمني والهدفي ، فعملية النص التوليدية تسير في تدرج تنازلي حسب خطاطة محكومة بـالفضاء وبـالزمـان ، فارضـة عمليتي الإنتاج والتأويل ، إنها خطاطة العمل الْمُغَيِّى الدينامي القائم على التعاون والصراع- أي التفاعل . لذلك ضبطت شروط نجاح التفاعل وصورنتها بعد استعراض الأدبيات الواردة في التداولية ، واعتبرته سلسلة مترابطة الحلقات : « الفعل التواصلي هو فعل العمل الذي يتخذ هدفاً له إثارة عمل ما[73]» ، ولتحقيق هذا التسلسل ، فانه يجب أن تتوفر في الفعل التواصلي : العلاقة بين المتكلم والمخاطب ، ووضوح وسائل الاتصال ، والعلاقة المكانية والعلاقة الزمانية والعلاقة بين الأشياء[74]الخ .

ليست نظرية التواصل والعمل إلا توليفاً لنظريـات معاصـرة مختلفة اجتمـاعية ولسـانية وعلمية ، ولذلك ، فاننا وجدنا بالضرورة أنواعاً من التشارك بين ما رأينـاه سابقـاً وبين هـذه النظرية .

خلاصة :

اذن ، لا ريب في أن هنـاك مؤشراً مشتـركاً يجمـع بين هـذه النظريـات جميعها ، وهـو دينامية النص ، فالنظرية الكريماصية لمحت الى ذلـك وطبقته بكيفيـة ضمنية، وبنت النـظرية الكـارثيـة أسسها عـلى البنيويـة الديناميـة ممـا جعـل أصحـابهـا لا يملون من تـرداد مفـاهيم البيـولوجيـة ومَقُولاَتها ، ويتخذونها جـوهر كـل تـطور وكـل نشـاط ، وبلغ ربط الصلة بـين اللغة والبيولوجيا في نظرية « الشكل الهندسي » مَدَاهُ حتى إننا نجدها تلح على التضمن المتبادل بين الدماغ وبين اللغة : « فاللغة تشمل الدماغ ، والدماغ يحتوي اللغة ، ولكن اللغة كامنة في

---

(70) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 218 .

(71) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 218 .

(72) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 221 .

(73) أنظر المرجع المذكور فويقه ص 278 . وما بعد .

(74) يجب الرجوع إلى البحث لمزيد الاطلاع .

الدماغ نفسه » ، وهذا الاتجاه نفسه هو ما نجده لدى « نظرية الحرمان » ، إذ تؤكد أن العلاقة بين البيولوجيا والسيميوطيقا واضحة ، « فالدماغ هو الذي ينتج الأشياء العقلية ويستهلكها ، ويتطور تحت تأثير المحيط ليتكيف معه فتتطور لغته » ، وأن البيولوجي والثقافي متداخلان ، واذ أصبحا كذلك ، فانهما يجدان تطبيقاً ناجحاً لهذا التَّدَاخُلِ فيما يسمى بالذكاء الاصطناعي ، فالدماغ إذا كان يحتوي على الذاكرة فإن الحاسوب له ذاكرة طويلة وقصيرة أيضاً ، وإذا كان الدماغ يأمر بتنفيذ الأوامر بكيفية متسلسلة ومنتظمة ، فإن الحاسوب يقوم بتنفيذها بالكيفية نفسها ، هذه المبادىء هي التي نجدها تتحكم في نظرية التواصل والعمل ، فكل عمل يثير عملاً في سلسلة متتالية وحسب خطاطة معينة في توالد وصيرورة . . . وكل فعل تواصلي مترابط الأعضاء يتأثر بعضها ببعض ويتداعى بعضها لتداعي بعض . . .

II

الأسس الفلسفية والابستمولوجية :

1 ـ مسألة الثابت :

إن بيولوجية القرن التاسع عشر : « أصبحت مهيمنة من خلال التقدم الهائل والمصاحب بالمعلوماتية والبيولوجيا والتواصلية. . .[75]»، على أن أصول البيولوجيا ترجع الى ما قبل ذلك ، فـ« كانط » آراؤه البيولوجية التي تقول بوجود غايات طبيعية هي « سبب وعلة لنفسها[76]» ، هذه الغايات الطبيعية البيولوجية حسب « كانط » هي قوانين التكون، والانتظام، وإعادة الإنتاج ، والعلاقة التكيفية مع المحيط ، وهذه القوانين ذات تنظيم ذاتي تحكمها العلاقة الوثيقة بين الكل وأجزائه .

ان هذه النظرية «الكانطية» في البيولوجيا ، واتجاهه العقلاني المؤكد على كون المعرفة متجذرة في العقل ومستنتجة من المسلمات الواضحة بنفسها ، أو من الأفكار الفطرية ، ومحاولته الجمع بين التجريبية والعقلانية بمفهوم التعالي الذي يعني أن المعطيات الحسية موجودة وأساسية ولكنها منظمة بالفهم من خلال المفاهيم والمقولات هي ما نجده لدى الظاهراتية ، إذ هي تمزج بين الذات والواقع للتوصل الى المعرفة ، وتركز على التجربة المباشرة للظاهرة ،

---

(75) أنظر بتيطو (1985) ص 207 .

(76) اعتمدت في تحرير هذه الفقرة على مراجع متعددة: أهمها :

- Alexandros. Ph. I La Poulos, Semiotics andHistory: A Marxist approach. Semiotica 59 - 3/4 (1986), 215 - 244.
- La recherche, En histoire des Science 1983, Le point, Paris.
- Histoire de la Science des origines au XX e siecle, sous la direction de Maurice Dumas. Encyclopédie de la Pléade, Paris, 1957.

محمد وقيدي ، فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار ، دار الطليعة ، بيروت ، 1980 .

ـ أنظر كتاب « بتيطو » 1985 .

ولكنها تدافع عن التمحيص الحسي ؛ على أننا نجد جمعاً للجمع - أي بين « الكانطية » والظاهراتية لدى ليفي ستراوس ، فبرهنته تنطلق من المجتمع ونشاطه التواصلي - باعتباره ظاهرة - إلى الثوابت الإنسانية اللاواعية المتجذرة في الفكر البشري ، مما يعطي في نهاية المطاف ما أطلق عليه اسم « الوضعية الجديدة » التي تنطلق من الوقائع الموضوعية وتمارس عليها التجربة للوصول الى قوانين عامة تحقق التفسير والتنبؤ .

البنيوية ، اذن ، ذات أساس عقلاني تمتد ركائزه - على الأقل - الى فلسفة « كانط » ، وأفقها الوصف الظاهراتي الواقعي : **تنطلق من ظاهر الوقائع الى اكتشاف ماهية البنية المتجذرة في الفكر الانساني والمحددة بيولوجياً** ، هذه البنية التي لها عناصر متفاعلة متنافية وتضمنية .

هذه بعض الأسس الفلسفية والابستمولوجية التي بنيت عليها النظريات التي تعرضنا اليها مع بعض الاختلاف في المنهاجية وطرق الإجراء ، ومع اختلاف درجات توظيف ما جدّ في الدراسات الاعلامية والمعلوماتية والبيولوجية المعاصرة ، ولتوضيح هذا نذكر بما يلي :

أ - + ينطلق « كريماص » من التفرقة بين البنيــة العميقـة والبنيــة السـطحيــة ، والأهم - عنده - هو البنية العميقة التي تتكون من مورفولوجية تصنيفية ، وهي المربع السيميائي والعوامل الستة ، وأما البنيـة السطحيـة فليست إلا تجليات لإسقـاط مكوني البنيـة العميقة ، ولكن البنيتين معاً ليستا إلا إظهاراً وتغييراً وتحويلاً للخطاطة Schème حسب تعبير « جوته » Goethe أو للبنيات الأنتربولوجية للخيالي حسب « جلبير دوراند »[77] .

ب - + مفهوم الخطاطة أو المورفولوجيا Morphologie هو ما تبنته النظرية الكارثية ، فالمورفولوجيا تعتريها تغيرات وتحويلات لا حصر لها تتحقق ضمن بنية عميقة وبنية سطحية ، وتدرك البنية العميقة الدينامية ، وقيودها المتحكمة فيها بالصعود اليها من الظاهرة (البنية السطحية) التي يجب اعتبار صورتها قبل مادتها ، وتنجز تلك العمليات في آفاق النمو الذاتي Ontogenetique عبر متغيرات صغيرة« Seuil » ينتج عنها التمقول والانقطاع[78] .

جـ - + هذا الاتجاه نفسه سارت فيه البيولوجيا الميكانيكية المادية ، فـ « بالمر » صنف الوسائل المؤدية الى حصول المعرفة الانسانيــة في خمس ، أولها : النمــاذج الأوليــة « Archetype » . وقد ابتدأ بها لتأثره بـ « طوم » ؛ يقول : « ان النماذج الأولية معروفة جداً في الفيزياء وفي نظرية « طوم » « الكارثية » ، والمهم أن هذه النماذج الأولية (المورفولوجيا)

---

(77) أنظر فويقه ص 33، 49 . Gilbert Durand .

(78) أنظر فويقه ص 78 .

تبدأ تتشعب عند مركز التفاعل . فيحدث ، حينئذ ، تشعب أولي Fork archetype ، وتشعب دينامي Fork dynamics ، ولاكتشاف هذه الأنواع من التشعب فانه يجب الانطلاق من الظاهر[79] .

د ـ + ونظرية الحرمان ليس فيها مثل هذا الوضوح (بحسب ما اطلعنا عليه) ولكنها تستعمل معجماً يفيد أنها تتبنى الأصل والفرع : مثل الاستقرار ، والانتقاء والتسوية . . . وكذلك الذكاء الاصطناعي بِنَظريته الأساسية ـ الإطار وما تولد عَنْها من مفاهيم أخرى . . . ونظرية التواصل والعمل ـ حين تقول بالتسلسل والترابط ـ تسلم بمنطلق أساسي .

قضية الثابت ، اذن ، مهما كانت درجته أساسية في هذه النظريات جميعها ، فهي دائماً تنطلق منه معتبرة إياه مفروضاً على الفكر ، مثل الحياة والتغذية والجنس بالنسبة للإنسان . . . ثم تتبع تجلياته بواسطة المورفولوجيا ، والتجليات تنطلق من ثابت يبنى عليه الشكل والمضمون بِحَسَبِ مبدأ المشابهة ، ولكن الثابت والمتغير كليهما تحكمهما عِلَّةٌ مادية أولى هي : الدينامية .

2 ـ مسألة الهدف :

بيد أننا أشرنا قبل الى أن تلك النظريات تختلف في المنهاجية وطرق الإجراء وتوظيف العلم . وقد حان الوقت لتوضيح[80] هذا ، فـ :

أ ـ + نظرية « كريماص » مفهومية علاقية وصفية ، إذ تنطلق من مفاهيم أولية غير محددة تعتبرها ككليات فرضية مثل الانقطاع / الاتصال ، والعلاقة ، والتمايز ، والكلية / الجزئية . . . ثم تشتق منها مفاهيم أخرى تبني عليها النظرية مما يجعل هذه وسيطاً بين المفاهيم الأولية اللامحددة والمعطى التجريبي ، على أنها قبل ذلك وبعده تسلم بـ « الاستقلال الوجودي للشكل السيموطيقي » .

ب ـ + بيد أن هذه النظرية بأوصافها لم تقنع الكارثيين فحاولوا حل بعض مشاكلها الحادة ـ أي المفاهيم الأولية والمورفولوجيا التصنيفية ـ بإعادة بناء رياضي لواقع ظاهراتي متجل في السيميائيات اللسانية ، متخذين التهندس أساساً لتوليد المفاهيم . ومعتبرين الموقع منطلقاً لإقامة العلاقات بين المفاهيم المولدة المنظمة المستقرة المنغلقة البنية الأولية المؤلفة بقيود، يقول بتيطو : « يتعلق الأمر بدينامية عامة من نوع جديد كما يتعلق الأمر بتحليل موقعي Analysis

(79) أنظر المقالة الواردة في هامش «47» ص 526 .

(80) ينظر في هذا الشأن كتاب « بتيطو » 1985 .

Situs أصيل يستطيع أن يتحمل الوظيفة الجمالية المتعالية البنيـوية »[81]ويشـرح قَوْلَـهُ هَذَا ، الإلحاحُ على الطوبولوجيا الدينامية للمواقـع والارتباطـات ، وعلى الاتجـاه الفلسفي العقلاني المستمد من النقدية « الكانطية » القائمة على الجمع بين المثالية النقدية والواقعية التجريبية[82] .

جـ - + ان أهم ما تقدمه هذه النظرية هو تحطيم الحـدود المصطنعـة بين العلوم البحتـة والعلوم الإنسانية ، وهذا الاتجاه نفسه هو ما عمقه « بالمر » في محاولته . ذلك أن العلاقـة بين النظريتين واضحة كل الوضوح ، اذ نجد « بالمر » يشيرُ الى مفاهيم « طوم » مثل المورفولوجيا ، وتشعب النماذج العليا ، والتشعب الدينامي ، وعلى هذا يمكن الزعم أن النظرية الكارثية من بين مصادره الأساسية ، وأنه عمق بعض أطروحاتها ، وهي :

1 - الاتجاه البيولوجي الديناميي ، فقد صرح « بالمر » بأنه تبنى النظرية الداروينية الجديدة التي تعتمد على الطفرة والانتقاء[83] ولكنه ذهب الى أبعد من ذلك بمطابقته بين بنية الأفعال اللغوية وبين بنية الدماغ ، يقول : « بنية مدونة الأفعال وبنية الدماغ وجهـان لعملة واحدة ، وبالضبط تمثيل العمليات المتوقعة مع المواضيع الموجودة في محيط الانسان »[84] .

2 - النزعة الرياضية ، ذلك أن ما وجدناه مشاراً إليه وملحاً عليه في النظرية الكارثية مثل تطبيق الرياضيات في مناقشة «كـريماص» نجده أكثر بروزاً لدى « بالمر » ، فقد سمى الأشياء بأسمائها ؛ وهكذا ، فـإنه بنى نـظريته عـلى ما دَعَـاه بالشكـل الهندسي Geometrizer الـذي يستعمل وسيلة لتوليد عدة مفاهيم وتصنيفها وجعلها موضع ادراك وتجربة[85] ؛ احتل ، اذن ، التوليف الرياضي والهندسي عنده مكاناً مرمـوقاً ، وجعله وسيلة للتنبؤ الضعيف أو القـوي أو اللاّتنبؤ .

إن هناك أشياء كثيرة تشترك فيها النظريـات الثلاث المـذكورة ، ولكن هيمنـة الهاجس التقنـولوجي والصنـاعي لدى « بالمر» جعله يختلف مـع « كريماص » والكـارثيين في بعض المنطلقات ، ففلسفة « بالمر » ليست توليفية قبلية ، ولا تحليلية قبلية ، وليست أفكاراً فطرية[86] ، أي أنها ضد الكانطية الجديدة . والتجريبية المنطقية والمنطلقات الشومسكاوية ، ولكنها داروينية جديدة ذات نزعة تجريبية تتخذ الاستقراء أسـاساً وتعتمـد الآلة وتتجـه نحو العمـل ، هي ،

---

(81) « بتيطو » 1985 ص 18 .

(82) « بيتيطو » 1985، ص 19 .

(83) بالمر 1982 . ص 113 .

(84) بالمر 1982 . ص 30 .

(85) بالمر 1982 . ص 47 .

(86) بالمر 1982 . ص 111 .

اذن ، « نظرية تجريبية ذات جوهر رياضي معتمدة على قياسات ملائمة للواقع[87]» ، نظرية تؤلف بين البيولوجيا التطورية والتنظير الرياضي ، وتهدف الى خدمة السياسة والاقتصاد .

د ـ + إن هذا الاتجاه الرياضي البيولوجي المرتبط بالاقتصاد وبالسياسة هو ما نجده يتحكم في الاتجاه الذي يدعى بالذكاء الاصطناعي : ولا غرابة في هذا ، إذ ليس هذا الاتجاه إلا استغلالاً أقصى لنتائج الدراسات البيولوجية والإعلامية والمعلوماتية .

1 ـ العامل الاقتصادي :

ان الكتابات المتعددة حول علاقات العلوم البحتة بالعلوم الإنسانية ليست بريئة ، وإنما هي « دعاية » لهذه المخترعات المحدثة بتبيان فعاليتها ـ في جميع الميادين ـ لضمان رواجها لدى الباحثين الانسانيين أيضاً ليسايروا ركب العلم البحت وليصنعوا جيلاً له ألفة بالآلة وله قدرة على التحكم فيها وتسييرها : يقرض بها الشعر ويكتب الحكي . . . ويحلل النصوص .

2 ـ العامل السياسي :

ليست التداولية وما ركزت عليه من مراعاة لأوضاع المتكلم والمخاطب والزمان والمكان والأشياء المحيطة . . . ومن صياغة قوانين للمجادلة ولنجاعة الكلام ولنجاحه ولتحليل النصوص . . . ومن وضع مفاهيم لتكييف الخطاب . . .إلا « انعكاساً » للمحاولات الجادة للهيمنة على الإنسان ولتشريطه .

نظرية الذكاء الاصطناعي ، اذن ، نابعة من فلسفة تجريبية رياضية تقدس الآلة وتحلها المكان الأول للسيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان ، ولذلك فهي جادة للكشف عن آليات الانسان البيولوجية واللسانية ليمكن التنبؤ بغيب سلوكه ، أو خَلْقه .

هـ ـ + ان هذه النتيجة المسكوت عنها هي المحرك الذي وراء كل النظريات التي تعرضنا اليها ، وان تبرجت في أزياء مختلفة .

---

(87) بالمر 1982 . ص 111 .

III

تركيب :

قد رصدنا فيما مضى ثلاثة ثوابت مهمة وراء هذه النظريات جميعها : أولها بيولوجية النص بما تحتويه من مفاهيم مثل الانتقاء ، والطفرة ، والتوازن ، والصراع ، وأنواع النفي ، والتنظيم الذاتي . . . ، وثانيها استغلال علم الرياضيات ، وخصوصاً الهندسة لتوليد المفاهيم وخلق النظريات وضبطها ، وثالثها النزعة الفلسفية التوليفية أو التجريبية المحضة . وبناء على كل هذا ومعه .فإننا نستخلص ثوابت هيمنت على تفكير أصحابها جميعاً في النظر إلى اللغة وإلى تحليل النص .

1 ـ المقصدية :

لم تخل كتابة ـ مما رأيناه ومما لم نره ـ من الإشارة الى القصد ، والقصدية والمقصدية ، ومما يفيد هذا المعنى ؛ فالباحثون جميعهم يجعلون المميز الأساسي بين لغة الانسان وغيره هي المقصدية ، ولكن هناك من قصرها على ما ورد فيه جذرها صراحة أو ضمناً (بارت Parret)[88] ، ومنهم من جعلها مسبقة (كريماص Greimas) ، كما أن منهم من جعلها ميكانيكية موجهة (أوستين Austin ، وكرايس Grice[89] ، وسورل Searle)[90]. بيد أنها لا تقتصر على المتكلم ، ولكنها تشمل المخاطب أيضاً ، ولهذا فقد « تتفق » المقصديتان درجات من الاتفاق ، وقد تختلفان درجات من الاختلاف (نظرية التلقي) ، مما أدى إلى طرح إشكاليتها الفلسفية والمنهاجية ، باعتبار أنها غالباً ما لا تكون ظاهرة في النص ، وإنما يفترض أنها تكمن خلفه ، لذلك بذلت محاولات لصورنتها (بتيطو وأبو سطل) للخروج بها من ميدان علم النفس الى مجال اللسانيات .

---

(88) Herman Parret, Pragmatique philosophique et epistémologie de la pragmatique: connaissance et contextualité. PP. 9 - 189. Amsterdam, 1980.

(89) أنظر بحث أبو سطيل ، فقد ناقش فيه المقصدية لدى « كرايس » وحاول صورنتها .

(90) John R. Searle, intentionality - Cambridge 1983.

إنّها ـ مهما اختلفت وجهات النظر في كيفية تناولها ـ مجمع على وجودها. لأنّها تكسب الكلام دينامية وحركة ، بل هي منطلق الدينامية .

2 ـ الفضاء ـ الزمان :

تعني الدينامية التحول والانتقال من حال الى حال في خطية أو دورية أو انكسار . . . مما يستلزم فضاء يتحرك فيه ، وزمناً ينجز فيه ذلك التحرك ؛ فالفضاء ـ الزمان مقولتان قبليتان ، اذن ، بيد أنه لا يمكن مساندة ما ورد عند « كانط » تمام المساندة من أن كل الحقيقة هي انتاج للفكر والزمان ـ الفضاء ، كما أنه لا يمكن أن تدعم كل التدعيم وجهة النظر التجريبية المحضة ، وإنما يمكن أن يوفق بين النظريتين : الفضاء ـ الزمان أداة لتوليد المفاهيم وبناء النظريات ، وهنا يقوم الحدس والخيال بدور فعال ، على أن تلك المفاهيم والنظريات تتشكل في فضاء ـ زمان محسوس مما يؤدي الى المَقْوَلَةِ Categorisation والانقطاع discontinuité، وأنماط من الاختلاف Seuil . .

إن النظريات السابقة جميعها وجدناها تهتم بالفضاء ـ الزمان ـ مع اختلاف ـ بطبيعة الحال ـ في درجة الاستثمار ، فـ « كريماص » قدم مربعه السيميائي على أنَّهُ عملية عيانية Visualisation تساعد القارىء على الفهم ، وَلَكِنَّ قَصْرَهُ على هذه الوظيفة يفقره ، لذلك يجب أن يعتبر شَكْلاً هندسياً يصح أن يتخذ منطلقاً لوضع مورفولوجيا دينامية ، وهذا ما فعله « بتيطو » فاستنتج منه عدة علاقات رياضية مؤكداً في نفس الوقت على دور « التهندس » في وضع المفاهيم وتوليدها ؛ على أن من أوضح الفضاء الهندسي واستثمره هو « بالمر » . فقد وضع آلة منهاجية لبناء نظريته دعاها باسم « الشكل الهندسي »، كما أن النظريات الأخرى اهتمت بالفضاء ـ الزمان بكيفية من الكيفيات .

إذن ، استغل الفضاء ـ الزمان حسابياً وهندسياً لتوليد المفاهيم وصياغة النظريات والتنبؤ . لذلك أعطيت أهمية للموقع والقيم الموقعية والترابط والعلاقة والدينامية . . وعلى أساس هذه الأهمية شاعت عدة مفاهيم ترجع الى هذا المجال مثل الطوبولوجيا Topologie[91] والتغير ، والانقطاع . . والإطار ، والمدونة ، والحوار ، والخطاطة والتسلسل، ووضعت مفاهيم إجرائية محلية مثل : الجملة الموجهة ، وجملة الانطلاق ، وجملة القنطرة ، وجملة الهدف . كما نجد النظرية الموقعية يتبناها كثير من الباحثين اللسانيين واللسانيين النفسانيين .

---

(91) ينبغي أن تفهم الطوبولوجيا في هذا المدخل بمعناها الرياضي ، وهو دراسة العنصر في علاقته بالعناصر الأخرى .

3 ـ اعادة الانتاج / الابداع :

نبتعد عن مجال تخصصنا إذا ما خضنا في قضايا عويصة مثل قبلية المعرفة أو بعديتها ، ولكننا ـ مع ذلك ـ نشير الى ما له صلة بموضوعنا .

يعلم كل مهتم أن الاتجاه العقلاني الذي يتزعمه « كانط » يتبنى القبلية وأن النزعة التجريبية الحديثة وفلاسفة تحليل اللغة تدافع عن البعدية ، كما أن هناك نزعة توفيقية وهي الكانطية الجديدة والظاهراتية . . . وليس السميوطيقيون والكارثيون إلا عقلانيين جدداً أو ظاهراتيين . أما نظرية الشكل الهندسي ، ونظرية الحرمان ، ونظرية الذكاء الاصطناعي فهي تجريبية ، مع اختلاف في الدرجة، وسنسوق استشهادات روايتَهَا القصوى من « بالمر ». والذكاء الاصطناعي .

إن « بالمر » يطرح سؤالاً مركزياً أساسياً هو : « كيف يضمُ الكائن الإنساني المعرفة ويجمعها ويخلقها في المحيط ؟ » يجيب عن ذلك بما يلي : « الدماغ الإنساني يكتسب معارفه بتفاعل مع المحيط »[92] ، وقد برهن على ذلك بنظرية دعاها : « نظرية الاستقراء الصوري »[93] ، ولكن الذي يعنينا منها أنه جعل مصادر المعرفة اثنين : أحدهما أساسي ، وثانيهما فرعي ، فالأساسي يتجلى فيما يتعلمه الانسان بالطريقة التجريبية الحسية فيعيد إنتاجه ويؤول على ضوئه، والفرعي هو ما يستطيع الإنسان أن يبدعه بناء على ما زوّد به من ملكات مركوزة في جبلته ؛ على أن نظرية الذكاء الاصطناعي تجعل ـ فيما يبدو ـ السلوك الانساني ليس إلا إعادة إنتاج لبعض ما يختزنه في ذاكرته الطويلة أو القصيرة استجابة لما يجابهه من مواقف ، ولما يجد فيه نفسه من أوضاع ، وهي بهذا تسلب الكائن الانساني كل ملكة إبداعية ، وتبالغ في المشابهة بين مفهوم التطور الضروري عند « وادينكطون » «Greodes» وبين السلوك اللغوي ؛ على أن مفهوم التتالي الضروري عند « وادينكطون » Waddington ومفاهيم الذكاء الاصطناعي يمكن أن يخفف منها بالاحتمال أو الإمكان . وهذا ما برهنت عليه كثير من التجارب ؛ فإذا كانت الآلة ترفض الجمل اللاحنة من نص معين رفضاً نهائياً[94]، فإن الإنسان يستطيع أن يجد لها مخرجاً نحوياً ، وتأويلاً مقبولاً ، فالإنسان يمكن أن يتنبأ بسلوكه ، ومنه لسلوك اللغوي ، ولكن في نوع من المرونة . ومهما يكن ، فإننا نجد روايتين : قوية تؤكد على عادة الإنتاج والتتالي والتنبؤ ، وضعيفة احتمالية للخلق وللتتالي وللتنبؤ .

---

92) أنظر « بالمر » 1982 . ص 110 .

93) المرجع فويقه ص 123 .

94) أنظر المثل الذي أورده في « تحليل الخطاب » المذكور في هامش «54» ، ص 234 - 235 .

4 ـ الهيمنة / الجدال :

على أنه مهما اختلفت نظريات العقلانية والتجريبية في أصل المعرفة قبليتها أو بعديتها ، فإن ما يسلم به محلّل النصوص هو أن المعرفة الخلفية المشتركة ضرورية ليحصل التفاعل والحوار بين المرسل والمتلقي ؛ على أن مسألة التفاعل هذه ينبغي أن ينظر إليها من أربع زوايا :

أ ـ تفاعل الإنسان مع المحيط :

قد رأينا قبل أن النظرية البيولوجية ـ في فرضيتها القوية ـ تجعل حصول معرفة الإنسان نتيجة لتفاعله مع محيطه (بالمر مثلاً) ، إذ كلما زاد احتكاكه زادت معرفته ، وكلما كان محيطه نشيطاً نمت معرفته بمقدار ذلك النشاط ، ومؤدى هذا أن المحيط الذي لا يتيح كبير إمكانيات تكون معارف أهلية محدودة . وعلى ضوء هذا يصبح هذا التساؤل مشروعاً : ألسنا أمام نظرية حتمية وجبرية بل (وعرقية) إرْتَدَتْ ثوباً علمياً جديداً وهو الدراسات العصبية الفيزيولوجية . إننا لن نعدو طرح التساؤل منتظرين ما يلغيه أو يخصصه أو يؤكده .

ب ـ تفاعل النص مع نفسه :

بيد أننا نتجاوز هذا الطرح الأنطولوجي الأولي إلى الوجود الثاني أي تَمَظْهُر النص وتشكله في فضاء ـ زمن معين ، ثم إلى التساؤل عن الآليات والآلات التي وراء ذلك التمظهر . إنَّهَا « النفيية » Negativité ، سواء أكانت كيفية أم حرمانية أم عدمية أم تضمنية ، أو أكانت حادثة أم كارثة (طوم ـ بتيطو) ، أو أكانت تشعباً نموذجياً أوليا أم تشعباً دينامياً (بالمر) ، ولكنه لا ينبغي أن يفهم من هذه النفيية عدم الارتباط بين أجزاء النص ، وإنما يجب الاقتناع بأن هناك دينامية حقاً ، ولكنها لا تقضي على « ما » انطلقت منه وإنما تنميه وتعقده بحسب مقولة « ليس في اللغة إلا الاختلاف » ويتممها : « الائتلاف » ، إذ العمليتان معاً : الاختلاف والائتلاف يحكمان النص ويتولد عنهما .

ج ـ تفاعل المرسل والمتلقي :

إن هاتين الديناميتين ، (أ،ب) اللتين تتسببان في ايجاد النص ، يسبقهما . ويحايثهما دينامية تفاعلية بين المرسل/ الآخر ، ذلك أنه مهما كان نوع الجنس الأدبي ، فإن التفاعل موجود ، ولكن درجته هي التي تختلف ، فليس هناك خطاب أحادي الجانب موجه إلى ذاته

ينمو في انسجام وطمأنينة ، وإنما لا بد من وجود جانب آخر ، وليكن ذات المرسل نفسها كما نجد في بعض أنواع الخطاب ، وليكن « ذاتاً » بالقوة كما نعثر عليه في الأنواع التي ليس متلقيها حاضراً .

على أن ما اهتم به الباحثون في تحليل الخطاب هو المتلقي العياني المحسوس، سواء أكان في مستوى المرسل أم دونه ، وأدى بهم هـذا الإهتمام إلى أن ينقصـوا كثيراً من هيئة المرسـل المتعالي الذي لا يعصى أمره ، وأن يسلبوه كثيراً من سلطته ويسندوها إلى المخاطب . وهكذا ، فإن جل الدراسات اللسانية النفسانية والتحسيبية والسياقية ركزت على دور المتلقي في صياغة الخطاب وتحديد وَجَاهَتِهِ . وقد صيغت عدة مفاهيم لوصف هذا الـوضع مثـل : التفاعـل ، والتكييف ، والانتظار . .

إذا وقع التركيز على طرف المعادلة الخطابية الأول لدى الاتجاهات الميتافيزيقية والعلمانية والمؤسسات الرتبية ، وإن خفف منها بعدة مفاهيم ، فإن ما نـراه الآن هو الاهتمـام بالـطرف الثـاني من المعادلـة ، ولهذا يمكن طـرح السؤال التالي : أو ليس هـذا نتيجة لـلاتجاه اللبـرالي السائد ؟ ألا يؤدي هذا بنا إذا طبقناه على ثقافتنا العربية الإسلامية إلى الإسقاط اللامسؤول؟ .

د ـ تفاعل المتلقي مع النص :

سنحـاول الإجابـة عن هذا فيـما بعد ، ولكننـا نقول هنـا : أن محلل الخطاب لا يقـرأ نظريات ، إن كان واعياً بما يفعل ، ثم يلصقها إلصاقاً بما يقرأ ، وإنما عليه أن يستضيف النص ويعقد معه صلات حميمة ليتعاونا معاً على إنجاز مهمة الفهم والتأويل (والنقد) ، ومعنى هذا أن المتلقي لا يذهب إلى عالم النص ، وهو عبارة عن صحيفة بيضاء ، وإنما تكون له معلومات مختزنة في ذاكرته تسمح له بالتعميم اعتماداً على مبدأ النظير ، كما تسمح له بـاعادة الـرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزائه ، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية .

يحول ظاهر النص وزمانه ومكانه دون إسقاط الـذات لأوهامهـا ومكبوتـاتها عليـه ظلماً وجوراً ؛ فإذا كان دور استجابة الذات المتلقية للنص أمراً مرغوباً فيه وملحاً عليه في دراسات متعددة ، فإن ذلك الدور يجب أن توضع له قيود لئلا يتغلب الهذيان على الوقائع ويسود التسيب على الكلام المسؤول .

5 ـ المشابهة ـ التفرد :

يفهم مما تقدم أن المشابهة لها دور كبير في التعميم والتصنيف وربط العلائق ، وإدراكاً من الباحثين لهذا الدور ، فإننا نجدهم اهتموا بها وخصوصاً بدراسات مستفيضة ، بعضها رياضي ، وبعضها لساني ، وبعضها سيميائي ، ذلك أنها هي حجر الزاوية ـ وضعياً على الأقل ـ للمقارنة والمقايسة ، ولعقد الصلات أو لرفضها . على أنها قد تكون ظاهرة أحياناً ، وقد تكون خفية أحياناً أخرى (وظيفية أو عقلية) ، ولكنه مهما كان الأمر ، فإنها لا بد منها لمن أراد أن يلحق شيئاً بشيء .

بيد أن طبيعة الأشياء وقوتها تفرض أن التفرد هو أساس المشابهة ، ومعنى هذا أن إدراك خصائص الشيء المفرد الملاصقة والمفارقة هي أصل القياس . وإستنتاجاً من هذا أنه لا ينبغي بَخْس الجنس الأدبي خصائصه الظاهرة ، فلا يعقل أن نسوي بين نص شعري ونص قصصي بدعوى الاشتراك في أصل الوجود وآلاته ، فإذا فعلنا هذا فقد نسوي بين مظاهر الطبيعة جميعها ، وحينئذ فإننا نقع في اختزال مشين ومضحك ، ولكنه في نفس الوقت يجب أن لا يقتصر على الدراسة التجريبية الجزئية التي لا تنتهي إلى استنتاجات عامة ؛ فالمزاوجة ، إذن ، بين اكتشاف الثوابت وبين مراعاة المظاهر ، أمر متعين .

6 ـ الظهور ـ الكينونة :

إن النص المفرد ليس إلا متغيراً صغيراً له علاقة بالنص ـ الأصل ، فهو متشابه ولكنه متفرد . ومن ثمة يجب إعادة الإهتمام إلى كيفية ظهوره ، ونتخذ حكمنا في هذا الشأن ـ حواسنا : خصوصاً حاستي السمع والبصر ، فبها نستمع إلى الأصوات ، وبهًا نرى الشكل والحجم واللون ؛ فهاتان الحاستان هما الوسيلتان الأُوليتان للإدراك المباشر ، ولكنه علينا أن نتجاوزهما ـ بعد ذلك ـ بوضع مفاهيم ومقولات لتنظيم الإحساس الخام ؛ وبهذا تجتمع الحساسية والفهم .

إن من بين ما يتألف مِنْهُ الظهور الحجم والشكل واللون والاتجاه وعلامات الترقيم المختلفة ، ولهذا احتفلت بها الدراسات السيميائية الحديثة ، واستثمرت عدة مفاهيم لتحليلها مثل الأيقون ، والأمارة ، والرمز . . على أن ما سنعتني به هنا هو الدراسات اللسانية الحديثة ، فقد وضعت إطاراً نظرياً متنوعاً ، ومع هذا التنوع فإنه يمكن استخلاص قواسم مشتركة نجملها في مفهومين عامين :

أولهما : الالتحام الذي قد نشتق منه التنضيد والتنسيق ، ومع أنه من الصعوبة بمكان الفصل بين هذين المفهومين ، فإننا سنفعل ذلك مواضعة . وهكذا ، فإننا سنعني بالتنضيد : الجمل التي نجد فيها أدوات العطف ومختلف الروابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة ، وبالتنسيق : العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها .

إن هذا الالتحام وما يقتضيه من تنضيد وتنسيق هو ما يدعى ـ غالباً ـ بانسجام النص لدى الدارسين البنيويين المحافظين والمحللين للخطاب من اللسانيين ، ويمكن التمثيل لهؤلاء بالمناطقة والمدرسة الفرنسية النقدية ، فقد وضع المناطقة والمدرسة الفرنسية مسألة المرجع بين قوسين ، إذْ حولوا اهتمامهم من صدق القضايا وكذبها ، ومن « انعكاس » الواقع في النص إلى التركيز على تنضيد النص واتساق معاني جمله (وقضاياه) أفقياً وعمودياً ، ومهما تلونت مواقفهم فإننا نجدهم يؤكدون على أن النص ليس إلا إيهاماً مرجعياً ، وليس له مؤلف معين وإنما هو ينسل نفسه أو يتناسل بغيره[95] .

ثانيهما : الانسجام ، بيد أن هذا التناول صار غير كاف ، فالنص له مؤلف وله متلق في مقتضيات أحوال ، بل إن مقتضيات الأحوال هي التي تصنع النص إلى حد بعيد ، ومن ثمة صار الاهتمام بتداول النص أمراً ملحاً ، وبالبحث عن أسباب كينونته ومؤشراتها التي تكون غالباً في النص بكيفية صريحة أو يلمح إليها لتستخلص أمراً مطلوباً ؛ وعلى هذا يمكن أن نسمي « نصاً منسجماً بالنسبة إلى تأويل معطى إذا كانت العلاقة الداخلية في النص الذي منحت له (تلك العلاقة) تحتوي الظهور الصريح أو المتوقع لكل حالات الأشياء في حصيلة نهائية للتأويل »[96] ، غير أننا سندفع بـ « حالات الأشياء » إلى أقصى ما تكون واسطة بينه وبين التعبير اللغوي ، ألا وهو الثوابت اللادلالية مثل الموت والحياة والغذاء والجنس والدين ، وكذا ما تفرع عنها من طبيعي / ثقافي ، طبيعي / كسمولوجي . . وعلى هذا ، فإن كل نص منسجم مهما تراءت فوضويته وَعَبَثِيَّتُهُ وعدم التحام أجزائه .

---

(95) Cesare Segre, Greimas, s Dictionary: From Terminology To ideology Semiotica 50 - 3/4 (1984), 269 - 278.

- Marc Eli Blanchard, The Future of Deconstruction Semiotica 50 - 3/4 (1984), 301 - 315.

(96) Janos. S. Petöfi Terry Olivi, Texture, composition, Signification Vers une Textologie sémiotique. Degrés. C.C 28. P.23.

IV

توظيــف :

حاولنا ـ فيما مضى ـ تبيان الموجهات الأساسية العلمية والفلسفية للنماذج التي اخترناها للبرهنة على دينامية النص ، كما ألمحنا إلى المقاصد الآجلة والعاجلة لاستغلال هذه النظريات سياسياً واقتصادياً ؛ إنها وليدة تراكمات ثقافية وحضارية ، وثورة صناعية علمية وتقنية ، وتفاعلات سياسية . ولعل هذا شيء بديهي لا يحتاج إلى عناء ، ولكننا ـ مع ذلك ـ أجهدنا أنفسنا لإيضاحه حتى يبرز السؤال التالي ويوضع : أوليس في هذا إسقاط على ثقافتنا ذات الخصوصية والمتميزة من غَيْرِها ؟ أوليس في هذا تَشْويهٌ وتعذيب لجسد النصوص الجميلة ؟ نجيب عن هذا بما يلي :

1 ـ أن هذه النظريات فيها ثوابت ليست خاصة بلغة من اللغات ، فهي ، إذن ، إنسانية ، فبما أنه ليس هناك طب أو فيزياء أو كيمياء أو بيولوجيا خاصة بأمة من الأمم ، فكذلك يمكن أن يقال في « علم النصوص » ، فقد توصلت البحوث إلى نتائج لا مجال للطعن فيها ، كما أنه لا مجال لتخصيصها ، فليس هناك شك في أن النص ينمو كما ينمو الكائن الحي ، وفي أنه يصدر عن كائن حي يريد أن يشبع حاجاته الأولية والثانوية ، وفي أنه موجه إلى مخاطب حقيقي أو مظنون ، وفي أن ذلك النمو يحصل بالتفاعل اللغوي .

2 ـ إن ما قدمناه من إبراز آليات توليد النص وثوابته النفسية والذاكرية والتفاعلية والفَضائية ـ الزمانية يعكس الضروريات التي تتسبب في وجود النص ، إذ لا يمكن أن يوجد بدونها وخارجاً عنها ، ولكنه حينما يوجد يتفرد ، فتكون له خصائص نوعية تميزه عن غيره ، ونعني بالتفرد معنى عاماً ومعنى خاصاً ؛ فالمعنى العام هو أن لكل ثقافة نصوصاً تعكس خصوصيتها وهويتها ، إذ لا يعقل أن يطابق بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الغربية المسيحية ، وأما المعنى العام فهو أن لكل غرضي كلامي تفرده يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار .

بهذا المنظور يمكن أن نوفق بين المكتسبات العلمية العالمية ليصير لنا علم للنصوص ، وبين الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الثقافة القومية وتفرد النص وتميزه داخل الثقافة وداخل الجِنْس الأدبي نفسه .

أخذاً منّا بوجهة النظر هاته وظفنا كثيراً من هذه المفاهيم في تحليل نصوص قديمة وحديثة شعرية ونثرية ، ورغبة منا في مساعدة القارىء غير المختص والطالب على فهم ما قمنا به ، وعلى محاكمته ، وعلى تبين نتائجه ندله على مواطن الاستثمار .

إن القارىء يرى هيمنة المفاهيم التالية : « النمو » ، و« الحوار » ، و« الصراع » . . . فقد استبطنت كل تحليلاتنا وتمظهرت في وبواسطة المفاهيم الفرعية التالية .

1 ـ المقصدية :

إن الدراسات التي اعتنت بالمقصدية في بداية الأمر ، اهتمت بتفوق المتكلم الذي يصدر أمره فينفذ ، إذا توفرت شروط ، بدون تردد مثل الأوامر الدينية والعسكرية . . ولكن دراسات أخرى خففت من حدة هذا الاتجاه الميكانيكي وأعادت الاعتبار للمتلقي فتصورت أن لا فرق بين محوري عملية التخاطب إلا من حيث الأخذ بزمام المبادرة ، وذهبت أبحاث أخرى إلى أن تجعل المتكلم لعبة في يد متلقيه ، ومن ثمة فهو يكيف خطابه بحسب رغباته ويصير ناطقاً باسمه .

لهذا ، فإننا حين وظفنا مفهوم المقصدية توخينا هذه الدينامية ، إذ لدينا نصوص دينية آمرة أو ناهية ، ولنا أخرى محاجة مقنعة ، وثالثة متقمصة لشخصية المتلقي ومتضرعة له ؛ ومعنى هذا أن المقصدية ـ بهذا التبني الدينامي المرن ـ قد تتضاءل أو تختفي في بعض المواقف الخطابية كحالات الحياد ـ وتوضيح هذا :

المتكلم	الدرجة الممكنة	المتلقي	الدرجة الممكنة
	+ أعلى		− أدنى
	− أدنى		+ أعلى
	+		−
	−		+

2 ـ التفاعـل :

حل ، إذن ، التفاعل والجدال محل السلبية ، وهكذا ، فقد نظرنا إلى التفاعل اللغوي المؤدي إلى نمو النص بنفي كيفي أو حرماني أو بتضمن ، وعلى ضوئه تناولنا مسألة النسخ ، واستثمرنا إسقاطه على العوامل الستة ، كما ركزنا على مظاهر الجدال التي تتمظهر لغوياً بالسؤال الظاهر أو المقدر ، وأعرنا الاهتمام للسياق الذي وقع فيه التفاعل . ومؤدى كل هذا أن إشكالية الآخر احتلت مكاناً بارزاً في تحليلاتنا مهما كانت درجة تلك المكانة .

3 ـ المعرفة الخلفية المشتركة :

على أن الخطاب ـ بطبيعة الحال ـ لا يؤدي وظائفه ويحقق فعاليته ونجاعته إلا إذا كانت هناك معرفة خلفية مشتركة ، ولذلك توسلنا ـ لإظهار معنى هذا المفهوم ـ بعدة مقترحات نظرية آتية من مجال الذكاء الاصطناعي ، وهي الأطر والمدونات والخطاطات . . . وقد يراها القارىء ويصادفها في كل الدراسات التي يحتويها الكتاب ، وخصوصاً عند التحدث عن آيات الصيام ، وعند تحليل قصة « الغابر الظاهر » . . غير أننا دفعنا بهذه النظريات إلى أقصاها ، ولا سيما ما يدعى منها بتداخل الأطر وصراع الخطاطات ، كما يتجلى ذلك في تناولنا الإحالة والدعابة . . وإذ اقتصرت الأبحاث الأجنبية على توظيف المفهومين في دراسة النكت والألغاز والفكاهة . . . فإننا نرى أنه يمكن تعميمها لدراسة كل خطاب مزدوج من مثل المدائح النبوية ، والغزل والخمر الصوفيين ، والغزل بالمذكر ، والنص الموظف للأسطورة .

إذا ما هيمنت هذه النظريات ومفاهيمها في صيغها القصوى على تحليلاتنا ، فإننا استعملنا مفاهيم إجرائية أخرى للنفوذ بها إلى إثبات إطار أو رفضه مثل : من القاعدة إلى القمة ، ومن القمة إلى القاعدة .

4 ـ الفضاء ـ الزمان :

المعرفة الخلفية المشتركة ضرورية ، إذن ، لإنتاج النص كما أنها ضرورية لاستقباله ، وقد قدمنا قبل أن الوسيلة الأساسية للحصول على المعرفة هي الحواس ، فالمتلقي يتخذ حواسه هادية له ، وخصوصاً سمعه وبصره ، وبناء على هذا تعرضنا ـ في بعض الدراسات إلى الرمزية الصوتية ، وإلى الفضاء الأبيض والأسود ، ولكن الذي ألححنا عليه ، وصاحبنا كثيراً هو استغلال الفضاء ـ الزمان . ويتجلى ذلك في مفاهيم الجملة الموجهة ، والجملة المنطلق . والجملة القنطرة ، والجملة الهدف ، والجملة الهامش .

* * *

تلك إشارات عابرة إلى بعض المفاهيم الموظفة ، وقد أبرزنا ما هو أساسي ، وأغفلنا كثيراً منها ، لأن القارىء سيدرك ذلك بنفسه ، ولكن هاجسين اثنين كانا ـ فيما يخيل إلينا ـ يَشْغَلانِنَا في كل تحليل هما : دينامية النص وانسجامه ، وسنعمقهما في دراسة قادمة خاصة بالاستعارة .

الفصل الأول

نمو النص الشعري

- 1 -

وضع المشكل :

لن يبالغ المرء إذا قال : إن البحوث اللسانية المعاصرة لم تضع - إلى الآن - قواعد نهائية أو ما يشبهها لضبط استعمالات اللغة العادية ، فهي لا تزال عبارة عن محاولات للتقعيد إلى الجمل الطبيعية أو المصنوعة ، وهذه الجمل نفسها يجد القارىء أنواعاً من الاختلافات في جزئيات النظرية التي تقعد إليها . كما أن تلك الدراسات اللسانية يزداد الأمر أمامها تعقيداً ، ويظهر عجزها إذا ما تعدت الجملة إلى النص . على أن بعض المحاولات جَدَّتْ - في السنوات الأخيرة - لدراسة النص أسهم فيها التداوليون بمختلف مشاربهم (اتجاه موريس ، وفلاسفة اللغة ، والتداوليون التوليديون) وعلماء اللغة الاجتماعيون والنفسانيون . ولكن أغلب هذه الاسهامات اهتمت بلغة المحادثة العادية ، أو بحوار التلاميذ في القسم أو شهادة الشهود في المحاكم ، وأبعدت من ميدان اهتمامها (مؤقتاً) الخطاب الأدبي بعامة (موقف بعض فلاسفة اللغة) ؛ إلا أن بعضها نسخ القواعد اللسانية للغة العادية وألصقها بالخطاب الشعري (بعض التيارات التداولية التوليدية) مما أدى إلى صياغة « منهاجية » لا تميز الخطاب الشعري عن غيره ، ولا تعين له خصوصيته . ومعنى هذا أن ليس هناك نظرية شاملة تصف كيفية اشتغال

النص الشعري وتفسرهـا ، وإنما هناك محاولات لبعض الشعريين والسيميائيين تلقي الضوء على بعض الجوانب دون أخرى ، ولذلك ، فإننا سنتجـرأ ـ في هذه المسـاهمة ـ عـلى تقديم بعض العناصر النظرية لمقاربة الخطاب الشعري . وستتضمن مبادىء كلية تحكم أي نص مهما كـان نوعه ، ومفاهيم نوعية خاصة بالخطاب الشعري ، ومفاهيم محلية لدراسة قضايا جزئية منه ، وتحليلاً لقصيدة « القدس » على ضوء تلك المبادىء والمفاهيم ، اصطحاباً للقول بالفعل .

- 2 -

المبادىء الكـلية :

أ ـ المقصدية (Intentionnalité - Intentionality) :

ونقصد بها ما تدل عليه لدى التداوليين وخصوصاً فلاسفة اللغة منهم . وقد وضع هذا المفهـوم ـ في بداية الأمر ـ كأولية غير قابلة للتحديد . ومعناها : أن كل جملة لغوية (أو نص) وراءها مقصدية أولى تتجلى في بعض الحالات مثل الاعتقـاد والخوف والتمني والـرغبة والحب والكراهية ، وثانوية هي ما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم والحالات التي وراءها ، وتوضيح ذلك : أن الفعل الكلامي « اقرأ » يلبي مقصداً أولياً يظهر في رغبة المرسـل سماع القـراءة ، وثانوياً في اعتراف المتلقي بذلك ، وثلاثياً في إرادة المرسل أن ينتج عن أمره تلبية . على أن هذا الاتجاه ميكانيكي يختـزل العملية اللغـوية إلى وظيفـة التواصـل الناجحـة ، وإذا صحت هذه الفرضية في بعض أنواع الخطاب الناتجة عن عقدة بين المرسل والمتلقي أو الصادرة من سلطة عليا دنيوية أو دينية ـ أي أنها تفترض مرسلاً متسلطاً ومتلقياً خاضعاً مدركاً للرسالة الواضحة التي لا إبهام فيها ولا غموض ـ فإنها لا تستقيم في ضـروب خطابيـة أخرى . ومـع أن بعض فلاسفة اللغة المتأخرين حاول أن يعرف المفهوم ويدققه ويعقده لإخراجه من ميكانيكيته ، فإنه أرجـع الدراسـات اللغويـة إلى منطلق فيـزيولـوجي ونفساني مقللاً من أهميـة الـطرف الآخـر (المخاطب) الذي يكون ـ أحيانـاً كثيرة ـ هـو الموجـه والمشكل للفعـل الكلامي بـالرغم من معتقدات المرسل ورغباته ؛ وعلى هذا ، فإنه ليس صحيحاً كل الصحة أن المقصدية ـ وحدها ـ هي التي تتحكم في انتـاج أنواع الأفعـال الكلاميـة ، وبالتـالي أنواع الخـطاب ، ولكنـه ليس صحيحاً ـ أيضاً ـ نكران دور الذات المتكلمـة في إيجاد السلوك اللغـوي . ولذلـك ، فإنـه لا مناص من تتميمها بمفهوم آخر وهو :

ب ـ التفاعل (Interaction) :

نقصد به علاقة المرسل بمتلقيه ، سواء أكان ذلك المتلقي فرداً أو جماعة ، موجوداً بالفعل

أو بالقوة . ومن شأن هذه العلاقة أن تسلب السلطة المطلقة من المرسل على إصدار خطابه بعجرفة أو لا مبالاة نحو الآخرين ، وأن تدخله في دائرة القواعد الضمنية أو العلانية وأن تجعله يكيف خطابه على قدر عقل متلقيه ليحصل التفاعل وكسب استمالة المتلقي ونيل رضاه . ونظرية التكييف هذه تتيح لنا معرفة السبب في تلون خطاب مؤلف واحد ، فقد يكون من عادته الإجادة ، واستعمال أساليب راقية ، وصور غريبة ، ولكننا قد نفاجأ بغير ما هو معتاد منه ، وليس من سبب رئيسي وراء ذلك إلا محاولة التكييف .

على أن هناك اعتراضاً قد يطرح وهو : إن هذا الذي قتلتموه يصح في الخطاب التقليدي الروتيني الشعائري المخاطب للناس بما ألفوه ، ولكنه لا يستقيم في الخطاب الأدبي العربي الحديث أو المعاصر القائم على مفاجأة المتلقي وعلى تعتيم الطريق أمامه . . . ومع وجاهة هذا الاعتراض فإننا نفترض أن كل خطاب جاد يهدف إلى عملية ربح المتلقي وكسبه إلى جانبه ، والربح ـ هنا ـ كيفي وليس كمياً .

ج ـ التملك (Acquisition) :

إن المقصدية والتفاعل المذكورين أساسهما ما زود به الإنسان من قدرات فطرية على التعبير بلغته والتصرف فيها ، ومن مهارات مكتسبة ناتجة عن تراكم التجارب التي عاشها ؛ فالقدراتُ الفيزيولوجية والنفسانية وما حصله من التعلم والمحاكاة والتقليد خَزَّانٌ يسترفد منه كلما أراد أن يسلك لغوياً ؛ ذلك أن الاستعدادات الفطرية قابلة لأن تسعفه كلما أثارها ، والمعارف المكتسبة المختزنة في الذاكرة تزوده بالبنيات وبالأطر التي يتحرك ضمنها .

د ـ التوليد ـ التحويل (Transformation) :

إن هذه القدرات والمهارات تحرك نواة منها لتشكل في صور متعددة عند الحاجة إليها بتوليدها ـ تحويلها ، ولا نقصد بالتوليد ـ التحويل ما يقصده « شومسكي » وأتباعه وحسب ، وإنما نعني به أنه يحدث معنى جديداً معضداً أو مناقضاً ، وإن شئنا قلنا : أن النص يجمع بينهما ؛ على أنه إذا كان التحويل التعضيدي أو التقابلي الحاصل على التضاد أو شِبْهُ التَضَادّ أو الاقتضاء لا يثير لنا أي مشكل ، نظراً لتوفر أدبيات في الموضوع ، فإن ما لم ينتبه إليه هو التقابل، على مستوى المعجم والمقولات النحوية ، فالنص يتولد بتحويل المعجم أو المقولات النحوية والمعنى جميعاً ، فقد يكون في المعجم تَرَاكُمُ أحياناً وَتَقَابُلٌ أحياناً أخرى ، والمقولات النحوية تتصل فيما بينها ، فالخبر يقابله الانشاء والجملة الفعلية تقابلها الجملة الأسمية ، وضمير المتكلم

يقابله المخاطب أو الغائب . . . فقد يظهر للقارىء أن النص سردي تماماً ، ولكن الأمر ليس إلا خدعة ، فقد يحتوي على تقرير ووصف وإنشاء ، وقد يهيمن ضمير المتكلم على ما سواه ولكن هيمنته ليست أبدية .

إن ما سبق يعني : أن النص الأدبي هو توليد ـ تحويل لقالب لغوي في زمان وفضاء مهما كان مُسْتَوَاهُما بكيفيتين أساسيتين هما جوهر أي نص وسِرُّ حياته وتعيينه ، سواء أكان ذلك التوليد والتحويل لقوالب خارجية أم داخلية .

هـ ـ الزمان والفضاء :

إن الزمان ثابت من الثوابت بقطع النظر عن أي تعريف للنص نَتبناه ، وبِغَضِّ النَّظَرِ عن كونه شفوياً أو مكتوباً . وإذا ما تحيز فإن الزمان والفضاء يصيران متلازمين . وإذا كان الفضاء يتقدم لنا كمعطى جامداً يمكن أن يقاس بعدد الصفحات والأسطر ، فإن الزمان قابل لأن يتشكل داخل ذلك الفضاء بأنواع مختلفة . ومع أن زمان القراءة يمكن أن يقاس بعدد الثواني والدقائق أو الساعات . . . فإنَّ ما ينتهي إليه من توقيت لن يكون موحداً فقد يكون إيقاع القراءة بطيئاً أو سريعاً . . على أننا نسمع ـ أحياناً ـ أصواتاً مبعثرة أو كلمات مشتتة أو نراها في بياض كذلك فنخال أن لا زمان لها ، ولا فضاء ، وليس الأمر كذلك ، وإنما علينا أن نفترض وجودهما بالقوة إن لم يوجدا بالفعل ، بل يجب إيجادهما باتباع قراءة خطية سببية وطبقية تضمن انسجام الخطاب .

و ـ الانسجام :

إذا كان الزمان والفضاء من بين ثوابت النص فإنهما بالضرورة ـ ضامنان لانسجامه المعنوي على الخصوص إذ ليس هناك نص بدون رسالة موجهة إلى متلق حقيقي أو مفترض ، تحتوي على معلومات متراكمة تيسر فهمها وتأويلها . على أن بعض أنواع النصوص ـ ومنها الشعر العربي المحدث والمعاصر ـ تفاجىء المتلقي الذي لا مراس له في المجال ؛ فقد يكون النص عبارة عن أصوات مشتتة أو كلمة مشطورة ، أو عبارات مبعثرة داخل فضاء . . . ومع كل هذا ، فإن المُحَلِّل غير معفى من استخلاص معنى منسجم « للنص » مهما كلفه ذلك من عناء ، ومن منحه دلالة ملائمة مَهْمَا كَلَّفَهُ ذلك من مشقّة .

إن الدراسات اللسانية الوضعية اهتمت بانسجام النص ، واقترحت بعض الآليات التي يمكن أن يفهم بها أي خطاب مهما كان نوعه ، وأهمها :

* التساؤل عمن فعل ؟ وماذا فعل ؟ وأين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

* الارتباط المعجمي بنوعيه الكبيرين : التراكمي والتقابلي .
* الارتباط التركيبي الحاصل بالضمائر ، وبأداة التعريف ، وباسم العلم ، وبأسماء الإشارة ، وببعض أدوات العطف ، وبالتوازي ، وبالتعادل ، وقلب البِنْيَةِ . . .
* نظرية الإطار، والحوار ، والمدونات . . .

غير أن هذه الآليات جميعاً قد لا تسعف المحلل في الربط بين معاني النصوص المشتتة والمبعثرة الخارقة لكل الأعراف اللغوية المتعارفة ، وحينئذ فإنه لا يبقى مكتوف الأيدي ، وإنما يلجأ إلى تقنية الاستنباط بنوعيه المهمين ليملأ الثغرات الموجودة في النص . إلا أنه على المحلل أن لا يتخذ ملء الفجوات ذريعة ليسير في هذيان محموم ، ولكن عليه أن يتقيد بقواعد للقراءة والتأويل ، أهمها :

* مراعاة الانسجام القولي المتمثل في مبدأ المشابهة المستَقَى من تجارب المحلل السابقة اللغوية .
* مراعاة الانسجام العرفي المستمد من تجاربه الحياتية وتقاليده .
* مراعاة مبدأ التأويل المحلي .
* مراعاة المجاورة الزمانية والمكانية .

إن هذه الآليات جميعها تتحكم فيها علة أولى هي معرفتنا وتجاربنا للعالم بأنواعها المختلفة ، ويختزلان إلى نَوْعَين : المادة اللالغوية ، واللغوية اللتين بينهما تداخل لا تناقض . ولذا ، فإن المحلل يراعي النوعَيْنِ معاً ، يهجم على النص وهو مزود بما يمتلكه فيستعمل منه ما هو في حاجة إليه ، وينصت إليه ليَقدم إليه نفسه وليَبُوحَ له ببعض أسراره .

إذا كانت هذه المفاهيم الكلية ، وإن كانت جميعها مجردة متجلية في أي نص مهما كان نوعه ، فإن بعضاً منها ـ وهو : المقصدية والتفاعل ، والتملك ـ أكثر تجريداً من التوليد ـ التحويل ، والزمان ـ الفضاء ، والانسجام ، ولذلك ارتأينا أن ندعو المُجرَّدَ منها بالمحور العمودي وأن نُسمّي ما دونه تَجْرِيداً بالمحور الأفقي :

المحور الأفقي

التوليد – التحويل + الانسجام + الزمان – الفضاء

(المقصدية ـ التفاعل ـ التملك)

المحور العمودي

- 3 -

المفاهيم النوعيـــة :

على أن هذه المفاهيم جميعها هي عمودية بالنسبة إلى عناصر الخطاب الشعري التي هي : الأصوات ، والمعجم ، والتركيب ، والمعنى والتـداول . ولكن هـذه العناصر ليست خـاصة بالخطاب الشعري إذ كل خطاب يحتوي عليهـا ، ولهذا ، فـإننا ملزمـون بإنجـاز عملية فـرز وبتحديد خصائص بنيوية مميزة لكل خطاب . وهذه العملية مستحيلة لعـدم وجود أي جنس أدبي نقي ، ولتحطيم المبدعين المعاصرين قيود الأجناس الأدبية ومواصفاتها ، ومع ذلك ، فإنه لا بد من التسليم بوجود خصائص فوق تاريخية لكل خطاب تكون مرئية أحياناً ، ومحتاجة إلى استنباط أحياناً أخرى .

إذا اتفقنا على مجمل ما تقدم يمكن لنا أن نحاول ـ في زمن أول ـ التفرقـة بين الخـطاب العلمي والخطاب الأدبي ـ وفي زمن ثان ـ الفصل بين الخطاب الشعري وأنواع الخطاب الأدبية الأخرى .

أ ـ مميزات الخطاب العلمي :

يمكن أن تلتمس مميزات الخطاب العلمي أو الشبيه به في المستويات الآتية :

- المعجم العلمي خال من الإيحاء والتراكم محدد الدلالة غير قابل للاشتراك والترادف .
- تراكيبه غير مكررة ولا تعيد نفسها .
- نمو المعنى واسترساله في تشاكل وحيد .
- منطقية التراكيب .

ب ـ مميزات الخطاب الشعري :

وبناء على هذا ، فإن خصـائص الخطاب الأدبي هي ـ منـطقياً بعكس مـا سبق ، وهذا

صحيح إلى حد ما ، ولكنه ليس صحيحاً كل الصحة إلا إذا نظرنا إلى الأمرِ في تبسيطٍ وميكانيكية . ومهما يكن الأمر ، فإننا لن نهتم إلا بخصائص الخطاب الشعري التي ليست ـ بدورها ـ خالصة ، ولكنها متقاطعة ومتداخلة مع مميزات الأنواع الأدبية اللاشعرية . ومحاولة منا لحل هذا الإشكال فإنا نقترح مفاهيم اجرائية أخرى هي : الشعر الراقي ، والشعر العادي ، والكثرة والقلة ؛ فالشعر الراقي تكثر فيه تلك الخصائص وتبرز ، والعادي تقل فيه وتتضاءل .

1 ـ مميزات الشعر الراقي :

أ ـ ايقونية الصوت ـ أو الحرف :

إن استثمار إمكانيات الأدلة الصوتية ليس حكراً على الشعراء وحدهم وإنما فَعَلَهُ ويفعَلَهُ بعض الناثرين أيضاً ، وفي التراث العالمي برهان على هذا . والأدلة الصوتية يمكن أن تستغل على عدة مستويات ، أهمها :

ـ **الرمزية الصوتية** : فرغم الخلاف المزمن حول هذه الإشكالية ، فإن الشعر الراقي امتاح من الأصوات في مختلف الأزمنة والأمكنة . ولكن جماعات من الشعراء المحدثين والمعاصرين هم الذين بلغوا الأوج في هذا المجال . فقد نجد بعض « القصائد » عبارة عن رسم لبعض الحروف أو عن أصوات مشتتة مبعثرة لحلال فضاءِ صفحة ، أو عن كلمة واحدة مكتوبة بشكل من الأشكال ؛ ونعثر على شعراء اهتموا إلى أقصى الحدود بما يسمى « الاناجرام » «Anagramme» و « شايمينغ » «Chiming» أي تقليب أصوات الكلمة ـ كلياً أو جزئياً ـ لتمنح دلالة مشتركة ، وقد رأى بعض المحللين أن هذا الصنيع ليس إلا لعب أطفال ، وقد فاتهم أن اللعب هو أكثر دلالة من الجد أحياناً كثيرة .

ـ **الإيقاع** : يصح القول : إن الايقاع من الخصائص الشعرية الأساسية الثابتة ، فالشعر الفصيح والموشحات والأزجال والملحون . . . وغيرها قامت عليه . ولكن الشعراء المحدثين والمعاصرين هم الذين أكثروا من تنويعاته استجابة لتلون حالاتهم النفسية ، ولاختلاف مقصدياتهم ؛ وهكذا ، فإننا نجد القصيدة الواحدة قد تحتوي على إيقاعات متعددة . . وقد أغرى هذا التنوع الدارسين المحدثين فحاولوا أن يضعوا بعض الظوابط العامة التي تحكمه . ونحن لا نهدف إلى مناقشة جوهر تلك النظريات ، وإنما قصدنا ـ هنا ـ أن نؤكد أن كثريته ـ بناء على فرضيتنا ـ تقدم للمحلل مادة خصبة للفهم والتأويل ، وأن نقول : إننا لا نستطيع أن نحصيه على مستوى الكم (الزمان الفضاء) ، ولكننا نقدر على أن نختزله إلى : بطيء

/ بين بين /سريع ؛ وطويل / بين بين / قصير، وأن كلا من المعطى الكمي مهما كان نوعه « وإيقاع الإيقاع » يصحان أن يتخذ أيقوناً على مثل أو مشابهة ضمن نظام دلالي معطى ومبنى .

ب ـ قصدية الكلمة :

إن الشعراء مهما كانت أجناسهم وأمصارهم وأزمنتهم حرصوا على قصدية اللغة الشعرية ، بمعنى الارتباط الطبيعي بين الدال والمدلول . فقد اعتنقوا ، بدرجات متفاوتة النظرية « الكراتيلية » على حساب « الهرموجينية » . إلا أنه إذا كان الشعراء القدماء يستعملون اللغة بحسب ما تملي عليه تجاربهم ، فإن المحدثين والمعاصرين الذين تأثروا بالتيارات السيميائية المعاصرة صاروا « يُقَصِّدُونَ » اللغة بسبق الإصرار . وهكذا نجد ، في قصائدهم ، ما يحاكي أصوات الطبيعة ، وحشداً هائلاً من أسماء الأعلام المختلفة ذات الدلالات الايحائية ، وألفاظاً عتيقة ضاربة في أعماق التاريخ ، أو حديثة آتية من آفاق مختلفة . وهذا التداخل المعجمي يخلق عدة معان فرعية عرضية تقرأ بتشاكلات مختلفة بحسب الوسط الذي دعيت منه الكلمة بما يجعلها مؤشراً كنائياً عليه . وقد تصبح أيقوناً إذا توفرت فيها علاقة المثلية أو المشابهة .

ج ـ أيقون وحدة العالم :

والاستعارة هي ركنه الأساسي بإلحاقها شيئاً بشيء لفهم الملحق بناء على تجارب المتلقي السابقة . وطبيعة اللغة ذات الإمكانات المحدودة تحتم وجود مثل هذا التوسع في التعبير في أي زمان وفي أي مكان وفي أي خطاب . ولهذا ، فإن كثيراً من الدراسات القديمة والمعاصرة بمختلف اتجاهاتها النظرية جعلت الاستعارة مكوناً أساسياً في استعمال الإنسان للغة بعامة وفي استعمال اللغة الشعرية بكيفية خاصة ؛ على أنها إذا كانت تقر بوجودها فإنها تختلف في رسم الحدود التي على الشاعر أن لا يتجاوزها. وهكذا ، فإن النظرية التشبيهية الوضعية في مختلف العصور جاهدت لتحافظ على وجود وجه شبه جامع بين الحدين بعد تحليل كل منهما لرصد المقومات والأعراض المشتركة والمختلَفَة الملاصقة أو الآيلة إلى أن تكون كذلك . وعلى أساس وجهة النظر المفهومية هذه (في مقابل الماصدقية) قامت النظرية التوترية للاستعارة التي تعني : أنه كلما كثر التطابق بين مقومات وأعراض الحدين كانت الاستعارة أقرب إلى الحقيقة لقرب مسافة التوتر ، وكلما كثر الاختلاف بينها كانت هناك مسافة توتر بعيدة . وعلى أساس ما تقدم نفهمُ اشتراط البلاغيين العرب وجود وجه شبه صحيح معقول بين الحدين ، ورفضهم بعض الاستعارات التي كانوا يقولون في حقها : « ان كان هذا صحيحاً فكلام العرب باطل » ، ونجد الشرط نفسه لدى البلاغيين الغربيين المعاصرين ، وإن كان مصوغاً في لغة معاصرة مستقاة من حساب المجموعات ؛ فإذا كان هناك تقاطع بين مقومات الحدين وأعراضهما فإن

الاستعارة صحيحة ، وإذا لم يكن فان الإلحاق ليس فيه انسجام لتباعد المجموعتين (الحدين) .

إن هذه النظرية تقوم بتكبيل خيال الشاعر وقص جناحه والتقليل من الامكانات الإلحاقية للغة بصفة عامة . فما الحل إذا لم نجد مقوماً ملاصقاً أو عرضاً ظاهراً يجمع بين الحدين في تركيب ما ؟ أيرفض بحسب مقاييس التشبيهيين الوضعيين أو يقبل لأن التعابير الشعرية تخرق الأعراف اللغوية ؟ هذا هو ما يتبناه أصحاب « النظرية الذاتية » للاستعارة الذين يرون أنها تخلق واقعاً جديداً أكثر من تقنينها لما هو موجود سلفاً . وهذا الخلق يؤدي إلى إيجاد مشابهات جديدة ناتجةً عن بعض الخصائص التفاعلية المنتقاة . . وعلى هذا ، فإن إمكانية الإلحاق (إدماج شيء في شيء) متوافرة أمام الشاعر . ولذلك نجد حواسه تتراسل : فقد يشم بعينيه ، ويسمع بفمه ، ويبصر بأذنيه . . . ونَرَاهُ ينقل المجرد إلى المحسوس واللا حي إلى الحي .

على أن الإمكانات المذكورة ليست سائبة لا تحصرها ضوابط وقيود بحيث يصرفها ويتصرف فيها كل شاعر حسب مشيئته المطلقة وكأنه منقطع عن إطاره السوسيو ـ ثقافي . إن الأمر ليس هكذا ، فالاستعارة تصبح مجرد هلوسات إذا لم تُحَقِّقْ مفهوم الانسجام ضمن العالم الذي ينتمي إليه الشاعر ؛ ومقياس الانسجام فطري ومكتسب ، وعلى هذا فإنه يمكن إدراكه بثوابت ثقافية ، ويتفق عليه أو يختلف فيه بحسب مؤهلات كل شخص ، وبحسب الثقافات والسن والحالة النفسية . . . ومهما يكن ، فإن الشاعر الموهوب ذا الفطرة السليمة يحقق الانسجام بين أشياء مختلفة تظهر لغير الشاعر وكأن لا علاقة بينها ، والشاعر ـ بفعله هذا ـ يتيح للكائن الانساني أن يوجه نفسه بنجاح في هذا العالم المحتوي على كثير من مظاهر الانسجام .

د ـ أيقونية الفضاء :

يقصد به استثمار فضاء صفحة ما بسوادها وبياضها وأيقونية السواد تعني أشياء عديدة :

ـ **شكل الخط** : فهو دال ، سواء أتعلق الأمر بالحرف أم بالكلمة ، فقد أمنح حرفاً أو كلمة مكتوبة بخط مغربي ، بحسب السياق والمساق ، معنى ودلالة ، وقد يوحيان إليَّ بمعنى ودلالة مخالفين إذا كتبا بخط مشرقي ؛ فرسم الكلمات والحروف يتشابه مع الرسم الاصطلاحي دلالة ومعنى بناء على هذا الأساس .

ـ **طول البحر** : (السطر ، التفعيلة) وقصره ، ولا نقصد هنا وظيفته الإيقاعية ، وإنما نعني وظيفة أيقونية مثلية أو مشابهة ؛ وعلى هذا ، فأيقون الكامل ليس أيقون الخفيف ، ومجزوء الكامل . . . لأن بينهما فرقاً فضائياً ـ زمانياً أي معنى ودلالة . ولنقس هذا في كل بحر أو سطر أو تفعيلة .

ـ التركيب : أن التلفظ ذا الصوت أو الكلمة أو الكلمتين أو الثلاث أو الأربع وإن كان يعني مضموناً واحداً فإن في كل منها زيادة ناتجة عن امتداد فضائه ـ زمانه . كما أن ترتيب المقولات النحوية ذو دلالة أيقونية ، فتعبير : « أنا وصديقي » ، « وأنت وصديقك » ليس مماثلاً لـ « صديقي وأنا » «وصديقك وأنت » بناء على مبدأ « الأقرب أولى » ، وهناك فرق بين « أحبك » ، و « أحب إياك » ، فكاف الخطاب أقرب في التعبير الأول . . . وهذا يدخل ضمن مبدأ « في التقريب مزيد اهتمام » ، و « أحبك أنت » فيه زيادة على « أحبك » ، بناء على مبدأ « الزيادة في المبنى زيادة في المعنى » ، وبنية التعدي النحوية ينبغي أن تفهم بمعناها اللغوي ، بمعنى أن هناك معتدياً ومعتدى عليه ؛ وتجاور بعض التراكيب المسكوكة أيقون على دلالتها مثال : « سار يداً في يد » « والتقيا وجه لوجه » . . . بناءً على هذا ، فإنه يجب النظر إلى المقولات النحوية لا بصفتها صيغاً إعرابية مجردة ، ولكن باعتبارها أيقونات دالة .

ـ طول المعطى أو قصره : فدلالة المقطوعة ذات الفضاء ـ الزمان القصير ليست دلالة القصيدة .

على أن استغلال الفضاء الأسود لا يتم إلا باستثمار الفضاء المنعدم والفضاء الأبيض ، فالمنعدم يكون نتيجة لعوامل دينية أو سياسية أو خلقية . . . فقد لا يستطيع المبدع أن يصرح ببعض الألفاظ أو ببعض التعابير ، وقد لا يرغب في ذلك غضاً من شأنها ، ونجد هذا في بعض الأشعار القديمة أو الحديثة ذات النزعة السياسية أو الدينية ، وهكذا ، فإن الشاعر يقفز على ذكر بعض الشخصيات أو بعض الدول دون ترك بياض يرشد القارىء إلى السكوت عليه ، وإنما عليه أن يعتمد على حصافته وقدرة انتباهه وسعة تجاربه لملء الثغرات الموجودة في النص ؛ وأما الأبيض فيكون بدون مؤشر أو بمصاحبته ، واللامؤشر يكون بياضاً ناصعاً غفلاً مجرداً من أي شيء محتاجاً إلى منحه معنى ملائماً للسياق والمساق من قبل القارىء . والمؤشر يكون أيقوناً غير لغوي ؛ وحينئذٍ ، فإن المحلل يخرج من السيمياء اللغوية إلى « السيميوطيقا » فقد ينوب عن التعبير اللغوي أيقون (قف) ، أو رجلاً مقطوع الرأس ، أو واقفاً على رجل واحدة ، أو كرسياً مزخرفاً . . أو أي شيء آخر . .

إن هذه الوقائع البصرية واللابصرية لم تنل حظها من الدراسة والتصنيف مثلما حظيت به الوقائع السمعية في مختلف الثقافات ؛ على أننا لا ننكر اهتمام العرب بتجويد حظهم ، والتأنق في أشكاله وأدواته ، وبكتابتهم بعض الكلمات بخط غليظ أو بحبر مغاير ، أو ببعثرة الحروف في بعض أنواع الخطاب ذات الرسالة الإيهامية ، كما وقع استغلال الفضاء في التَّخْتِيم الشعري . هذا الحس بدور حاسة البصر في منح النص معنى ودلالة هو الذي جعلنا نعتبر

الفضاء من الثوابت الشعرية الجوهرية (مقابل العرضية) ؛ على أن ما كان موجوداً بالقوة وببعض الفعل أبرزته التيارات الشعرية الحديثة والمعاصرة عربية كانت أم غير عربية مما جعل السيميائيات تهتم به . ومهما اختلفت الآراء في شأن هذا الصنيع ، ومهما اختلف وعي الشعراء بهذا الأيقون فإن محلل الخطاب الشعري مطالب باستكناه دلالاته وأبعاده ، لأنه ليس تحصيل حاصل أو حشواً يمكن الاستغناء عنه ولكنه أحد مكونات الخطاب الشعري ، فبنيته القصدية مرتبطة ـ ضرورة ـ بالأيقون وبالمؤشر الكنائي مهما كان نوعهما .

2 ـ الشعر العـادي :

يتحصل ـ مما تقدم ـ أن الايقونات الأربعة ـ التي هي رمزية الصوت ، وقصدية الكلمة ، وانسجام العالم ، والفضاء ـ هي ما يكون البنية الشعرية العميقة على قدم المساواة . أما إذا تضاءل بعضها أو طغى بعض منها على بعض ، فإن الخطاب يكون شعراً ولكنه ليس راقياً ، وفي أسوأ الأحوال ، فإننا نحتكم إلى مقصدية المبدع أو اجتماعية النص لنثبت أنه شعر ؛ فـ « قصيدة » الأصوات المبعثرة ـ كما يفعل الشعراء الحرفيون ـ تعتبر شعراً ، اعتباراً للمقصدية والاجتماعية (السياق والوظيفة) ، وكذا « القصيدة » المازجة بين الحروف والكلمات ، وقصيدة المعجم شعر مضموني كما نجد في كثير من الشعر العربي القديم وبعض الحديث . كما أن قصيدة الصورة الشعرية ناقصة إذا لم تتوافر فيها العناصر الأخرى ؛ فالشعر الحق ، إذن ، ليس صوتاً و/ أو حرفاً ، أو رسماً رديئاً ، أو معجماً ، أو صورة ، أو استغلالاً لفضاء ، وإنما هو كل ذلك لا يمكن تفضيل أحد العناصر فيه على الأخرى .

- 4 -

برهنـــة :

حاولنا فيما سبق وضع مبادىء كلية تتحكم في اشتغال أي نص ، ومفاهيم نوعية خاصة بالخطاب الشعري ، ولكي لا يبقى كلامُنا فرضاً بدون برهنة فإننا سنحاول اختباره على قصيدة « القدس » للشاعر أحمد المعداوي .

إن الشعر المعاصر لا يقدم نفسه للمحلل على طبق من ذهب ليبتلعه بكل سهولة ، وإنما عليه أن يتسلح بعتاد هجومي ودفاعي للاقتراب من مأدبته . وهذه الرغبة في الاقتراب تجعلنا نسلك استراتيجية مضبوطة وحيلاً تاكتيكية خاصة ، أي نظرية بمبادئها ومفاهيمها ، ونَسْتخدمُ مفاهيم محلية تارة أخرى ؛ وأول الحيل التاكتيكية هي الظفر بمغزى العنوان ؛ والمفهوم المحلي

الذي نستخدمه لهذا الغرض هو : من القاعدة إلى القمة (Top - down) ، ومن القمة إلى القاعدة (Bottom - Up) ؛ ومعنى هذا ، أنه يجب فهم معاني الكلمات المعجمية وبنية الجملة ، ومعناها المركب ـ أي من القاعدة إلى القمة ، وعلى أساس هذه الجملة نتوقع ما يحتمل أن يتلوها من جمل ـ أي من القمة إلى القاعدة .

إن هاتين العمليتين معاً يمكن تطبيقهما على العنوان في القصيدة المذكورة ؛ فعملية (القاعمة) هي فهم معنى كلمة « القدس » وإيحائها ، وعملية (القِمعدة) هي توقعنا ما سيتلو هذا العنوان من جمل ومن مضمون . عنوان القصيدة حدد مبدئياً قصد الرسالة المحتمل لمن كانت له خلفية معرفية حول القدس وتاريخها والأحداث التي تعرضت إليها قديماً وحديثاً ، وموقف الدول العربية . . . على أنه يجب على المحلل أن لا ينساق مع تداعياته المعرفية ، ولكن عليه أن يراعي ما يسمى بمبدأ « التأويل المحلي » الذي يُعِيرُ الانتباه إلى السياق المحيط باللفظ أو بالجملة ، ووحدته ، والمحاذاة الزمانية والمكانية ، والعلاقات المعجمية ، وتفضيل المعنى الأقرب على الأبعد ، ومقصدية الشاعر .

إذا كانت المشابهة وما تدعوه من توقع وانتظار بناء على معرفتنا المتراكمة للعالم ، تجعلنا نقتحم عالم القصيدة الرحب في اطمئنان ، اعتماداً على ما أوحى به العنوان ، فإننا مع ذلك ، سنقيد أنفسنا بمبدأ التأويل المحلي لئلا نسقط على القصيدة كل ما تراكم لدينا من تجارب ونقوِّلها ما لم تقل .

أ ـ المستوى الموضوعاتي :

إن العنوان وما أثاره في ذاكرتنا من تداع ، ومن تنبيه لتجاربنا السابقة جعلنا نتوقع ما سيتلو وما سيحكيه علينا الشاعر ؛ ولو كانت القصيدة تقليدية ، لكان الأمر سهلاً هيناً ، ولكنها معاصرة تعوق ، إلى حد كبير ، انتظارنا على أن يسير في طريقه المستقيم ؛ ولذلك ، فإنه لا خيار لنا إلا أن نسلك في تحليلها تكتيكاً خاصاً ، وهو الهجوم على الموقع الأكثر ضعفاً ـ مَعْنَاه الأكثر وضوحاً ، وهو المعجم الذي يمكن تصنيفه بحسب المحاور الآتية :

1 ـ القدس المقدسة : وألفاظه هي : الحزينة ، الأسيرة ، الثكلى ، العتيقة ، ذات الشيب ، باب الله .

2 ـ الجو الجنائزي : وألفاظه هي : تدفنين ، القبور ، الردى ، نموت ، الموت ، مدفون .

3 ـ الهزيمة : وألفاظه هي : دفن الريح ، الظلام ، الصمت ، أعمدة الشبابيك ، العتمة ، الدم .

4 ـ فقد التاريخ والشرف : وألفاظه هي : ظمأ الأحقاب ، يظمأ كل ، ظمئنا .

5 ـ موقف الحكام : وألفاظه هي : ضحكة السلطان ، بؤس الفجر في وهران ، خرائب مكة صمت طور سينينا .

6 ـ ماضي اسرائيل وحاضرها : وألفاظه هي : التيه ، الصحراء ، الرب ، طور سينينا، الثعبان ، العقرب ، خناجر ، الشموخ .

إن هذا التصنيف ليس إلا بوصلة توجهنا في سراديب القصيدة وليس كل شيء ؛ فالشعر بنية ذات عناصر متضافرة (أصوات ، ومعجم ، وتركيب ، ودلالة) ، فالدراسة المعجمية ، وحدها ، تسيء إلى النص الشعري لأنها تفصل الألفاظ عن سياقها التركيبي أي عما قبلها وما بعدها ، ولأن مثل هذه الألفاظ المعجمية يمكن أن تكون في قصيدة شاعر آخر ، أو في مقالة نثرية ؛ وعلى ضوء هذا ، فإن اسئلة تطرح نفسها ولا يمكن أن يجاب عنها بكل دقة ، وهي : ما الذي يفرق بين شاعر وشاعر ؟ وما الفرق بين الشعر والنثر ؟ وما دور الألفاظ التي لم تتكرر ، وهي ذات أهمية في إلقاء الضوء على النص المدروس ؟ وأين خطية المعاني وطبقيتها وأيقونية الكتابة ؟ معنى كل هذا أن المعجم ليس إلا مادة خاماً لا يكتسب ماهيته إلا بالصورة التي يتشكل فيها . وتتحكم في تشكله إواليتان أساسيتان هما : الترابط والتداعي الحر ؛ فالحصيلة اللغوية المتراكمة عبر تجاربنا السالفة ، ومن خلال معرفتنا للعالم ، وسياق القصيدة تقتضي كلها أن يرتبط « تدفنين » « بقبر » و « أعمدة » « بالشبابيك » و « تصبين » بـ « تشربين » و « الأكواب » . . . ، على أن الشعر الذي يخرق العادات اللغوية ويثور على أعرافها يهيمن عليه التداعي الحر . وعلى هذا ، فإن الترابط يكون في أنواع السلوك الشعائرية والبروتوكولية (مناسك الحج ، الصلاة . . . القصيدة الجاهلية المدحية . . .) . وإذا كان هذا السلوك المترابط يكسب ثقة المتلقي واطمئنانه ، فإنه ليس فيه عناء التداعي الحر ، ومع التسليم بجدلية النوعين : الترابط والتداعي ، فإن هذا النوع الأخير هو الذي يسود في القصيدة ، فهي تقوم على هذه التداعيات الحرة التي لا يتوقعها القارىء مما يجعله متلهفاً إلى المزيد من المعلومات حول الحكاية ، والنوعان معاً يكونان مركبين : (الدفن القبر . . .) أو ابداليين : (الظمأ ـ الشراب) ، ولا تخلو منها أية قصيدة ، ولكن أحدهما يهيمن على الآخر بحسب مقصدية الشاعر واجتماعية الخطاب .

إذا كانت الطريقة المعجمية الموضوعاتية تفشل في اعارة الانتباه إلى الترابط والتداعي الحر ، فإنها تعجز ـ أيضاً ـ عن التمييز بين مستويات اللغة المستعملة ، وإيحاء كل مستوى ، وإحالته على مجال معين ، فكل ما فعلناه ، سابقاً ، كان عبارة عن وضع قوائم لم تميز بين

المستوى المعجمي العتيق ذي الدلالات الخاصة ، « التيه » ، « باب الله » ، « الصحراء » ، « التابوت » ، « النواصي » ، وبعض أسماء الأعلام ، كما أننا نجد ألفاظاً ذات نكهة قدحية (الثعبان ، العقرب . . .) وهذا النوع من التداخل المعجمي أحدث معاني عرضية فرعية يمكن أن تقرأ القصيدة على ضوئها بعدة تشاكلات .

ب ـ مستوى رمزية الصوت :

إن كل هذه الأشياء لا يهتم بها التناول المعجمي الموضوعي ، ولذلك ، فإن قصوره واقع لا ينكره أحد ، ومع ذلك فقد اعتبرناه أوضح مستوى يمكن الانطلاق منه لدراسة مستويات أخرى أخفى . فقد استطعنا ـ بواسطته ـ أن نضع اليد على جو القصيدة العام ومقصدها وسياقها ، وهي تتمحور حول : جو الكآبة /جو الشموخ /بين بين / . وتبعاً لهذا ، فإن ما يكاد يشبه المشاكلة بين دوال الصوت وهذه المعاني متحقق ، ويدخل ضمن دوال الصوت هذه عدة مظاهر لغوية أو مرتبطة باللغة عديدة وهي :

1 ـ الرمزية الصوتية :

إن هذه الإشكالية اضطربت فيها كثير من الآراء ، ولكن كثيراً من الدراسات اللغوية المعاصرة تميل إلى القول بها ، ونحن ننحاز إليها تمشياً مع أحد المبادىء العامة التي وضعناها قبل . وقد تسعفنا نصوص فلا نتجشم كد الذهن وعناء اليد لإحصاء الأصوات وتعدادها ومنحها معنى ، كما نجد في بعض التراث العربي الشعري والنثري ، والشعر الطلائعي الحرفي ، وقد تمتزج مع باقي العناصر الأخرى ، وحينئذ ، فإن السياق العام والخاص هو معيار تحويل المعنى للصوت ومهما يكن الأمر ، فإن السياق بمعنييه هو الحكم والفصل ، فليس للأصوات دلالة جوهرية بعكس ما تذهب إليه بعض الآراء (فوناجي وكريستيفا) الرابطة بين الأصوات وبعض مظاهر الغريزة ؛ والأصوات الشفوية ترجع إلى ما يتعلق بالفم ، والسين توحي بالقضيب والفاء فيها عدوان حيناً ، وراحة حيناً آخر ؛ إن هذا الربط ميكانيكي وساذج ووضعي مفرط في وضعيته ، فقد يصح ما ذهب إليه المؤلفان في بعض أنواع السياق المحدودة ـ لغة الأطفال ، الأقوام البدائية ، وما يحاكي هاتين اللغتين . ولا يستقيم في اللغة الراقية إلا إذا عضدت تلك الأصوات بالتراكم ، وبالسياق العام والخاص ؛ ودليلنا على ما ذهب إليه هو منحها تعدداً قيمياً للصوت الواحد .

لدحض هذه الفرضية أو إثبات صدقها فإننا سنختار بعض الأصوات المتراكمة في المقطع الأول (8 مرات صوت الباء) (صوت الميم 11 مرة) . (وصوت الفاء 4 مرات) ، وهذه

الأصوات الفمية عددها (23 صوتاً) ، وهذه نسبة ترجح تحكم هذه الموضوعة ـ لا شعورياً ـ في المبدع ، وخصوصاً أننا نجد ما يعزز هذا الحكم معجمياً (الأكواب ، الصب ، الشراب ، الظمأ) . وقد يثير الانتباه ـ في المقطع الثاني ـ صوت الشين الموحي بالاحترام والعظمة ، والأصوات الصفيرية الدالة على الخلو بعد الامتلاء وأصوات الفم الموحية بالطفولة والعجز . . . إذا صح هذا المسار فليتبعه من أراد أن يتحقق ، ولكن عليه أن يتفطن إلى المحدد التالي وهو : **أن ليس هناك معانٍ جوهرية للأصوات ولكنه هو الذي يمنحها إياها بناء على التراكم وعلى السياق العام والخاص .**

2 ـ الإيقــــاع :

وعلى هذا ، إذا كانت الرمزية الصوتية ذاتية ـ موضوعية فإنَّ الإيقاع كَذَلكَ ، فهو ذاتي ـ موضوعي ، لأنه ليس قالباً جاهزاً عاماً وإنما هو : مجرد مادة تتشكل بحسب مقصدية الشاعر واجتماعيته فيأتي بطيئاً أو سريعاً ، طويلاً أو قصيراً ، وبحسب مقصدية المحلل (واجتماعيته أيضاً) ، فقد يقع التماهي بين المحلل والشاعر وقد يحصل التباين بينهما ، وقد تكون مراتب وُسْطَى بين الحدين . ومهما يكن ، فإننا سنحاول أن نقترب من إيقاع قصيدة « القدس » حتى نندمج فيه ونتماهى مع الشاعر ، وللقارىء أن يحكم في أي موقع نحن . فالقصيدة مبنية على تَفْعِلة « مفاعلتن » يحتوي السطر منها أربعاً أو واحدة فقط . وحيث إننا سندرس الفضاء فإننا نكتفي ـ في هذا السياق ـ بالتحدث عن الإيقاع . ولن يكون إلا معززاً للمناخ الجنائزي الكئيب ، والشموخ المتعجرف ، والتأرجح بين الوضعين أي إلى ما أشرنا إليه قبل في المعجم . فالقدس الضاربة في أعماق التاريخ الغارقة في الدمار الرهيب والقتل والتخريب ، والموت والاحتضار لا يلائم التعبير عن حالها إلا تفعِلة تقرأ بتثاقل ونحيب وصوت مجهش أجش ؛ ولهذا كله ، فإننا نزعم أن المقطع الأول بطيء الإيقاع محاكاة للحالة النفسية ودلالة عليها ، وأما المقطع الثاني فإنه بطيء متثاقل يوحي بالشموخ الدنيء ، والفعل الشنيع ، والثورة والعجز . على أن المقطع الثالث يبدأ بإيقاع ثوري عنيف سريع متصل الحركات المتجلية في التدوير ، ولكن تلك الثورة لم تكن إلا عابرة وذلك الأمل سرعان ما تحول يأساً ، واستأنف الإيقاع المتصل البطيء البئيس السائر بدون توقف إلى قراره الأخير وعززه المقطع النهائي .

مما سلف نزعم أن لم يكن هناك اعتدال وتوازن بين الإيقاع البطيء ودلالته ، وبين الإيقاع السريع وإيحاءاته ، فهذا لم يكن إلا نواة حاولت أن تنمو ، ولكن ضغط هول المأساة قضى عليها في المهد لاختلال توازن الشّاعر النفسي ، ولرجحان كفة الطرف الغالب بلا هوادة . وقد عضد التثاقل الإيقاعي بفواصل ، بعثت الأمل في المتلقي ، ولكنها لم تلبث أن

زادته صدمة على صدمة ، مثل فاصلة المقطع الأول ، وفاصلتي المقطع الثاني ، وفاصلة المقطع الأخير .

3 ـ النبـــر :

على أن هذا الإلحاح على شد انتباه المتلقي المتجلي في بطء الإيقاع والإلقاء لا يكون على مستوى واحد في البيت جميعه فقد يبئر الشاعر على بعض المكونات في الجملة بِنَبْرها دون سواها لينبه المستمع إلى مفهومها ، وليس هناك مكون واحد خاص بالتبئير والنبر ؛ فكل مكون قابل لأن يمنح نبراً ويكون محلاً له ؛ فالنبر مفهوم مجرد يتحقق على مستويات متعددة ، كما أن الوزن الشعري إطار يمكن أن يحتوي على الإيقاع البطيء أو السريع أو المتـوسط ، ولهذا ، فـإني لَنْ آخـذ بالآراء التي تحاول أن تقنن النبر الشعري بِصَنيعنا ذلك ، نَرْجِعُ إلى نظام الأطر الجاهزة ، مثلها مثل العروض القديمة ولذلك ، فإنه يظهر لنا أن الأسلم ـ في هذا الميدان ـ هو تبني أحدث الدراسات اللسانية حول النبر ، وخصوصاً مفهـومي المعلومات القـديمة (Old information) والمعلومات الجديدة (New information) ؛ على أن هناك اعتراضات يمكن أن توجه إلى هذا الاختيار ، وهي : أنَّ هذا يصح في دراسة اللغة العاديـة ، وفي جمل قصيـرة ، ولا ينهض في اللغة الشعرية ، وفي النص الشعري ، وخصوصاً الحديث والمعاصر منه القائم على المفاجـآت والجديد ، وأن النبر هو شيء تتحكم فيه مقصدية الشاعر والمحلل . رغم وجاهة هذا ، فـإن استخـدام المفهومـين السابقـين بتبصر ، وتتميمهما بمفهـومي الكائنـات الجديـدة والمستنبطة ، ومفهوم النبر التقابلي تُؤدي إلى نتائج مضبوطة .

إذا توضح هذا ، فلننزل إلى الميدان لاختيارهـا مقتصرين عـلى التمثيل لا الاستقصـاء تاركين المجـال مفتوحـاً لمن أراده . فقد بئـرت ونبرت « الـريح » و « العتمـة » و « صمتك » و « أعمدة » و « القبور » ، و « الاحقاق » ، و « كل » و « سحب » و « أكواب » و « الردى » تبئيراً ونبراً أولياً ، وبئرت ونبرت الكلمات الأخرى تبئيراً ونبراً ثانويين . وخلفية هذا الاختيار والمنح هي افتراضنا أن تلك الكلمات هي التي لا يعرفها المتلقي ، وهي التي كان ينتظرها بمزيد شـوق ولهفة . فحينـما سمع « تـدفنين » تسـاءل ماذا ؟ « الـريح » تحت مـاذا ؟ « العتمة » ، و « تلتحفـين » ماذا ؟ « صمتـك » خلف ماذا ؟ « أعمـدة » ، ماذا تصبـين ؟ « القبـور » من يظمأ ؟ « الأحقاب » ومن يظمأ أيضاً ؟ « كل ؟ مماذا ؟ « صعب » . وأما النبر عـلى « أكوان » فهو من قبيل النبر التراكمي . فهذه الكلمات كلها كيانات جديدة ، ومستنبطة في آن واحد أي (ريح الثورة) ، و (عتمة الهزيمـة) . . وعلى ضـوء هذا يمكن أن يـطبق من أراد على بـاقي مقاطع القصيدة ، فما يُصبح معروفاً لا نبر قوياً عليه وما يكون جديداً فإنه ينبر بقوة .

قد يستنتج القارىء من هذا ما يلي : أنَّ الألفاظ المحورية الأساسية نفسها هي ما وقع عليه التبئير والنبر ، وهو محق في استنتاجه . ذلك أن الإيقاع جاء متماكناً مع دال المعجم فتعززت دلالة اللفظة المعجمية والسياقية بدلالة ذرية صوتية ودلالة موازية مما حقق انسجاماً على هذين المستويين . وهذا الانسجام هو ما نراه على مستوى صور الشاعر أيضاً .

ج ـ مستوى انسجام الوجود :

ولكنْ كيف يمكن البرهنة على هذا الادعاء ؟ وما هي الخطوات التي يجب اتباعها ؟ للاجابة نقول : اننا نسير على هدى المبدأ السابق ، وهو الهجوم من الجانب الأضعف أي من البسيط إلى المركب ومن الأوضح إلى الأقل وضوحاً ، وتطبيقاً لهذا نُقرّر : أن الاستعارة تميل إلى أن تجعل المجرد محسوساً ، وهذا تقسيم أكبر ، إذ يمكن تفريع المحسوس إلى : حي ـ حي ، والحي إلى : انسان ـ حيوان ، والإنسان إلى : مذكر ـ مؤنث ، وغير الحي إلى : طبيعي ـ اصطناعي وإذا كانت هذه المقولات انسانية ، فإنها ـ ولا شك ـ ستتجلى في هذه القصيدة ، وأهم ما نراه منها هو : نقل المجرد إلى المحسوس :

1 ـ

المجرد	المحسوس
+ الصمت	ما يلتحف به
+ الأحقاب	الانسان والحيوان
+ التيه	إلى ما يشقق
+ الحقد	إلى ما يصفو (الماء)
+ فجر	إلى ما يمد (الحبل)
+ غشوة	إلى ما ينبض (القلب)
+ رجاء	إلى ما يتفسخ
+ الموت	إلى ما هو نقي (الماء)
+ الفجر	إلى ما ييئس (الانسان)
+ الرب	إلى ما يصمت (الانسان، الحبل)

2 ـ المحسوس ← الحي ← الانسان / الحيوان

2 ـ المحسوس	الحي	الانسان	الحيوان
القائمة السابقة	+ الثعبان	+ بؤس الفجر	+ الثعبان
	+ الضوء الأشْيَبُ	+ صمت الرب	+ العقرب
	+ العقرب	+ الضوء الأشْيَبُ	+ هدير الصحراء
	+ هدير الصحراء		

+ بؤس الفجر
+ صمت الرب

3 ـ المحسوس ◄—— اللاحي ◄—— طبيعي / اصطناعي

القائمة السابقه	طبيعي	اصطناعي
	+ صفاء الموت	+ الصمت (الكون)
	+ نقاء الموت	+ القبور

يتضح من هذا أن موضوعة « الاحيائية » هي الغالبة ، سواء أتعلقت بالحيوان أم بالانسان ؛ فحدود الحيوان هي : الثعبان ، والعقرب وهدير الصحراء ، وحدود الإنسان هي الضوء الأشيب ، وبؤس الفجر وصمت الرب ، ودفن الريح وإرتماء الباب ؛ وأما الذي نقل من المجرد إلى المحسوس ولكنه ليس حياً فهو : أربعة حدود : إثنان منها طبيعيان : صفاء الحقد ، ونقاء الموت ، واثنان منها اصطناعيان التحاف الصمت ، وصب القبور . وقد راعينا ـ في هذا التصنيف ـ تركيب الاستعارة بناء على اتجاه النظريات التركيبية ، ولم نراع اللفظة في حد ذاتها ، كما تذهب إلى ذلك النظرية التشبيهية حتى نتجنب التقسيمات المتعددة (تشبيه بليغ ، مجاز مرسل ، ومجاز عقلي وكناية) كما أننا لم نجر الاستعارات بالطريقة التقليدية أو بواسطة المقومات الملاصقة والتفاعلية ، أو بواسطة الخصائص المحولة لأن مقصودنا ليس التفصيل ، وإنما ضرب أمثلة على استقامة منهاجية وعلى إمكانية تطبيقها . . . ومهما كان الأمر ، فإن الاستعارة هي السائدة في هذه القصيدة مما أشاع احيائية وتعييناً وتشييئاً للمعنويات ابتداء من العنوان إلى آخر الكلمة ، على أننا نضيف إلى هذا وظيفتين اثنتين للايقون الاستعاري ، وهما :

1 ـ تطويع الواقع وضمان انسجام العالم ليهيمن عليه الإنسان ويستطيع الحياة فيه ، فما لا يستطيع فهمه وتجربته يعبر عنه بمفاهيم أدركها سلفاً وخبَرها ، فأغلب الناس جرب الدفن ، ويدرك معنى الالتحاف ، والصب والحز ، ولكن الشاعر لم يكتف بهذا الإدماج الذرائعي المحض كما يفعل الناس في تعابير اللغة العادية التواصلية أو كما يفعل واضعو المصطلحات العلمية والفنية أو كما يصنع بعض الشعراء التشبيهيين ، ولكنه خلق واقعاً جديداً باستعاراته .

2 ـ وهذا الخلق الجديد يقصد به الإقناع لأن الاستعارة قياس كاذب كما يقول « نيتشه » ، ومعها يبدأ الفكر ، وإن شئنا قلنا : انها الأقيسة الشعرية الصادقة التي تكون ـ أحياناً ـ أصدق من أي منطق وضعي . . . وبهذا الادراك اتجه المحدثون والمعاصرون من الشعراء إلى إركامها وخرق أعراف المتوارث منها . وقد وفق بعضهم فجاءت صُوَرُهُ منسجمة ، وزاغ بعضهم فجاءت متنافرة . وقد وفقت القصيدة المحللة : فالقدس امرأة دفنت فلبست

لباس الحزن وشربت مرارته حتى الثمالة فبقي الناس عطشى ، وبتعبير آخر : امرأة دفنت الثورة فحاقت بها الهزيمة ، ففقدت كل نصير خذلاناً أو هلاكاً وبقي الناس عاجزين لا يحركون ساكناً ؛ ثم نمت موضوعة العجز والخذلان في باقي أقسام القصيدة .

د ـ مستوى التفاعل في النص :

إن كلا من الوظيفتين السالفتين تجنيان شيئاً واحداً ، وهو الانسجام مع المحيط ، وفيه ، وتحقيق التفاعل معه ، أشياء أو كائنات . ومما يعني هذا أن هناك مخاطباً حاضراً بالفعل أو بالقوة يبغي الشاعر إقناعه لكسبه إلى جانب أطروحته بواسطة استراتيجية تعبيرية خاصة . ولذلك فان الشاعر يضع نصب عينيه ، حين صنع قصيدته المتلقي فيمحو ما يكتب أو يثبت حتى يتحقق له تكييف خطابه بقدر العقول الموجه إليها ، ومعنى هذا : أنه ليس سيداً مطلق السيادة يملي على المتلقي المغلوب على أمره ما يشاء ، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ ليس منفذاً لـطلبات الجمهور ومستحسناً لتصفيقاته فيطربه بما يشاء وإنما هناك تزامن وتناغم بين عملية الخلق الشعري والهيئة المتلقية المثالية المنتظرة . وبناء على هذه القناعة النظرية تجنبنا مصطلح الفعل الكلامي أو العمل وتبنينا مصطلح التفاعل الجامع بين مقصدية المتكلم واجتماعيته في آن واحد .

على أن نتيجة التفاعل قد لا تتحقق في الخطاب الشعري ، فقد تبقى مجرد ادعاءات أو إيهاماتٍ بالتفاعل الكلامي ، وقد تتحقق بصيرورة التفاعل الكلامي تفاعلاً اجتماعياً في الوقت نفسه . بيد أننا إذا سلمنا بوجود عقدة ضمنية أو فعلية بين الشاعر ومتلقيه ، فإن الاستجابة حاصلة انفعالياً أو فعلياً ، عاجلاً أو آجلاً في عالم الواقع ، أو في عالم الممكن . وتلك هي مصداقية الشعر الراقي وخلود رسالته .

إذا صحت هذه المقدمات فلنلتمس تجلياتها في القصيدة وهي :

1 ـ عوامل الخطاب :

نقصد بها العلاقة بين المتكلم والمخاطب وقد تكون ـ نظرياً ـ علاقة حميمة أو علاقة توتر ، علاقة اتصال أو علاقة انفصال ، علاقة احترام أو علاقة كراهية . والنص يحتوي على العلاقتين معاً : محبة القدس والمناصرين ـ علاقة اندماج وتواصل : « رأيتك » ، ويزيد في توضيحها تعبير « يا عمة » ، وعلاقة الغالب بالمخاطب والشاعر علاقة تباغض وافناء : تحز ـ عيوني أي علاقة اسرائيل بالقدس وبالشاعر .

2 ـ الزمـــان :

إن أسباب هذه العلاقة مهما كان نوعها تتم في زمان معين ، ويعبر عنها بزمان خاص ،

وعلى هذا فإننا سنفرق بين صِنْفين من الزمـان : زمان كـلامي نحوي . وزمـان اجتماعي ؛ فـالزمـان النحوي يـطرح اشكالاً في الشعـر مؤداه : أنه يفقـد جهته فـلا يدل عـلى ابتداء أو استمرارية أو نهاية . ولكن هذا الفقد ليس مطلقاً ، فالسياق هو الذي يبين مداه ، ولذلك فإننا نرى في « رأيتك » ماضياً ولكنه مستمر في الحـاضر بواسـطة « تدفنـين » ، و « ظمئنا » مـاض صيغة ، ومنته جهة ، أي أن درجة الصفر هي زمانه ـ الظمأ حاصل في سالف الأزمـان وأبدِ الآبدينَ . . . والأفعال المضارعة تدل على الحال « تدفنين » ، « تلتحفين » ، « تصبين » وعلى الحال والمستقبل معاً « يظمأ » . فالمقـطع الأول تمتزج فيـه صيغتانِ : المـاضي ، والمضارع ، وثلاث جهات (الماضي والحاضر والمستقبل) وتنوع الأزمنة هذا يعكس تحويل وضع ابتدائي (بـداية الـدفن) إلى وضع نهائي (دوام الـظمأ) ، ومـع أن الشاعـر إستعمل أفعـالاً مختلفة زعزعت انسجام النص ، فإنها ضمنت خصبه وحركته وتطوره وثراء وسالته .

إن الوضع النهـائي هو مـا عبر عنـه في : « أيا بـاباً إلى الله أرتمي من أين آتيك » وفيما بعـده ، ثم ذكر أسبـابه ـ فيـما قبلها ـ بصيغـة المضارع صيغـة وجهـة ، وبـأفعـل التفضيـل اللاجهوية . . . إنها نفس المكونات الزمـانية الجهـوية التي تحـدثنا عنهـا قبل ولكنهـا تشكلت بكيفيات مختلفة : (ماض ، ومضارع ، وأفعل التفضيل ، والتشبيه البليغ) ، ثم يأتي المقطع الثالث معبراً عن مواقف مُتخاذلة ، وحسن نية ساذجة بأفعال ماضية مستمرة : (فجئت إليك مدفوناً أنوء . . .) وتعود القصيدة على بدئها مازجة بين الأفعـال مذكـرة بالـوضع الابتـدائي والنهائي المتساءل عنه .

تلك هي تفاعلات الأفعال النحوية وأدوارها وتوزعاتها خلال فضاء القصيدة ، وتهدف كلها إلى اثبات شيء واحد ، وهو هول الكارثة التي غيرت مجرى الزمان الاجتماعي . على أن هذا الزمان يمكن أن ينظر إليه من زوايتي الماضي والحاضر ؛ فماضي القدس مجيد عريق تحول إلى حاضر ومستقبل حقيرين ، وماضي اسرائيل حقير دميم صار شامخاً متكبراً : وهناك ثلاث جمـل كثفت هذه اللحـظات الاجتماعيـة الثلاث : « تـدفنين الـريح » و « تـظمأ الأحقـاب » و « شقوق التيه » ، وهذه ـ جميعاً ـ أزمنة اجتماعية ـ تاريخيـة مديـدة أقصرهـا أربعون سنـة ؛ فالشاعر كثف في هذه الجمل الثلاث النموذجية أحقاباً مـديدة من الصـراع المريـر ، مرتبـطة الحلقات والأحداث عمقياً ، وتكاد تخلو من الوقفات والفـواصل سطحياً . وبنـاء على هـذه النتيجة ، فإننا نرى خـلافاً بـين زمن الايقاع البـطيء الذي هـو أيقون الحـالة النفسيـة والجو الجنائزي ، وبين الزمن الاجتماعي المكثف ، ولكن هذا الاستنباط يقتضي أن يكون الزمنان متساويين . إنَّ الأمر ليس كذلك ، وإنما هما متداخـلان ؛ فالـزمان الاجتمـاعي نموذج مثـالي

يختلف ايقاعه بحسب المجتمعات ، كما أن الايقاع اللغوي المنجز داخله يختلف بحسب أحوال الكتاب والمتكلمين .

3 ـ المكـــان :

على أن الزمان بأنواعه المختلفة إطاره هو المكان الـذي ينجز فيـه ، ولذلـك ، فإنـه لا مناص من الحديث عنه : وكما فعلنا سابقاً في الزمان ، فإننا سنقسم المكان إلى صنفين : مكان لغوي ، ومكان اجتماعي ، وتوضيح هذا : أن اللسانيات الوضعية صاغت تعبير (أنا ، هنا ، الآن) لتدل به على ارتباط الحدث الانساني بالزمان وبالمكان . وضرورة الارتبـاط تقتضي أن (هنا ، وهناك ، هنالك) تَـدُلُّ على الـزمان المـاضي والمستقبل ، و (هنـا) تصاحب الحـال وحده ، وعلى هذا ، فإنها ليست إلَّا جزءاً من بنية مكانية اجتماعية ـ لغوية أعم .

لتبيـان هذا ، من خـلال القصيدة ، نبـدأ بالأوضـح فالأقـل وضوحـاً ، وبالمحـدد ثم اللّامحدد .

ـ **المحـــدد** : « فيـك » ، « في عيني » ، « ببـــطني » ، « بقلبي » ، « في عيني » ، « في نواصيك » .

ـ **دونه تحديداً** : « عرائش » ، « القبور » ، « في شقوق الثيـه » ، « في نقاء المـوت » ، « الصحراء » ، « التابوت » ، « النجيمة » .

ـ **الجهات الست** : تحت ـ فوق ؛ خلف ـ أمام ؛ داخل ـ خارج ؛ يمين ـ شمال .

بيد أن استخراج هذه القوائم ـ بدون تأويل ـ يجعل هذا العمل يدوياً مجانياً ، ولذلك ، فإنه يتعين منح دلالات لهذه الكثرة المكانية ، وهي :

* أن المكان به يحيا الانسان ، فهو يتأثر به ويؤثر فيه وينظمه ويتكيف معه ، ولذلك فإنه يحتل حيزاً كبيراً في الاستعمال اللغوي العادي ، وقد جاء متردداً بصيغ كثيرة في القصيدة لأن موضوعها التوجع على المكان ـ القدس .

* أن المكـان مع الـزمان جـاء ليجسم أوضاعـاً مختلفة : « وضــع القدس » مـاضيـاً ، ووضعها حاضراً ، وهما :

$$\frac{\text{فوق}}{\text{تحت}} ؛ \frac{\text{أمام}}{\text{خلف}} ؛ \frac{\text{خارج}}{\text{داخل}} \text{ ووضع اسرائيل ماضياً وحاضراً } = \frac{\text{فوق}}{\text{تحت}}$$

ووضع الأمكنة الرمزية في ماضيها وحاضرها :

الجد ؛ الثورة ؛ الجهاد ؛ التاريخ
الميوعة البؤس التقاتل التفريط فيه

لقد تبين من التفاعل النصي ، سواء أكان على مُستوى العوامل أم الأزمنة أم المكان وتعابيره ، أن « حياة النص » وصيغته تحكم فيها مبدأ الصراع القائم على شبه التضادّ أو التضاد أو التّداخل الممثل على جميع مستويات اللغة .

هـ ـ مستوى الانسجام في النص :

على أن هذا الصراع على مستوى « حياة النص » لا يؤدي إلى تفجيره وتفكيك أوصاله ، وإنما يؤدي إلى سلامته وعافيته وقدرة احتماله التأويل . بيد أن الصراع ليس المبدأ الوحيد الذي يحكم حياة النص ، وإنما مبدأ التراكم أو التشاكل أيضاً (Isotopie) ، فالمبدآن جوهريان ويشتغلان في أيّ نص وعلى كل مستوياته الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية والتداولية ؛ فالصراع والمصالحة وجهان لعملة واحدة ، تلك العملة التي يجب أن تكون منسجمة في الجوهر لا أن تظهر كذلك .

معنى ما تقدم : أن انسجام النص مبدأ كلي إن لم يَبْنِ نفسَه فإنه علينا أن نبنيه . ولحسن الحظ ، فإن النص الذي بين أيدينا لا يلجئنا إلى إحدى العمليات التي أشرنا إليها سابقاً باستثناء بعض الأسطر القليلة . وهكذا ، فإن تشاكل الأصوات والتفعلة لا يحتاج إلى إيضاح . وكذا تشاكل المعجم فهو يبين في (يظمأ ، يظمأ ، ظمئنا ، تشمخ ، تشمخ ، أكبر ، أكبر ، أنت ، أنت ، أنت . .) على أنه لا يكون مثل هذا النوع دائماً ، فإنه يكون متداخلاً (الموت ، القبر ، الدفن . . .) وقد يكون منتمياً إلى مجال واحد ـ الزمان (الفجر ، الليل ، العتمة) ، أو اللّون (السواد ، البياض ، الحمرة) . غير أن صناعة الشعر العربي المعاصر تقدم للقارىء تراكيب لا علاقة بينها ، وقد يبالغ بعض الشعراء فيعبثون بشعرهم محطمين العرف التركيبي ، أو يشطرون الكلمة الواحدة . . . وإذا كان النص الذي بين أيدينا قدم لنا تراكيب بينها ارتباط أو تداع ، فإنه لم يخل من هذه الخاصية الشعرية **الاختيارية** ، وخصوصاً على مستوى الايقاع . ولتبيان هذا ، فإننا ـ كعادتنا ـ سنبتدىء من الأوضح إلى الأقل وضوحاً :

وأولها : تكرار التركيب : « أنت الموت ، أنت الموت » ، والسطر الثالث والخامس والسادس من المقطع الأول مع السطر الرابع والخامس والسادس من المقطع الأخير .

وثانيها : الربط بأداتي العطف « و » و « ف » .

وثالثها : رابط الضمائر : المخاطب والمتكلم ، والغائب .

ورابعها : التوكيد اللفظي : « وشمخ » ، « تشمخ » ، « من سمائي » ، « من صفاء » .

وخامسها : الاقتضاء ، بمعنى أن السطر الثالث يقتضي ما سبقه ويوضحه ، ونقول الشيء نفسه في « ظمئنا » وعلاقته فيما بعده ، وكذا كل ما خلا من أدوات العطف فيما تبقى من النص .

وسادسها : تدوير بعض الأسطر مما يجعلها متصلة : السطر الأول مع السطر الثاني من المقطع الثالث ، والسطر الخامس مع السطر السادس من المقطع الثالث ، والسطر الحادي عشر مع الثاني عشر من المقطع الثالث .

قد يرى بعض القراء في هذا الجرد للآليات التي أدت إلى انسجام النص نوعاً من تحصيل الحاصل ليس له من فائدة إلا العناء . ويظهر أن هذه الرؤية وجيهة ، ولكننا ـ مع ذلك ـ نسيء الظن بالقارىء المذكور، ونطلب منه أن يشرح لنا بداية المقطع الثالث ويفهمنا إياها لأننا لم نهتد إلى العلاقة بين أسطرها . ومع أننا لا ندري ماذا ستكون نتيجة الاختبار فإننا سنعمد إلى توضيح بعض الآليات التي يشتغل بها النص الشعري العربي المعاصر ، وإلى كشف القناع عن بعض طرق تأويله . وتحقيقاً لهذا الغرض ، فإننا سنحرك مفهوم الحوار الخارجي (الإطار) والحوار الداخلي (تناسل النص) .

1 ـ الحوار الخارجي :

لن نطيل القول في هذه النقطة فنذكر تعاريف مقتبسة من هنا وهناك ، وإنما كل ما نريد أن نشير إليه هو أن الحوار ضروري كما أثبت ذلك كثير من الدراسات اللسانية ـ النفسانية . وأخذاً بنتائج هذه الدراسات ، فإننا نعتقد أن الشاعر دعا من خلفياته المعرفية ما احتاج إليه لصياغة قصيدته ، وما أراده . فهو ـ بلا شك ـ مطلع على بعض القرآن ، والحديث ، والأساطير ، والتاريخ وشعر الشعراء ، أي بعض ما يتصل بالقدس من قريب أو بعيد ، وكل هذا التراث القديم والمعاصر يضفي قدسية على هذا المكان كما أنه قرأ أو سمع ما انتهت إليه حالة القدس في الحاضر ، وقد تلقى بالقنوات المعرفية نفسها ما قيل في تيه بني اسرائيل ، ومكرهم ، ودهائهم ، وخبثهم ، وما انتهى إليه أمرهم في الحاضر ، وعاش تفاصيل الحدث التاريخي ـ المأساة ويعيش نتائجه ، وتراكمت على تجاربه المختلفة ثقافة صعبة الضبط كالأمثال والأغاني . . .بعالميتها وشعبيتها والتي لا يهتدي إلى معرفتها إلاَّ من تقمص تجربة الشاعر وشخصيته وتماهى معها . إن معرفة الشاعر للعالم هذه هي التي كانت وراء هذا النص الحدث ، المنفتح ـ المنغلق ، وهي المؤشرات والإشارات التي ترشد المتلقي إلى الطريق المباح المؤدي إلى المعنى .

استرشاداً بهذه الخلفية المعرفية المشتركة بيننا وبين الشاعر ، وتنشيطاً لمفهوم محلي سبقت الاشارة إليه ، فإننا سنهتدي إلى معنى المقطع المذكور . والمفهوم المحلي هو : من « تحت » إلى « فوق » (Bottom - Up) . وتطبيقاً لهذا ، فإننا نجد آخره يصرح بالهزيمة ، والبؤس ، والسخرية ، والموت ، ومعنى هذا أنه شرح لبدايته*وتوضيح للمحاتها، وتعيين لرموزها . ولتوكيد هذا التأويل نستعين بمعرفتنا اللغوية لفك إشكال الأسطر الثلاثة الأولى ؛ فالشاعر عبر عن يأسه بهذا الاستفهام الانكاري « وأي رجاء ؟ » وسبب ذلك أنه خدع بنار في الصحراء ، ولم يسر إلى نار في العمارة ، هي نار كسراب بقيعة ، أو كنار الحباحب ، وأنه حرث في البحر ، ولم يغمس محراثه في أرض طيبة تنبت ما يكون زاداً للناس ، وكل هذا يعني أن حبل أمل الشاعر انقطع ، ورجاؤه خاب فتاه حائراً لا يدري أين يسير .

2 ـ الحوار الداخلي :

وإذا لم يقتنع القارىء بهذه الحجج فإننا سنعززها بأخرى مبنية على أساس مفهوم الحوار الداخلي . وقد أشرنا إلى مكونه الصوتي (تشاكل الأصوات) والمعجمي المتكرر أو المتداخل أو المتقابل ، والتركيبي المعاد أو المتوازي أو المتقابل ، والمعنوي عن طريق استخراج تشاكل أساسي وهو « الحيوانية » . على أننا سنزيد الأمر توضيحاً فنقول : إننا نميل إلى الآراء التي تدعي أن أية قصيدة عبارة عن تقليب نموذج لغوي في صور مختلفة ، وقد يكون النموذج جملة أو كلمة مذكورة أو مضمرة ، وسنتخذ المؤشرات الدالة عليه ثلاث لحظات قوية في القصيدة : احداها ضرورية ، وهي عنوان القصيدة ، واثنتان اختياريتان : أي بؤرة القصيدة ، أو بيت القصيد بتعبير القدماء أو الجملة الهدف ، وخاتمتها .

أ ـ العنوان :

قد أشرنا قبل إلى أن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته ، ونقول هنا : أنه يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه ، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد انتاج نفسه ، وهو الذي يحدد هوية القصيدة ، فهو ـ إن صحت المشابهة ـ بمثابة الرأس للجسد ، والأساس الذي تبنى عليه . غير أنه إما أن يكون طويلاً فيساعد على توقع المضمون الذي يتلوه ، وإما أن يكون قصيراً ، وحينئذٍ ، فإنه لا بد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه ، فعنوان القصيدة التي بين أيدينا ـ لو لم نعرف انتماء الشاعر القومي والوطني ـ يحتمل أكثر من توقع : القدس الأسيرة ، أو القدس المحررة . والنواة الأولى هي التي قلبها الشاعر وولد منها قصيدته .

ب ـ بؤرة القصيـدة :

إذا صح تشبيه عنوان القصيدة برأس الانسان ، فإن هناك قلبها ، وهو ما نصطلح عليه باسم البؤرة أو بيت القصيد ، أو الجملة الهدف ولا يعني هذا أن ما قبلها وما بعدهـا حشو يمكن الاستغنـاء عنـه ، وإنمـا يجب أن نجعله سببـاً ونتيجـة . وليس لنـا من مقيـاس علمي لضبطها ، وإنما هي موكولة إلى حس القارىء وذوقه وحدسه ، ومـع ذلك ، فـإننا سنحـاول تطبيق مواضعة اعتباطية هي حساب الفضاء والزمـان ، وعليه فـإن البؤرة هي الأسطر (14، 15، 16، 17) ذلك أن القصيدة تتكون من ثلاثين سطراً ، فما قبلها (13) وما بعدها (13) ، وقد سبق أن بيَّنا أن هذه الأسطر هي التي كثف فيها الشاعر رموزه ، وعبر فيها عن يأسه .

ج ـ خاتمـة القصيـدة :

إن هذه النتيجة تؤكدها نهاية القصيدة التي تقول :

تصبين القبور وتشربين فتظمأ الصحراء .

ظمئنا والردى فيك .

فأين نموت يا عمة ؟

وهذه الخاتمة تعود على بدء القصيدة ، والبدء والعود يعكسان مناخ الهزيمـة والاستسلام وعدم الرغبة في الحياة ـ خاتمة طبيعية حفرت وتحفر أخاديد في وعي القارىء العربي والإسلامي وتقض مضجعه ، جاءت نتيجـة لبناء سببي ، مقـدمتها الأقـرب (المقطع الثـالث : تقاعس الأهل) ، ومقدمتها الأبعد فعل بني اسرائيل (المقطع الثاني) .

يتضح من هذا أن النواة التي بنيت عليها القصيدة القدس الأسيـرة الشهيدة عبر عنها العنوان والبؤرة والخاتمة أو بسواد الصفحة ، ولكن عبر عنها أيضاً ببياضها ، كيف ذلك ؟ هذا ما سنوضحه .

و ـ تأويل الفضـاء

لعل القارىء يدرك ـ مما سلف ـ دور الفضاء في استخلاص بعض النتائج ، وهـذا أمر ليس بدعاً ، إذ أصبح من المألوف الحديث عنه واستكناه دلالاتـه وأبعاده ، من قبـل الشعراء المحـدثين والمعـاصرين ، وبعض الـدراسات التي حـاولت أن تجعله من المكونـات الشعـريـة الأساسية بعد ما أغفلته الدراسات البنيوية المعتمدة على النماذج أو المتبنية للمعجمية لاعتمادها على المكتوب واغفال البيـاض ، واستخلاص البنيـات وإهمال الـزمان . ودفعـاً بهذا الاتجاه

الحديث من الدراسة إلى الأمام ، فإننا سنستخدم مفاهيم تراعي الفضاءين معاً .

1 ـ الفضاء المكتوب :

فما كتب يتحكم في صاحبه ويوجه تأويل القارىء ، فعنوان القصيدة « القدس » ، بناء على سياق معين ، أثر في ما تلاه . وكان التركيب الأول « تدفنين الريح » النواة التي نميت فيما بعد . فقد تبعتها وقائع رئيسية أدت إلى نتائج معينة . . وهكذا ، فإن ما كتب أولاً وقع أولاً وما جاء بعده فهو مرتبط به . على أن الشعر قد لا يراعي ـ في ظاهر الأمر ـ هذه الحتمية الميكانيكية ، ولكننا حين نرتب عناصر القصيدة فإن جلية الأمر تتضح لنا . كما أن طول التراكيب وقصرها لهما دلالة بحسب ما يحتلانه من فضاء .

إذا سلمنا بهذه الفروض النظرية فعلينا أن نختبرها في ميدان القصيدة ، وسننطلق من مفهومين من أجل هذا الاختبار ، نسمي أولهما : وقائع احتمالية ، وثانيهما : وقائع ظنية .

الوقائع الاحتمالية هي :

ـ اتصال المقولات النحوية وانفصالها ، فإذا ما اتصلت ، وعضدها السياق ، فإنها تدل على الصميمية والألفة ، كما نعبر في تجاربنا الثقافية والسلوكية : « بينهما صلات وثيقة » ، « وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل » ، ونجد أدلة على هذا في القصيدة ، فهي تبتدىء بهذا الضمير المتصل بضمير الشاعر : « رأيتك » ، ونجد أدلة على هذا في القصيدة ، فهي تبتدىء بهذا الضمير المتصل بضمير الشاعر : « رأيتك » ، وهو اتصال يوحي باندماج كلي بين الشاعر ومخاطبته ، وكذا الأمر في « آتيك » ، كما أننا نجد بعض التراكيب ليست متصلة ولكنها في طريق الاتصال مثل : « مددت إليك » ، « جئت اليك » . وما سبق يمكن أن يسمى اتصالاً بالغير ، ولكن هناك اتصالاً بالذات مثل « فيك » ، « عيوبك » ، « نواصيك » ، « سمائي » ، « عيني » ، « حنيني » ، « محرائي » ، « قلبي » . . . ومهما كان الاتصال بالغير أو بالذات أو مقاربة الاتصال فإن هناك ازدواجية ذاتية تتجلى على مستوى المؤشرات الخاصة بها وعلى مستوى التماكن الفضائي .

ـ قرب التراكيب أو بعدها ، والمعطيات التي تمثلها هي :

« وأنت الموت أنت الموت » .
« وأنت المبتغى الأصعب » .
« تصبين القبور وتشربين فتظمأ الأحقاب » .
« ظمئنا والردى فيك » .

« فأين نموت يا عمة ؟ » .
« تصبين القبور وتشربين فتظمأ الصحراء » .
« ظمئنا والردى فيك » .
« فأين نموت يا عمة ؟ » .

فتجاوز التركيبين يدل على الالتحام والتوكيد ، فكأن الشاعر لما ألقى بالتعبير الأول لم يلتفت إليه المتلقي المتوقع الذي قد يظن أن هذا التعبير ليس إلاّ مجازاً ومبالغة شاعر فأعاده لإقناعه بصدق قوله ، ونستأنس لإثبات صحة هذا الرأي بـ « وأنت المبتغى الأصعب » ، وبدليل نحوي ، وهو المصدر التوكيدي ، فإذا ما قلنا : « كلمنا أخاك » فاعترض المخاطب بأن هذا لا يصح بدعوى أننا في البيضاء ، وأن أخاه في مكة ، فقلنا مرة أخرى « كلمنا أخاك تكليماً » ، وأمام هذا ، فلا يبقى أمامه إلا التصديق ، وأما بعد ما تكرر في المقطع الأول كما في آخر القصيدة فهو يحاكي تنوع المسافات النفسانية التي اعترت الشاعر (بين التهديد والوعيد والمحاولة والاستسلام) .

ـ **فضاء الهرم المقلوب** ، ويمكن أن نتخذ مثالاً له :
« تصبين القبور وتشربين فتظمأ الأحقاب » .
« ويظمأ كل ما عتقت . . . » .
« ظمئنا » .
« تصبين القبور وتشربين فتظمأ الصحراء » .
« ظمئنا » .

فقاعدة الهرم هي الزمان الأبدي والفضاء الفسيح ، ووسطه الشاعر ، وقمته قوم الشاعر ، ثم وقع ابعاد الشاعر ليقع الانتقال من القاعدة إلى القمة مباشرة وكأن الشاعر رأى أخيراً أن لا جدوى من حديثه عن نفسه بعد الفشل والاستسلام فاندمج في غيره لتكون المسؤولية جماعية .

إن حديثنا عن هذا الهرم يؤدي بنا إلى الحديث عن **الوقائع الظنية** ، ونعني بها الفضاء الذي يحتله رسم الحروف والكلمات والأسطر والفواصل وعلامات الاستفهام والتعجب . وقد أسميناها هكذا لأننا لم نتوصل بالقصيدة مكتوبة بخط الشاعر ، وإنما وصلتنا عن وسيط آخر ، مما جعلنا لا ندري ما مدى المحافظة على وضع القصيدة الأصلي كما لا نعلم ما مقدار المخالفة ؛ ومهما يكن ، فإننا سنحاول تأويل ما بأيدينا مانحين إياه معنى ودلالة لا يتناقضان مع ما سبق وإنما ينضافان إليهما .

إذا ما حكمنا حاسة بصرنا وألقينا نظرة على مختلف مقاطع القصيدة فإننا نلاحظ ما يلي :

* أن أغلب الكلمات ـ في المقطع الأول ـ مكتوبة بخط يحتل فضاء طويلاً ، ويمكن أن يمثل لها بـ « العتمة » ، « الشبابيك » ، « القبور » ، « يا عمة » . وهذا الفضاء الجزئي تضام مع فضاءات أخرى فقدم لنا فسحة توحي باستطالة الجو الجنائزي وتثاقله الرتيب ، ثم تناقصت في الأخير وتضاءلت محاكية انقطاع نفس الشاعر وحشرجته فصمته .

* يمكن أن يقال الشيء نفسه في المقطع الثاني ، فقد كتبت بعض كلماته بطول لافت للانتباه مثل « خناجر الثعبان » ، « الأجدب » ، « أين آتيك » مما يوحي بالعجرفة والافتخار والشوق بهذا الطول ، وجاءت بعض الأسطر قصيرة مما يرمز إلى الدمامة والعجز .

* وأما ما يمتاز به المقطع الثالث فهو هذا التدوير المعبر عن الانكسار والتراجع ، وعن الحماس وخُبُوه الأمل واليأس، كما يمتاز باقتصار بعض أسطره على تفعِلة واحدة مثل « وأي رجاء ؟ »، فهذا القصر الفضائي هو أيقون على مقداره الذي يكاد يكون لا رجاء ، ومثل « في عيني » التي هي حصر للمجال وتخصيص له في شخص معين ـ شخص الشاعر وفي جارحة من جسمه بالضبط . ثم تأتي ثلاثة أسطر تحاكي ثلاثة قبور مدفوناً بعضها إلى جوار بعض ، فمد وجزر ومحاولة امتداد فانكماش ، وهول المأساة الذي تبعه اضمحلال أو ما يشبهه .

نستخلص من هذه المحاولة الاستنطاقية للفضاء المكتوب أن هناك بنيتين أساسيتين تتحكمان فيه : بنية الهول التي نجدها في الجو الجنائزي الكئيب ، والعجرفة والافتخار والحماس ، وبنية العجز اليائسة المنتظرة (أو المنهارة) .

2 ـ الفضاء الأبيض :

ومعنى هذا ، أننا منحنا للفضاء الأسود دلالة طردية ، بمعنى أنه كلما استطال كان أيقوناً على امتداد دلالته ، وكلما تضاءل كان أيقوناً على دلالة ضئيلة ، وفي مقابل هذا ، فإن له دلالة عكسية بالنسبة للفضاء الأبيض أي كلما كثر السواد نقص البياض وكلما تضاءل السواد نما البياض ، وهذا أمر منطقي بل بديهي ، فلو لم تكن كتابة لما وجدت القصيدة ولما رأينا الا صفحة بيضاء نقية عديمة الدلالة أو على الأكثر لها درجة الصفر منها . وبهذا ندرك صحة الوجهة التي تبنيناها أي إعطاء البياض دلالة عدمية والسواد دلالة وجودية في حدود ما سمحت لنا به القصيدة المحللة ، فالشاعر استثمر الفضاء بمقدار ما رآه مناسباً للتعبير عن تجربته وتبليغ رسالته وتحقيق مقصديته .

خـاتمــــة :

سلكنا في هذه المحاولة ثلاث مراحل متكاملة ومتدرجة :

أولاها : تقديم بعض المبادىء الكلية التي تكون وراء إنتاج أي خطاب مهما كان نوعه ، منها ما هو فيزيولوجي ونفسي واجتماعي ، ومنها ما هو تجليات لها ، وحاصل عنها ؛ فالإنسان مزود بهذه القدرات لإنتاج أنواع جديدة من السلوك أو إعادة انتاجها في تسلسل لا نهائي انطلاقاً من نموذج أو نماذج محدودة العدد في زمان ـ فضاء معين لأداء رسالة منسجمة ذات معنى ودلالة . وبهذا المفهوم نتجاوز الانغلاق البنيوي ونربط النص بخلفياته المتعددة. على أن هذا الانفتاح يجب أن يتم عَبْر النص وبه في حدود الامكانيات التي يتيحها لا أن يتخذ تعلة لاستعراض ما يعرفه المحلل من معلومات تشريحية واجتماعية ونفسية . . .

ثانيتها : فرز خصائص الخطاب الشعري من غيرها ابعاداً لبعض الدراسات التي تحاول أن تطبق ـ حرفياً ـ نتائج الدراسات اللسانية في اللغة العادية على الخطاب الشعري ، وتقسيم الشعر إلى راقٍ تتناغم جميع عناصره في كلية منسجمة لا يفضل فيها أحد العناصر على غيره ، وشعرٍ عاديٍ يظهر فيه أحد العناصر على ما سواه. وليس معنى هذا أننا نأخذ بالقسمة الكبرى ، ولكننا نسلم بالتفاعل بين الراقي والعادي ، وبين الكثرة ، والقلة .

ثالثتها : استغلال مفاهيم محلية ، ووضع قواعد تأويلية لفك مستغلقات النص الشعري ، إذ أنه لا يقدم نفسه شفافاً بل يوهم القارىء ويخدعه حتى يتيه في سراديبه وشبابيك متاهاته فلا يستطيع فك نفسه من الورطة إلا بالقفز على ما لا يفهمه ، وإلا بالقصد إلى ما معناه واضحاً ، مما ينتج قراءة انتقائية وانطباعية .

إن هذه المراحل الثلاث تضافرت على صياغة تحليلنا ، ولكنه ليس إلا أولياً لم يهدف إلا إلى تقديم نموذج قابل للاختبار بنصوص أخرى للشاعر نفسه أو لشعراء آخرين ، ولذلك ، فإننا لم نستقص القول في الرمزية الصوتية ، ولم نبين الكيفية التي تحلل بها الاستعارة ، ولم نوضح القول في استخلاص المتقابلات المتضادة والمتناقضة والمتداخلة ،وإذا الأمر سهل على القارىء لمعالجة الرمزية الصوتية فإنه يحتاج إلى إيضاح في العنصرين الآخرين ، ولذلك نضرب مثلاً لكل منهما :

1 ـ « تدفنين الريح » :

تدفن : [+ فعل مضارع] ، [+ محمول إلى حي] ، [+ قابل لأن يموت] ، [+

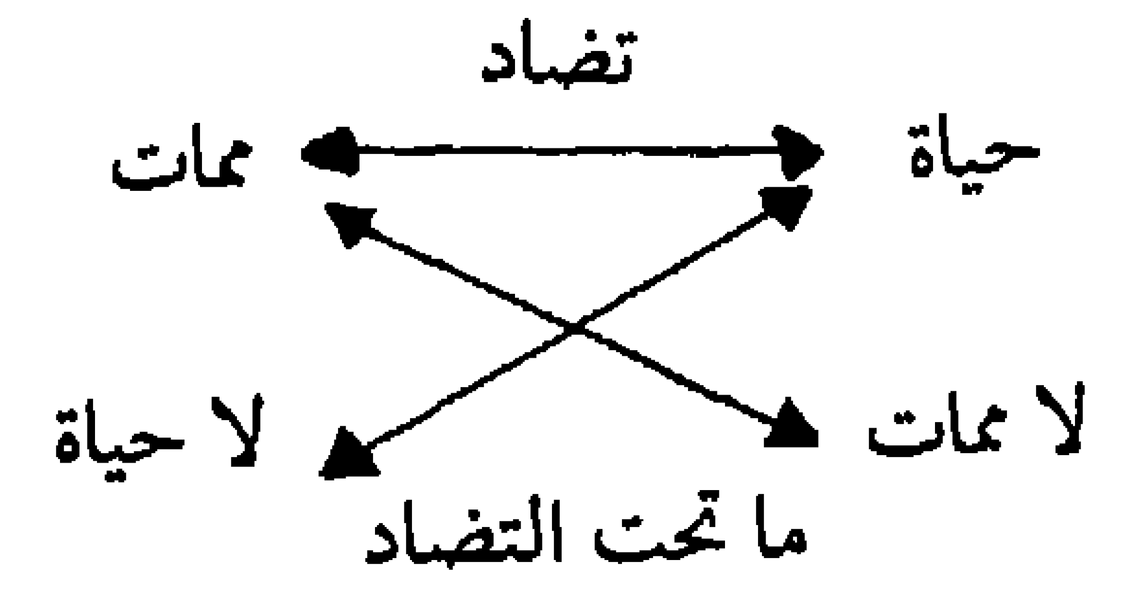
قابل ليوضع جسمه في الأرض] .

الريح : [+ نسيم الهواء] ، [− حي] ، [+ مقومات أخرى يدركها الفيزيائي] .

وواضح من هذا ، أن ليس هناك مقومات ملاصقة تجمع بين الموضوع والمضمون ، وإنما هناك تداعيات ثقافية تتنوع بحسب تجربة كل متلق ، كأن يوحي لنا التركيب بـ :الريح ← الثورة ← الانسان فيكون هناك كناية (مؤشر كنائي) ، وقد يرمز إلى غيرها بشيءٍ آخر .

2 ـ « والردى فيك » :

فهذا التعبير يمكن استثماره كما يلي :



فمحور « ما تحت التضاد » هو الذي يمثل ما يعنيه الشاعر : الاحتضار .

إن هاجسنا التركيبي هو الـذي جعلنا نتجنب القـراءة المتعددة الخـطية ، والخـوض في الاجراءات الاستعارية ، واستثمار التقابلات المعنوية إلى أبعد مدى ، ونشير عابرين إلى ما فيه نظريات متعددة ، ونقدم النتائج دون التمهيد لها بالمقدمات ، والمفاهيم بغير تبيين استعمـالها الماصدقي أو المفهومي ، وشفيعنا في هذا التقصير هو الأدبيات الموجودة ، والثقة في متكلم اللغة بالنشأة . . .

ملاحظـة :

يجد القارىء ذكراً للمراجع ، وتفصيلاً للتقنيات المشار إليها ، وتطبيقاً للقراءة المتعددة في كتابنا « تحليل الخطاب الشعري » ، ومع ذلك فإننا نذكر له المراجع الآتية :

1 - J. Searle, Intentionality, Cambridge, 1983.

2 - Howard Giles and Robert ST Clair, Langauge and Social Psychology, Oxford, 1979.

3 - G. Brown and G. Yule, (1983).

وقد تصرّفنا في معنى المفهومين هنا كما لا يخفى .

ملحـــق

القــــدس

رأيتكِ تَدْفنينَ الريحَ
تَحْتَ عرائشِ العتمهْ
وتلتحفين صَمتكِ خَلْفَ أعمدةِ الشبابيكِ
تَصُبِّينَ القبورَ وتشربينَ فتظْمأُ الأحقابْ
ويظْمأُ كلُّ ما عتَّقتُ مِنْ سحبٍ ومن أكوابْ
ظمِئنا والرَّدى فيكِ
فأين نموتُ يا عمَّهْ

* * *

تحُزُّ خناجرُ الثُّعبان ضوء عُيُونكِ الأَشيَبْ
وتشمخُ في شقوقِ التِّيه تشمخُ لسعةُ العقربْ
وَأكْبَرُ منَ سمائي من صفاءِ الحقدِ في عينيَّ أكبرُ وجهكِ الأجدبْ
أَيَا باباً إلى الله ارْتمى
مِنْ أين آتيكِ
وأنت الموتُ أنتِ الموتُ أنت المُبتغى الأصعبْ

* * *

مددتُ إليكِ فجراً من حنيني للرَّدى
وغَمستُ محراثِي ببطنِ الحوت
فأيَّةُعَشْوَةٍ نبضَتْ بقلبي في دَمِ الصَّحراءْ
وأيُّ رجاءْ
تفسَّخَ في نقاءِ المَوْتِ
أشعَلَ ظُلمة التَّابوتِ في عَيْني

فجئْتُ إليكِ مدفوناً
أنوءُ بضحكةِ السلطان
وبُؤْسِ الفجرِ في وِهْرانْ
وصَمْتِ الرَّبِّ أبحرَ في خرائبِ مكّة أو طورِ سينينا

* * *

وتلْتفتينَ لا يبقَى مَعَ الدَّمِ غيرُ فجرٍ في نواصيكِ
وغيرُ نعامةٍ رَبْداءْ
وليلٍ من صريفِ الموتِ قَصَّ جوانِحَ الخيمَهْ
تَصُبِّينَ القبورَ وتشربينَ فتظمأُ الصَّحراءْ
ظَمِئْنا والرّدى فيكِ
فأيْنَ نموتُ يا عمَّهْ

الفصل الثاني

الحوارية في النص الشعري

الإشكال :

قد يهجس في ذهن المتلقي العربي الأسئلة التالية :

لماذا ابتليت ثقافتنا العربية بالاجترار إذ نجد فيها نصوصاً « ابداعية » قليلة وإعادة انتاج كثيرة ؟ لماذا لا نكتفي بدراسة عيون الآثار ؟ لماذا لا نهمل غثها الذي ليس في دراسته من مزية سوى مكابدة العناء وضياع الوقت الثمين ؟ لماذا لا نقصر عنايتنا على البحتري والمتنبي . . . وأدونيس . . . ونضرب عرض الحائط بسواهم ؟ لماذا لا نوجد ـ إذا رفض الانتقاء ـ منهاجية تسهل دراسة هذا النوع من « الاجترار » بإرجاعه إلى ثنائيات يسيرة الحفظ والتطبيق ؟ .

قد يسترسل المتلقي في هذا النوع من التساؤلات معتمداً على دراسات استشراقية وعربية[1] وسمت الثقافة العربية بأوصاف الجمود والسكونية . . . ودعت إلى الاحتفال بالقمم الشوامخ دون سواهم . كما أنه يجد مستنده في بعض الدراسات التي اختزلت حوار النصوص إلى السخرية ، وإن تجودت أضافت ـ على مضض ـ الجدية[2] .

---

(1) نشير بهذا الصدد إلى آراء كثير من المستشرقين ، وخصوصاً نظرية « فون كرينباوم » ، ورأي الأستاذ العروي في كتابه ، العرب والفكر التاريخي ، ومع ذلك فنحن لا ندافع عن الاجترار ، وإنما نطلب ايجاد منهاجية ملائمة لدراسته .

(2) نشير بهذا إلى كثير من التّنظيرات الفرنسية المتعلقة بالتناص ، وخصوصاً ما يرجع إلى فترة الستينات أثناء المد الاحتجاجي والاعتراضي .

إن المحاولة التالية لا تزعم أنها ستحل الإشكال بصفة جذرية ونهائية ، وإنما كل ما ستفعله أن تمنح وظائف لكل إنتاج و/أو إعادة إنتاج بمراعاتها للبنية وقصدية المنتج ودور المخاطب وظروف امكانية الانتاج على أساس تعقيد ما جعل مختزلاً . وستحتوي على : « الحوار الخارجي » الذي يعرض فيه جهاز المفاهيم الموظف للكشف عن أنواع الآليات التي تحكمه ، سواء أتعلّقَ الأمرُ بالنصوص المركزية أم بالنصوص الفرعية ، وعلى : « الحوار الداخلي » الذي يحاول أن يبين كيفية اشتغال النص بناء على شبكة من العلاقات تضمن اتساقه وانسجامه .

I ـ الحوار الخارجي :

نَقْصِدُ بِحوارِ النص مع النصوص الخارجية التي ليست من صميمه ـ ما يقع بينه وبينها من علاقات تعضيد أو علاقات تنافر ، وهذا ما ركّز عليه جل الباحثين فدعوا العلاقات التعضيدية المحاكاة الجدية ، وأسموا العلاقات التنافرية المحاكاة الساخرة ، ولكننا نحن لن نأخذ بهذه الثنائية إلا موقتاً ، ولذلك فإننا سنتجاوزها إلى ما هو أهم وهو الكشف عن النظام الذي يحكم حوار النصوص ، وبخاصة النصوص الشعرية ، كما أننا سنحاول التفرقة بين النص المركزي الذي يتخذه الشاعر هدفاً لإقامة حوار معه ، وبين النصوص الفرعية المساعدة الاتيةِ من منابع متعددة ، وبين الحوار مع بعض الكلمات « الاصطلاحية » ذات الحمولة الايحائية التي يستثمرها الشاعر لَمْنحِ نصه قِيَماً احتجاجِيَّةً وجمالية على أساس مقصديته ودور المتلقي .

1 ـ ما بعد الثنائيـة :

إن الثنائية ـ إذن ـ ليست إلا تقسيماً كبيراً ينبغي أن يتجاوز إلى إدراك شبكة العلاقات المتطابقة والمتباينة والمتقاطعة ، ولتبيان هذا التجاوز فإننا سنعرض مفاهيمنا الاجرائية التي سننجز على ضوئها عملنا :

أ ـ المقصديـة :

نعني بها ما يكون محركاً للمنتج من معتقدات وظنون وأوهام[3] لانجاز كلامه ، سواء أكانت مشعوراً بها أم غير مشعور ، وهي نفسها تكون لدى المتلقي في حالة وجود عقدة بينه وبين المنتج ، وقد تكون مخالفة جزئياً أو كلياً في حالة عدم العقدة ، فالمقصدية ، إذن ، ليست

(3) تحتل نظرية المقصدية مكاناً بارزاً في التيارات التداولية مما تسبب في نقاش خصب حولها .

واحدة ، لأن هناك قطبين أساسيين يشاركان في صنع القرار اللغوي وهما المنتج والمتلقي في زمان ومكان معينين . لذلك يتعين تفريع هذا المفهوم إلى عدة أنواع :

* مقصدية المنتج والمتلقي الحاضرين اللذين بينهما ميثاق متراضى عَنْهُ يحتوي على حقوق وواجبات .

* مقصدية المنتج المضمرة التي يحاول المتلقي المعاصر له وسع جهده استكشافها بناء على قرائن خارجية ونصية ، وقد يوفق بعض التوفيق ، وقد يخيب مسعاه ، ولكن تأويله ـ في نهاية المطاف ـ هو نتيجة لمقصديته .

* مقصدية المنتج المعلنة التي يحاول المتلقي الذي ليس بمعاصر أن يفهمها ويتأولها .

* مقصدية المنتج المضمرة التي يسعى المتلقي ـ الذي ليس بمعاصر له ـ أن يستخرج حساب تأويلها ، ولكن مهمته ـ حينئذٍ ـ عسيرة جداً .

لهذا كله ، فإنه يجب أن يؤخذ بنظرية المقصدية بالمعنى الضعيف[4] ، إذ لا تحصل المطابقة بين مقصديتي المنتج والمتلقي إلا في أذهان المنظرين الميكانكيين الذين يقفزون على دور المتلقي في العملية الخطابية ويغضون الطرف عن شروط التواصل الأُخْرَى .

ب ـ المماثلة والمشابهة :

إن منطوق ما تقدم ومفهومه يلحان على أن عملية التواصل اللغوي **تفاعلية آنية** ، فإذا كان المتلقي ينفذ ـ في بعض الأحيان ـ ما يصدره إليه المنتج كالحال في تنفيذ المهام العسكرية والأوامر الطبية . . . فإنه يكون أحياناً كثيرة في موقف الند للند مع المنتج ، أو ينزله المنتج هذه المنزلة ، ومن ثمة تنعكس المواجهة الحبية أو العدوانية على سطح الخطاب وعمقه . ولكن الذي يهمنا ـ الآن ـ هو التفاعل اللامباشر .

إذا صح هذا ، أو سلم به ، فإننا سنوضح مفهوماً ترتكز عليه عملية حوار النصوص أي وضع اللامواجهة ، وهو : المماثلة والمشابهة ، ومعناه أن نصاً ما إذا كانت خصائصه الذاتية هي : (+ أ، + ب ، + ج ، + د . . .) ونصاً آخر إذا كانت خصائصه الذاتية هي : (+ أ ، + ج ، + د . . .) فإن العلاقة بينهما هي علاقة مماثلة إذ لا تفرق بينهما إلا خاصة ذاتية واحدة هي : (+ ب) ، أما إذا كانت الخصائص الذاتية لنص ما (+ أ ، + ب ، + ج . . .) وكانت الخصائص الذاتية للآخر هي (+ ب ، + ص ، + ك . . .) فإن العلاقة بينهما هي المشابهة ، إذ ليست هناك إلا خاصة ذاتية متراكمة واحدة .

(4) يفرق واضعو النظريات : بين النظرية القوية ، والنظرية الضعيفة أي بين ما اشترط فيها قيود ضيقة وصارمة وبين ما روعي فيها نوع من المرونة .

بناء على هذا التحليل الوضعي القائم على المماثلة والمشابهة ، فإن الباحث يحكم على درجة العلاقة بين النصوص . وهذا شيء صحيح بالنسبة لمتبني نظرية « التحليل بالمقومات المنتهية » ، والآخذ بمفهوم أيقونية[5] النص الشعري . وإذا قبلنا مفهوم الأيْقُون بل وذهبنا إلى أبعد من ذلك باعتبارنا إياه « أنطولوجيا »[6] في العملية الشعرية ، فإن التحليل بالمقومات[7] ليس كذلك ، وإنما سنعتبره قاصراً عن الوفاء بالغرض في ميدان التحليل اللغوي والأدبي ، فالكلمات ليست لها جواهر ذات خصائص ذاتية غير مفارقة وغير قابلة للزيادة والنقصان ، وإنما الكلمة ـ والتعبير أيضاً ـ يكتسبان معانيهما باستعمالهما . وعليه ، فإن الخصائص الذاتية والأعراض غير قَارَّةٍ وإنما هي مؤهلة لأن يضاف إليها أو يُحْذَفَ مِنْهَا بِنَاءً على مقصدية المتكلم وتأثير المتلقي فيه .

في ضوء هذه المرونة ، ينبغي أن يغنى التحليل بالمقومات بأن تضاف إليه خصائص ـ أعراض وظيفية ومفاهيم مجردة للصعود من الجزء إلى الكل ، ومن المعنى الحرفي للكلمة إلى ايحاءاتها الوظيفية والمجردة ، ومن مراعاة خصائص الجنس الأدبي إلى وظيفة الأدب ، فإلى علاقته بأنواع الخطاب الأخرى أي الرؤية للعالم .

ج ـ نوع العلاقة :

وقبل أن نوغل في توضيح هذا الذي المحنا إليه نتعرض إلى مكون ثالث من أدواتنا الاجرائية ، وهو نوع العلاقة ونقصد به الغاية أو الهدف من حوار منتج للخطاب مع منتج آخر . وكما تناولنا المفهومين السابقين في منظور شبكة من العلاقات ، فإننا سنسعى ـ هنا ـ في النهج نفسه ؛ فالعلاقة الأولى ، أي التعضيدية ، مفاهيمها الفرعية هي :

* التبجيل .
* الاحترام .
* الوقار .

والعلاقة الثانية أي التنافرية مفاهيمها الفرعية[8] هي :

---

(5) يراجع لضبط هذا المفهوم أعمال « پرس » وما كتب حولها من شروح ، وخصوصاً في مجلة « سميوتيكا » SEMIOTICA . ومكونا هذا المفهوم المماثلة والمشابهة .

(6) هذه وجهة نظر « رفّاطير » أيضاً .

(7) أنظر تطبيقات هذا التحليل لدى « كريماص » و « بوتي » وانظر تفصيله في كتاب : محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، 1985 ، الفصل الخامس .

(8) Koenraad Kuiper, «the Nature of Satire» in poetics 13 (1984)

* الاستهزاء .
* السخرية .
* الدعابة .

على أننا نحرص على أن ننبه القارىء إلى أننا استندنا ـ في هذا التصنيف ـ على سليقتنا اللغوية ؛ فالدور الذي يهيمن على المعاجم العربيـة لم يساعـدنا عـلى ضبط الفروق بـين هذه الكلمات ، ولذلك ، فإن للقارىء حَقّاً في أن يخالف في الترتيب وفي توزيع الأدوار ، ولكنـه ـ فيما يظهر لنا ـ أن لب التناول يبقى سلبياً .

د ـ التركيـــب :

إذا تراضينا عَنْ هذا ، فليسمح لنـا القارىء بـأن نركب بـين هذه المفـاهيم الثلاثـة : المقصدية ، والمماثلة والمشابهة ، والعلاقة لنرى الإمكانيات التي تفتح . وَلْنَبْدَأْ بالتعضيد :

1 ـ + مقصدية التثبيت + المماثلة والمشابهة + التبجيل = الامداح النبوية ؛ فشاعر المديح النبوي يريد أن يُثَبِّتْ محبة الرسول في المتلقي ، وهو ينسج على منوال من سبقه ، وهو يُبَجِّلُ مَنْ يَمْدَحُهُ .

2 ـ − مقصـديـة التثبيت + المـماثلة والمشـابهـة + الاحتـرام = حـوار شعـراء البعث ؛ فمقصدية شوقي ـ مثلاً ـ ليست مقصدية البحتري ، ولكن شوقي يحاكي البحتري ويحترمه .

3 ـ − مقصدية التثبيت + المماثلة والمشابهة − الوقار = ليس هناك مقصـدية للشـاعر في تثبيت فكرة ، ولا توقير لمن يتحاور معه ، ولكنه يسير في دربه ، وأوضح مثل لهذا هو محـاكاة شاعرٍ يشرب الخمر لشاعر خمري قولاً ، وفعلاً ، أو محاكاة شاعر غير متصوف لشاعر متصوف قولاً وفعلاً .

4 ـ + مقصدية التثبيت + المماثلة والمشابهة − الاحترام = وأجلى مثل لهذا النوع الأراجيز التَّعْلِيميَّة ، إذ هدفها تثبيت معلومات بنظمها وتكثيفها على مِثال نماذج سابقة .

5 ـ + مقصـدية التثبيت − المـماثلة والمشابهـة + التبجيل = ونمـوذج هذا النـوع القـرآن والكتب المقدسة الأُخرى .

6 ـ − مقصـدية التثبيت − المـماثلة والمشابهـة + الوقـار = النظر إلى أحـاديث التـرغيب والترهيب .

7 ـ + مقصدية التثبيت − المماثلة والمشابهـة − الوقـار = وقد يصح أن يضرب لـه مثلاً

بأنواع الايديولوجيات في بداية أمرها .

إن هذه الإمكانات نفسها هي ما نجدها في التنافر أي الحوار الساخر ، وهي :

1 ـ + مقصدية تغيير الرأي + المماثلة والمشابهة + الاستهزاء = يتجلى هذا النوع في نقائض الشعر العربي ، وفي مدح الشيء وذمه من قبل شاعر أو كاتب واحد . (الحريري مثلاً) .

2 ـ – مقصدية تغيير الرأي + المماثلة والمشابهة + السخرية = حوار شاعر معروف بحداثته لشكل قصيدة عمودية (أدونيس ينظم على نمط طرفة بن العبد مثلاً) .

3 ـ – مقصدية تُغيير الرأي + المماثلة والمشابهة – الدعابة = الحوار المشوب الذي هو وجه ثان لرقم (3) السابق ؛ إذ ليس هناك حوار لغوي محض ، ومن ثمة يمكن أن يدعى هذا النموذج بالحوار الإضافي .

4 ـ + مقصدية تغيير الرأي + المُمَاثلة والمشابهة – السخرية = وهي نفس الحالة رقم (4) ، والخلاف بينهما يَكْمُنُ في المقصدية ، فهناك مقصدية تثبيتية ، وهنا مقصدية تغييرية .

5 ـ + مقصدية تغيير الرأي – المماثلة والمشابهة + الاستهزاء = محاولة صياغة مذهب فكري جديد للقضاء على مذهب فكري آخر .

6 ـ – مقصدية التثبيت – المماثلة والمشابهة + الدعابة = التعميات والألغاز وما شاكلهما .

7 ـ + مقصدية التثبيت – المماثلة والمشابهة – الدعابة = علامات الطرق في بداية وضعها .

هـ ـ نقــاش :

تلك أهم الإمكانات التي يقدمها إلينا التركيب بين المفاهيم الثلاثة الأساسية وتفرعاتها ، ولاستخلاص بعض النتائج فإننا سنوازن بين النموذجين (نموذج الحوار الموقر ونموذج الحوار الساخر) . وستكون نقطة الإنطلاق هي المقابلة بين حَدّي وظيفتهما :

* التبجيل ـ الاستهزاء .
* الاحترام ـ السخرية .
* الوقار ـ الدعابة .

ينتج عن هذا ست علاقات هي :

* الإثبات ونقيضه .
* النفي ونقيضه .
* التَضَمُّنُ في الإثبات .
* التَضَمُّنُ في النفي .
* التضاد .
* شبه التضاد .

بيد أننا حينما نعرض هذه العلاقات المنطقية على واقع اللغة الطبيعية ـ وخصوصاً الشعر ـ فإننا نجد التناقض المنطقي منعدماً في الحوار الشعري ، بمعنى وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان ، فهذه الوحدة لا تتوافر ـ جميعا ـ في أي حوار شعري ؛ فإذا ما وجدت وحدة الموضوع فإن عنصري الزمان والمكان يفتقدان ، إذْ لا بُدَّ من تراخ بين النص الأول ومحاوره . لهذا كله ، إذا وصف القدماء قصائد بالنقائض فإنه ينبغي أن تؤخذ تِلْكَ التسمية بمعناها اللغوي الصرف . ومعنى هذا أنه يبقى لنا حدان تابعان مخصصان (التضمُّنُ في الإثبات والتَضَمُّنُ في النفي) وحدا التضاد وشبه التضاد ؛ فالتضاد يحتوي على رقم (1) ، (2) ؛ ويحتوي شبه التضاد على رقم (3) ، (4) . يخرج من اللعبة إذن ، رقم (5) ، (6) ، (7) .

إذا نظرنا أمامنا في المخطط ، فإننا نرى ما أبعد هو ما خلا من علامة (+ المماثلة والمشابهة) ، وهذه ملاحظة سليمة إذا نظر إلى الأمْر من الوجهة الوضعية ، إذ لا يمكن أن يقال : إن بين نصين حواراً جدياً أو ساخراً إلا إذا انصب الحوار على موضوع واحد ؛ ومع ذلك ، فإنه ينبغي لنا أن نلتمس علاقة ما ـ وظيفية ـ بين نص غزلي وآخر رثائي ، وإن كان كل منهما ينتمي إلى مجموعة معينة من حيث المضمون .

على أن القارىء من حقه أن يتساءل عن مغزى كتابة ما لا يحتوي على عنصر (+ المماثلة والمشابهة) . والجواب أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار الخصائص الوظيفية والتجريدية لتجاوز نظرية المجموعات المنتهية ، فقد تكون وظيفتا الغزل والرثاء واحدة هادفة إلى تطييبِ النفس وَجَبْرِ الخواطر ، رغم اختلافهما في الموضوع . وعلى هذا ، فقد يلتقي النص الفلسفي والمقطوعة الشعرية والآثار الشعبية في مجمع واحد ، وهو الرؤية للعالم من قبل فئة معينة في زمان ومكان معينين . إذا سلمنا بهذا ، فلنتقبل ما توافرت فيه المماثلة والمشابهة كشيء لا نقاش في علاقته مع محاورة (بفتح الواو) حرصاً على مفهوم الأيْقُون . ولنعمل الذهن فيما خلا منهما باحثين له عن الوظائف المشتركة ، والجوامع المجردة حتى نبني موضوعاً تحقق فيه المماثلة والمشابهة .

2 - المماثلة والمشابهة وعملية التحويل :

النص المركـزي :

هذا هو مطمح كل باحث يريد أن يتجاوز التَّجْزِيءَ إلى التجريد ، والجنس الأدبي إلى ضبط شبكة العلاقات بين مختلف أنواع الخطاب ، ولكن هـذا المطمـح ينبغي أن يكون آخر المطاف حتى لا يقفر على خصائص النـوع الأدبي بـدعـوى مفهـوم « الكتـابـة » ، وتفكيـك « اللوغوس » لذلك نحن ملزمون بتقديم نموذج لحوار بين نصين : أحدهما لأبي نواس[9] ، وثانيهما لابن الخطيب[10] ما العملية التي قام بها ابن الخطيب ليحاور نص أبي نواس ؟ قبل الإجابة عن السؤال ننطلق من مسلمة تقول : إن **عملية الحوار هي عملية تحويل** . لتوضيح هذا ، فإننا ندعي أن هناك علاقة رباعية :

* الشاعر (أ) أبو نواس ، والقصيدة (أ) مقطوعة أبي نواس .

* الشـاعـر (ب) ابن الخطيب ، والقصيـدة (ب) مقـطوعـة ابن الخـطيب عـلاقـة المقطوعة (ب) بالمقطوعة (أ) هي المماثلة والمشابهة اللتان تنعكسان في الشكل والمضمون ، وقد قام ابن الخطيب بعملية تحويل إثباتي مشوب ببعض عناصر النفي ، وتوضيح هذا :

أبو نواس :	**ابن الخطيب :**
* تحديد المكان : السوس(أ)	* تحديد المكان (غير الشام)(أ)
* عدم احترام الدين (ب)	* عدم احترام الدين (ب)

(9) انظر المقطوعة في ديوان أبي نواس ص 203 بيروت 473 - 459 .

(10) نص المقطوعة : وقلت في أسلوب الحسن بن هانىء :

وَدَيْـرٍ أَنَـخْنَـا فـي قَـرَارَتِـهِ الْعِيسَـا ... بـحـلَّةِ رُهْـبـانٍ إلا هُهُمْ عـيـسَـى
عُكُـوفٌ عَلَى التِّمْثَـالِ يَسْتَلِمُونَهُ ... وَيُغْنـونَ بـالإنْجِيـلِ حِفْظاً وتـدرِيسَا
زَعَقْنَـا بِهِمْ بعـدَ العَشِيِّ فَهَبُّوا ... كـأَنَّا ذَعَـرْنا غَـابَـةً مِنْـهُ أو خِيسَـا
وَقُلْنـا : بَنُو سُبْـلٍ جَـوَانِـحُ للقِـرَى ... فَقَـالَ : زعيمُ القـومِ رَحْبـاً وتـأْنيسَـا
فَقُلْنـا : هَـوَاءُ الشَّـامِ غَـالَ نُفُـوسَنـا ... فَهَـلْ لَـكَ في شَيْءٍ يُنَفِّسُ تَنْفِيسَـا ؟
فَقَـالَ : أخمـرٌ؟ وَهْيَ شيءٌ مُحَـرَّمٌ ... عَلَيْكُم لَبِئْسَ المسلمـونَ ، إذَنْ، بِئسـا
فَـقُلْنـا دَعِ الانْـكَـارَ، إنَّـا عِـصَـابَـةٌ ... يُطيعُـونَ ـ فيمَـا تَشْتَهِي النفسُ ـ إبْلِيسَا
فَـقَـامَ يَجُـرُّ الـمِسْـحَ ثُـمَّ أتى بِـهَـا ... فَـأَبْصَـرْتُ كِيـوانـاً تَنَـاوَلَ بـرْجِيسَـا
وَصَـارفْتُـهُ فيـهـا لجَيْنـاً بِعَسْجَـدٍ ... فَنَـاوَلَنِي كَـأْسـاً وَنَـاوَلْتُـهُ كِيَسَـا
ولله مِـنْ عَـيْشٍ نَـعِـمْـنَـا بِـلَهْـوِهِ ... حَمِـدْنَا بِـهِ مِنّا مقيـلاً وَتَعْـرِيسَـا

الصبب والجهام ، ص 684 - 1973.649 .

* لون الخمرة	(ج)	* لون الخمرة	(ج)
* الرهبان	(د)	* الرهبان	(د)
* وظيفة الخمر	(هـ)	* وظيفة الخمر	(هـ)
* وصف الغلام	(و)		

مكونات نص أبي نواس ـ إذن ـ هي : (+ أ ، + ب ، + ج ، + د ، + هـ ، + و) . ومكونات نص ابن الخطيب هي : (+ أ ، + ب ، + ج ، + د ، + هـ) . فقد حذف ابن الخطيب بعض العناصر كما أن ترتيبها لم يكن واحداً ، فأبو نواس حدد المكان ، وهو السوس ، وابن الخطيب حدده في غير الشام وفي البيت الخامس ، وأشار أبو نواس إلى عدم احترام الدين وهو ما جاء في شطر البيت الثاني ، وفعل ابن الخطيب نفس الشيء ، ولكنه في البيت السابع ، ووصف أبو نواس الخمرة في البيت الثالث ، وكذلك فعل ابن الخطيب ، ولكن في البيت التاسع . . .

3 - بناء المماثلة والمشابهة :

النصوص الفرعيـة :

عملية الحوار ، إذن ، مع النص المركزي عملية تحويل يحكمها مبدأ المماثلة والمشابهة في الشكل والمضمون أو في أحدهما ، ولكننا غالباً ما لا نجد الأمور بهذا الوضوح ، إذ نجد نصاً يعقد حواراً مع نصوص أخرى متنوعة القائلين ومختلفة الأزمنة والأمكنة ؛ فبعض شعراء العصر الأموي والعباسي يتخذون حججهم ، لمقارعة خصومهم ، من القرآن والحديث وأقوال السلف وأشعارهم . . وقد يلجأ بعضهم ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى ما استجد لديه من ثقافات ومعارف . . . وقد يعمد بعض الشعراء المعاصرين إلى الاستعانة بأنواع من الثقافة الشعبية والعلامات السيميولوجية لتبليغ مقاصده ؛ فرصد المقصدية ، وحساب دور المخاطب ، وتوطينها ضمن زمان ومكان معينين عمليات ضرورية ينبغي أن تسبق كل عملية فهم وتأويل . ومع ذلك ، فلا بد من مراعاة العلاقة الجدلية بين النص المركزي والنصوص الفرعية . لذلك يصح القول: إن كل نص مركزي يحتوي ـ بالضرورة ـ على نصوص فرعية تختلف نسب وجودها . فما على المحلل ، إذن ، إلا أن يبين درجة حجيتها ووظائفها المختلفة والعلاقات فيما بينها داخل النسيج النصي .

على أننا سنقصر عنايتنا على ظاهرتين من هاته النصوص الفرعية تستحقان كل عناية واهتمام وهما : الإحالة والتورية اللتان سنبين آليات اشتغال كل منهما على حدة ثم الآليات الجامعة بينهما .

أ ـ الإحالـة :

إذا كان الحوار بشكله السابق يعطينا موضوعه ، فإن هذا النوع من الحوار يُبْنَى موضوعه من قبل المحلل . ذلك أن الشاعر لا يريد أن يفصل وإنما يحيل بتكثيف إلى قصة أو حدث مشهور أو قولة مأثورةٍ . . . وسنقدم ـ لتحليل الإحالة ـ المفاهيم الآتية : المؤشر والتلميح والتلويح والوظيفة ، وسيكون مجال تحرينا نصاً قديماً[11]) :

المؤشر	التلميح	التلويح	نوع العلاقة
أبو العباس	المبرد	اللحم المبرد	
سفيان	الثوري	لحم الثور	الدعابة
من شرح الكتاب	ابن خروف	لحم الخروف	
أبو عبدالله الفاسي	اشتهار فاس بنوع الأكل	الخليع	

إن العلاقة بين هذه الحدود متلازمة ، فلكي نصل إلى العلاقة ، فإنه لا بد من ذكر عنصر ضروري يؤشر عليها ، ويمكن أن يدعى هذا المؤشر بالعرض المشهور ، أو بـ « الخصائص المُتَنَهِيَة في الشهرة أو في القبح » كما يسميه بعض البلاغيين العرب ، أو بـ« الوصف المحدد » كما يلقبه اللسانيون والمناطقة . ومعنى هذا أنه لإدراك مغزى الإحالة يجب أن يتوفر المتلقي على معرفة خلفية سابقة ، وعلى سياق داخلي يجعل التوجيه ممكناً خاضعاً لشرط « التأويل المحلي »[12] وعليه فإن المعرفة الخلفية السالفة والمبدأ المذكور شرطان ضروريان لضبط صحة التأويل وانسجامه .

---

(11) نص المقطوعة : وكتبت لشيخ الكتاب في بعض الأسفار من بلاد العدو في شأن اللحم المعروف بالمبرد أداعبه قصد الاكثار من التورية :

يَـا وَاحِـدَ الـعَـلْيَـا بِـلاَ إِلْـبَـاسِ ... ابْعَـثْ بِسَهْـمٍ مِنْ أَبِي الـعَـبَّـاسِ

وَاعْـلَمْ بِـأَنِّـي لاَ أُقَـلِّدُ مَـذْهَـبِـي ... سُفْيَـانَ يَـوْمـاً خِيفَـةَ الـوَسْـوَاسِ

وَلِجَـدٍّ مَنْ شَـرَحَ الـكِتَـابَ تَـحَيُّـزِي ... هَـذَا ، إِذَا آخْتَلَفَ انتمـاء النَّـاسِ

فَـابْعَـث بِـهِ طَـيّـاً بِـكُـلِّ خَـفِيَّـةٍ ... كَـالطَّيْفِ فِي جُنْحِ الـظَّلاَمِ الغَـاسِي

كَيْ لا يُـنَـازِعَ فِيـهِ غَـيْـرَ مُـقَـصِّـرٍ ... جَـارِي أَبـو عبـد الله الفـاسي .. الـخ

الصيب والجهام ، 651 .

(12) أنظر توضيح هذا المفهوم في الكتاب التالي :

Gillian Brawn and george Yule (1983) esp.

The principle of (Local interpretation) and of (analogy) pp 58 - 68.

إن أي قارىء ـ على سبيل الفرض ـ يمكن أن يحاج بأن أبا العباس المذكور هو أبو العباس السبتي ، وأن سفيان هو سفيان بن عيينة . . . ولكن تـوطئة الشـاعر بـذكره اللحم المعـروف بـ « المبـرد » توجهنـا في طريق التـأويل السليم الـذي سيكون محـوره الذي يـرتكز عليـه هـو « الأكْل » ، وحينئذ ، فإنه يتعين : سفيان الثوري ، وابن خروف ، والمبرد . . . وعلى هذا ، فإن أسماء الأعلام والكنى والألقاب ـ هنا ـ ليست فارغة من المعنى ، وإنما لهـا معان مثلما هـو الشأن في أسماء الأجناس ، بل إن تلك أكثر خصباً وغنىً من هذه ، ولذلـك يتخذهـا الأدباء والشعراء موطناً لشحنها بمعانٍ ثانوية تهدف إلى المدح أو السخرية .

تؤدي بنا هذه النتيجة إلى إثارة السؤال التالي ، ما نوع الحوار في هـذا النص إذا كان ؟ للإجابة وإثبات أن هناك حواراً ، فإننا سنقرأ النص بتشاكلين[13] :

* تشاكل العلم ، وهو جدي مفرط في جديته ، ومؤشراته :
* أبو العباس المبرد عالم شهير .
* سفيان الثوري محدث وفقيه ، ورشح له الشاعر بذكر المذهب والتقليد .
* ابن خروف عالم شرح كتاب سيبويه ، يأخذ الشاعر بمذهبه النحوي إذا اختلف انتماء الناس إلى المدارس النحوية .
* أبو عبدالله الفاسي فقيه منازع .
* **تشاكل الأكْل** ، ومقصود به الدعابة ، ومؤشراته :
* المبرد : اللحم المبرد .
* سفيان الثوري : لحم الثور .
* ابن خروف : لحم الخروف .
* أبو عبدالله الفاسي : الخليع .

يتضح ، إذن ، أن هناك نقلاً للمعاني الجدية إلى معان فيها دعابة وتفكـه ، ولكن هذا النقل لم ينصب على موضوع واحد صريح ، وإنما بنينا موضوعه من أسماء أعلام مجمـوعة من آفاق مختلفة ؛ ومع ذلك ، فإن الفرق يكمن في درجة وضوح الحوار الصريـح ، وفي غموض هذا الحوار الملتوي ، وبناء على هذا نقول : الالتقاء في العلاقة ـ وهي دعابة هنا ـ يفرض وجود مماثلة ومشابهة إن لم تكن معطاة ، فإنها يجب أن تبنى .

---

(13) نقصد بالتشاكل مفهوم (Isotopie) كما نجدها عند «كريماص» أنظر معجم «كريماص» و«كورتيس» .

ب ـ التوريـــة :

إن هذا الميكانيزم الذي يحكم الإحالة هو الذي يحكم التورية مع الاختلاف التالي : أن « أبي العباس » لم يعن اللحم المبرد مباشرة ، وإنما لمح إليه بكيفية غير مباشرة ، أي انتقلنا من « أبي العبـاس » إلى « المبرد » فـإلى « اللحم المبـرد » ، في حـين أن الكلمـة (الاسم والفعـل والحرف) ـ في التورية ـ تتحمل القراءتين في الوقت نفسه ، ولنأخذ المثل التالي[14] :

وَأَحْـوَرَ وَسْنَـانِ الْجُفُـونِ مُـرَابطٍ   سَبَى حُسْنُـهُ لُـبَّ اللَّبِيبِ وَصَبْـرَهُ
حَمَى ثَغْـرَهُ عَنِّي بِمُـرْهَفِ جَفْنِـهِ   وَلاَ غَـرْوَ أَنْ يَحْمِي الْمُرَابِطُ ثَغْـرَهُ

فهاتان البيتان وما شابههما من أبيات يمكن أن يُقْرآ بتشاكلين :

أحدهما جدي . ثانيهما هزلي ، ووسيلة القراءة هي الكلمة « الرابطة » .

التشاكل الأول (الجهاد)	الرابط	التشاكل الثاني (الغزل)	العلاقة
المرابط في الثغر	المرابط	المرابط في المنزل	
سبي الأساري	سبي	سبى القلوب	
دافع عن الحدود	حمى ثغره	دافع عن فمه	الدعابة
حاد السيف	مرهف جفنه	حاد جفن العينين	

إن الشاعر ولد هَذَيْنِ التشاكلين عن طريق التلاعب بالكلمات ، إذ استعمل كثيراً منها بوصفه مشتركاً لفظياً . على أن قارئاً ما يمكن أن يعترض فيقول : لم جعلتم ـ في المثالين ـ تحويل الجد إلى الهزل ، ألا يكون العكس ؟ إن هذا الاعتراض وجيه ولكنه ليس فيها اخترناه ، ودليلنا على ذلك ومقياسنا هو الموازنة المادية بين التشاكلين بمعنى أن ما تفوق منهما مادياً هو المنقول إليه والمقصود ، للبرهنة على هذا نحتفظ بالمثل الذي سقناه لنظهر « التطابق » بينهما .

التشاكل الأول (الجهاد)	الرابط	التشاكل الثاني (الغزل)	العلاقة
المرابط	وأحور	المتغزل فيه	
المرابط	وسنان	المتغزل فيه	الدعابة
... الخ	... الخ	... الخ	

(14) أنظر البيتين في : نَثِيرُ الجمان ص : 234 (1967) .

ففي هذا المثل لا نعثر إلا على تغيير وحيد وهو كلمة « حسن » التي يمكن تصحيفها بحسام ، ولكن الالتجاء إلى هذه الوسيلة يضعف من القراءة المصحفة ويحيلها إلى الدرجة الثانية .

على أن بعض الأمثلة تقدم نفسها متفوقة وخصوصاً إذا كانت مصحوبة بديباجة ، ومثال هذا[15] :

بِنَفْسي حَبيبٌ في ثَنَايَاهُ بَارِقٌ ... وَلَكِنَّهَا لِلْوارِدِينَ عَذَابُ
إِذَا كَانَ لي مِنْهُ عَنِ الوَصْلِ حاجِزٌ ... فَدَمْعِي عَقِيقٌ في الجُفُونِ مُذاب

التشاكل الأول : الرحلة إلى المكان	الرابط	التشاكل الثاني الرحلة إلى الحبيب	العلاقة
العقبات	ثناياه	الثنايا من الأسنان	
اسم مكان	بارق	الفم البارق اللامع	
الآتين	الواردين	الشاربين	الدعابة
آلام (بالتصحيف)	عذاب	شراب لذيذ	
اسم مكان	حاجز	مانعٌ	
اسم مكان	عَقِيقٌ	خرزات حمراء يُتَجمَّل بِهَا	

البيتان يتحركان على صعيدي : الرحلة ، مطلق الرحلة ، والرحلة إلى الحبيب ، وما جمع بينهما هو الألفاظ الرابطة ، وما رجَّح القراءة الثانية وجعلها هي الناقلة للمعنى الجدي إلى معنى دعابي تأبى بعض الكلمات على القراءة المزدوجة ، وتصريح المؤلف بمقاصده .

إذا اتضح هذا ، فلنكف عن ضرب الأمثلة ، ففي الشعر القديم والحديث دلائل لا تحصى ، فقد تلاعب الشعراء على مختلف عصورهم ، بموروثاتهم الثقافية قصد الإيحاء بـ « الوقار » أو بالدعابة ، ولنضعَ اليد على آليات الإحالة والتورية ، فإنَّنا نُذَكِّرُ بثلاثة حدود : أولها دعوناه بالمؤشر في الإحالة ، وأسميناه بالجامع في التورية ، وثانيها : القراءة الأولى التي هي الأصل ، وثالثها : القراءة الثانية التي هي استدلالية استنباطية ، ولكنها ضرورية لإعطاء معنى ودلالة للقراءة الأولى . وعلى هذا ، فإن هناك علاقة تلازم بين القراءتين ، بين المعطي والمبني ، بين النَّصّ المركزي والنصوص الفرعية .

(15) أنظر البيتين في « الصيب والجهام » ص 300 .

II الحوار الداخلي :

على أن النماذج الثلاثة : النص المركزي ، والإحالة والتورية تؤول كُلُّها إلى حوارِ النص الجديد مع نصوص ليست من صميم بنيته ، وإنما هي أجنبيَّةٌ عليه ، ولكنه يستثمرها لصالحه ؛ ورغم أهمية هذا الذي تعرضنا إليه ، فإن هناك حواراً لا يقلّ عنه أهمية وهو ما يمكن أن ندعوه بالحوار الداخلي . ما هي الآلياتُ التي يَتَناسَلُ بها النَّص ويتوالد حتى يصير كياناً قائم الذات ؟ نقول بادىء ذي بدء : إنَّهُ من الصعب على باحث واحد أن ينجز تشخيصاً كافياً لتلك الآليات ، إذ إنها متعددة شائكة كتبت في كل واحدة منها دراسات لسانية ومنطقية بالغة التعقيد . لذلك فإننا لن نعدُو ـ في هذه المحاولة ـ رسم الخطوط العريضة بكيفية غير صورية .

أول ما تنطلق منه هو اقتراح التحديد التالي للنص الشعري :

« عبارة عن نواة لغوية ـ فكرية قلبت في صور مختلفة محكومة بعلاقات ضرورية ومتداعية » . إذا سلمنا بهذا المنطلق فإننا سنمضي قدماً في ايضاحِ عناصره :

1 ـ الكلمة ـ المحور

نقصد بها ما يبنى عليها النص ، سواء أكانت مذكورة أم مضمرة ، ونجد لها شواهد في التراث الإنساني بصفة عامة ، ومنه التراث العربي ، فقد تذكر الكلمة ـ المحور ، وقد تضمر لأغراض دينية أو سياسية أو دعابية هزلية . . . وقد لا نعدم أمثلة لكل نوع ؛ ولعل أشهرها ما نجده في أشعار التعمية والألغاز والتورية . . . ولكي نبقى ضمن النطاق الذي ألفناه فإننا سنتخذ موضع تحرياتنا نصَّ لسان الدين بن الخطيب .

إن الكلمة ـ المحور هي « اللحم المبرد » . وقد بنى عليها « أبي العباس » و « سفيان » ، و « جد من شرح الكتاب » ، و « أبو عبدالله الفاسي » أي : المبرد ، وسفيان الثوري ، وابن خروف ، أي : لحم المبرد ، ولحم الثور ، ولحم الخروف ، والخليع . كما أن كل جزئية من هذه الجزئيات أسس عليها بيت أو بيتان :

* « أبي العباس » : البيت الأول
* « سفيان » : البيت الثاني
* « جد من . . . » : البيت الثالث والرابع
* « الفاسي » : البيت الخامس

2 ـ الجملة ـ والمنطلق

على أن الكلمة ـ المحور إذا كانت مذكورة ، فقد نجدها في بِدَايةِ النص ، وقد تكون في وسطه ، وقد تكون في آخره ، كما أنَّهَا ما يدعى بالجُمْلَةِ ـ المنطلق في الأول . وسنختار مثلاً واحداً، وهو مطلع :

وَدَيْـرٍ أَنَخْنَـا في قَـرَارَتِـهِ ٱلْعِيسَـا بِحِـلَّةِ رُهْبَـــــانٍ . . .

فالكلمة ـ المحور التي يدور عليها النص هي الخمر ، والكلمة التي دونها محورية هي : « دير » . وأما الجملة المنطلق هنا ـ فهي : « ودير أنخنا » ، وعنصراها « ديـر » وما يستلزمـه حقله من تراكمات معجمية ، و « نا ـ الشاعر وصحبه » وما يقتضيه من تداعيات ، فقد توالد عن تلك الجملة تراكمات وتداعيات ، فـ « دير » استدعى الرهبان وعيسى والإنجيل والقراءة والحفظ والتمثال ، والسفر على الجمل ، وقصد الوصول إلى الدير يتضمن الحصول على الخمرة التي لها أوصاف محددة ؛ فالحوار بين طالبي الخمر والراهب ، فالاستجابة ، فالحصول على البغية . وقد تحكم في هذه العلاقات المعجمية مفهوما الترابط والتداعي ؛ فالترابط هو ما كانت العلاقة ضرورية أو شبه ضرورية بين الألفاظ ، وأما التداعي فما كانت فيه العلاقة واهية ؛ على أنه يصعب التفريق بين المفهومين في كثير من الأحيان[16] .

وإذ لا يسمح المجـال للبرهنة على المفهومين من خلال طول المقطوعة وعرضها ، فإننا سنكتفي بما يلي : القرارة والرهبان ترتبـطان دلالياً بـ « ديـر » إذ بينهما عـلاقة العـام بالخـاص والمحتوَى بالمحتوى . و « العيش » ترتبط دلالياً بـ « أنخنا » إذ لا تتعلق مـادة (ن،و،خ) بغير الجمـال ، كما أنـه يمكن أن يمثل للتـداعي بـ « حلة » ، إذ كان في إمكـان الشـاعـر أن يعبـر بـ « ثلة » . . على أن التداعي يكون ضئيل النسبة في الشعر القديم الروتيني الشعائري .

إن الجملة ـ المنطلق ـ تولدت عنها ثلاثة موضوعات أساسية هي : الرهبان وأوصافهم ، والخمر وأوصافهـا ، وشاربـوها وأوصـافهم ، عن طريق تنـاسل أو حـوار وحدتـين لغويتـين أساسيتين .

---

(16) لمن أراد المزيد الاطلاع على مثل هذا التحليل فلينظر الكتاب الوارد في رقم 2 :

M.A.K. Halliday and Ruquaiya Hasan, çohesion in English Longman, Fifth impression 1983.

- Robert de Beaugrande and Wolfgang Dressler, Intraduction To Text linguistics, longman, london and New York.

3 ـ الحوار

على أن هذا الحوار لا يقتصر على المعجم وحده ، ولكنه يظهر ـ أيضاً ـ بكيفية واضحة على المستوى التركيبي ـ الدلالي . وقد أنجزت دراسات تداولية وسردية ومنطقية[17] لتثبت أن كل خطاب مهما كان نوعه تتحكم فيه الحوارية وتسيره ، فالموضوعة الأساسية التي ينطلق منها النص تُنَمَّى بواسطته سواء أكان حواراً صريحاً أم ضمنياً مما يؤدي ـ بالضرورة ـ إلى علاقة ما بين الجمل أو القضايا فتتوالد أفعال كلامية متضامة ومتضامنة أو متضادة ومتنافرة ، ولكنها تؤدي ـ مهما كان نوعها ـ إلى الغرض المتوخّى مما يحيل النص إلى « حكاية » ذات بدايةٍ ووسط ونهاية .

بقطع النظر عن الخلفية الفلسفية لهاته الوجهة من الأبحاث التي تجعل النص محاكاة ايهامية للواقع المعيش الذي هو في صيرورة دائمة ، وبصرف النظر عما يمكن أن يثار حوله من نقاش ، فإن ما يهمنا نحن هو تشخيص آليات الحوار التي تحكم النص الذي اتخذناه موضوعاً لمقاربتنا ؛ على أن هذا يقتضي منا أن نَعْرِض إلى النقط التالية :

أ ـ مبادىء الحوار :

ونستهل بالتساؤل التالي : أيفيدنا في تبيان حوار الخطاب الشعري ـ مبدأ التعاون الذي صاغه « كرايس »[18] وما تشعب عنه من تعاليم مثل : الكمية والكيفية والعلاقة والهيئة والوجاهة ؟ كيف يمكن ذلك ، وهدف « كرايس » الأساسي هو وضع آليات ضابطة للحوار اليومي المباشر وليس تأسيس قوانين شاملة ؟ قد يصدر هذا الاعتراض من قارىء مطلع وهو وجيهٌ من الناحية الابستمولوجية المحضة ، ذلك أنَّه يكاد يتعذَّرُ ـ نظرياً ـ نقل اطرادات الحديث اليومي العادي الذي يهدف في المقام الأول التواصل والتفاعل إلى خطاب شعري هادف إلى التفاعل والتواصل والتعبير ؛ ومع هذا ، فإن اشتراك الشعر مع المحادثة في بعض البنيات والوظائف يسوغ « التجوز » في تعاليم « كرايس » والاستعانة بها لتحليل بعض آلياته . كما أننا إذا تجاوزنا ظاهرة التعاليم إلى روحها ، فإننا نعثر فيها على بَعْض الاطرادات الصالحة لكل خطاب .

على أن ما أتى به « كرايس » يجب أن يتمم بمبدأ آخر يأخذ به أصحاب « نظرية

(17) أهمها « نظرية العمل » كما نجدها عند « باريت » ، ونظرية « كريماص » ونظرية الزميل الاستاذ المنطقي عبد الرحمان طه .

(18) أنظر: محمد مفتاح ، 1985، الفصل السابع ـ التفاعل ص 191 - 193 .

العمل » ، وهو مبدأ الصراع[19] ، وعلى هذا ، فإن أي نص لا يخلو من المبدأين معاً ، وإن كان أحدهما يبرز على صاحبه تبعاً لمقصدية المتكلم وهيأة المحاور وظروف إمكانية جريان الحديث .

ب ـ حوارية الشعر :

إن الناظر إلى المقطوعة يَرَى أمامه ضربان من الحوار :

أولها سطحي :

ويمكن أن نرى فيه نوعين أيضاً :

* مضمر : وسنتخذ دليلاً على وجوده ما كان جواباً عن سؤال مُقدر مثل الأوصاف ونوعي العطف والبدل والتوكيد والحال . وهكذا ، فإن الشاعر خمن أن معترضاً انتصب أمامه وكأنه يسأله مما حتم عليه أن يجيبه :

الشاعر	«ودير»	المعترض	ماذا فعلتم فيه ؟
//	« أنخنا »	المعترض:	أين ؟
//	« بحلة رهبان »	المعترض	من الاهم ؟
//	« عيسى »	المعترض	ماذا يفعلون ؟
//	« عكوف على التمثال »	المعترض	ماذا بعد ذلك ؟
//	« زَعَقْنَا »	المعترض	كيف كان رد فعلهم ؟
//	« كأنا ذعرنا »	المعترض	من أنتم ؟
//	« جوانح للقرى »	المعترض	ما دينكم ؟
//	« مسلمون »	المعترض	الا تتقون الله ؟
//	« بإنا عصابة »	المعترض	« إصدار الحكم » : بئس المسلمون إذن بيسا

* ظاهر : ويتميز عن السابق بوجود : « قال » و « قلت » وما أشبه . ويبدأ من البيت الرابع .

---

(19) نجد هذا الاقتراح لدى « ليو أبو سطل » :

Leo Apostel « pragmetique praxéologique: Communication et action» In Le langage en contexte, Amsterdam,, 1980 PP 193 - 315.

وانظر المدخل ـ نظرية العمل .

الشاعر		الراهب
« وقلنا »	⟷	« فقيل » = علاقة تعاون
« فقلنا »	⟷	« فقال أخر » = علاقة تعاون
« فقلنا »	⟷	« فقال وهي شيء محرم » = علاقة صراع
« فقلنا »	⟷	« فقال : لبئس » = علاقة صراع
« فقلنا »	⟷	« فقام » = التعاون والاستسلام

يتجلى ، إذن ، من خلال نوعي الحوارِ السَّطْحِيّ أنهما جوهريَّانِ لتمطيط الكلمة المحور أو الجملة ـ المنطلق ؛ فكلمة « دير » تلتها أوصاف محددة ، و « رهبان » خُصِّصَتْ بِنُعُوتٍ ، و « نا » ـ الشاعر وصحبه كانت كل جملة تلقي عليهم مزيداً من الضوء ، وَسَبَقَتْ جُمَلٌ عامة لم « ندر » على ما تتحدث إلا في البيت الخامس ، حين قال الشاعر : « أخمرٌ » ، وحينئذ خصص العموم السابق .

وثانيهما عميق :

بيد أننا نختزل آليات اشتغال النص إذا لم ننظر في « الحوار العميق » ، ويمكن أن يقارب بعدة نظريات ، أشهرها نظرية العمل « ونظرية العوامل » الكريماصية ، إلا أن شكل النص القصصي اللاواقعي الذي نمارس عليه التحليل يفسح المجال واسعاً لمناهجية « كريما ص »[20] ، وهي :

* العامل الذي يصدر الأمر .
* العامل المتلقي للأمر .
* العامل البطل ، وهو ما كانت له قدرات الاستطاعة أو المهارة ، وما كان إما بطلاً بالقول قبل الإنجاز ، وإما بطلاً بالفعل أي حينما يمتلك الشيء المبحوث عنه .
* العامل الموضوع ، وهو ما كان ذا قيمة مراهن عليها ، ويقوم الصراع من أجلها بواسطة برنامج فاعل الفعل بتحويله الافتقاد إلى امتلاك .
* العامل المساعد الذي يجعل الاتصال ممكناً .
* العامل المعوق الذي يحاول أن يجعل الانفصال واقعاً .

إذا نظرنا إلى المقطوعة الشعرية ـ على ضوء هذه العوامل ـ فإننا نلاحظ ما يلي :

* العامل الذي يصدر الأمر هو إبليس (يطيعون . . . إبليساً) .

---

(20) هذه العوامل أشهر من أن يعرف بها .

* العامل المتلقي للأمر هو النفس (فيما تشتهي النفس) .
* العامل الموضوع الذي يقوم الصراع من أجله هو الخمر (أخمر . . .) .
* العامل المعوق الذي حاول أن يحول دون المقصود الدين (دين الإسلام) .
* العامل الذي جعل الاتصال ممكناً (الراهب) .
* البطل الذي له قدرة ومهارة والذي أصبح بطلاً بالفعل (الشاعر) .

قد يظهر لبعض القُرَّاء أن في تناول الحوارين إركاماً لا داعِيَ له ، فقد يكفي التعرض لأحدهما ، ولكن الظهور ليس الحقيقة ؛ فالعوامل ثوابت موجودة في كل نص شعبياً كان أم عالياً شعراً غنائياً كان أم نصاً فلسفياً ، في حين أن هناك نصوصاً كثيرة ليس فيها حوار صريح ،وإنما ترى مُنسَابَةً تسير في هدوء وإطمئنان لا يعكر صفوها اعتراض مُعترضٍ،كما أنه قد ترى أن لاَ عَلاَقَةَ بين التناولين ، ولكننا ندعوه إلى التأمل في النتائج التالية :

* أن كل حوار يحكمه مبدآ التعاون والصراع ، وقد ظهر ذلك جلياً في المقطوعة ، وإن كان مبدأ التعاون هو المهيمن لأن الشاعر هو الخصم والحكم .

* أن من بين العوامل هناك المساعد والمعوق ، وليس المساعد إلا متعاوناً يأخذ بيد الباحث عن الموضوع الثمين (الخمر ، والحقيقة ، أو الحب . . .) وليس المعوق إلا ما يدل عليه اسمه ، فهو ينتصب حاجزاً دون الموضوع .

* إلا أن هناك فرقاً بين الحوار النفعي الواقعي وبين الحوار الخيالي اللاواقعي وإن كان آيلاً إلى النفع ؛ ففي الأول يكون المعترض حاضراً ، وفي الثاني قد يكون حاضراً أو غائباً إنساناً أو حيواناً أو آلة أو قيمة .

4 ـ انسجام النـــص :

على أن ضروب الحوار المشار إليها سواء كانت معجمية (علاقات خصوص بعموم ومحتو بمحتوى وجزء بكل وسبب بمسبب . . .) أم جملية (علاقة التناقص والتضاد ، التضمُّن في النفي والإثبات وشبه التضاد) أم علاقة بين متحاورين ، فإنها محكومة بشرط « أنطولوجي » وهو انسجام النص ومعنى هذا أنه لا بد من قضية مركزية يتحاور فيها المتواجهان أو غير المتواجهين ؛ على أن الأمر ليس بهذا الشكل دائماً ، فقد نجد نصاً يضم قضايا متعددة ، وقد نجد « نصاً » عبارة عن أصوات مبعثرة تمتنع على أن تكون قضية ؛ ومع ذلك ، فإنه على المحلل أن يستكشف « المنطق » الرابط وليكن وظيفياً أو تجريدياً ، وأن يؤلف موضوعةً .

أدوات انسجام النص ، إذن ، كثيرة ومتنوعة ، وقد خصها لسانيو الخطاب والسرديون بدراسات دقيقة . وقد نظر بعضهم إلى النص بوصفه إنتاجاً ، واعتبره بعض آخر عملية إنتاج . لذلك ما على الراغب في المزيد إلا أن يَرْجع إلى الدراسات الموجودة في هذا الحقل ، وأما نحن فكل ما سنفعله هو أننا سنركز على نقطة ـ لم نتعرض لها قبل ـ كان لها دور في انسجام النص أيضاً ، وفي ربط جمله بعضها ببعض ، ونعني بها العطف ، وخصوصاً ما يدعى بـ « الفصل والوصل » .

ونجد في المقطوعة فصلاً كاملاً حينما تكون العلاقة بين الجمل والمفردات نعتاً أو بدلاً أو حالاً أو بياناً أو تفسيراً .

« دير أنخنا » = نعت .
« حلة رهبان إلههم عيسى » = نعت .
« عكوف على التمثال يستلمونه » = نعت .
« عصابة مطيعون » = نعت .
« كيوانا تناول » = نعت .
« عيش نعمنا به » نعت .
« زعقنا بهم » ، جواب عن سؤال مقدر .
« كأنا ذعرنا » ، جواب عن سؤال مقدر .
« قلنا » ، توضيح .
« بئس المسلمون » ، جواب عَنْ سؤال مقدر .
« وهي شيء محرم » ، توضيح .

كما نجد فيها وصلاً ، أيْ حينما يكون هناك اشتراك وافتراق بين الجملتين أو الكلمتين :
« يَسْتَلِمُونَهُ » : + المحافظة على الدين + الفعل متعلق بالتمثال .
« ويعنون » + المحافظة على الدين + الفعل متعلق بالإنجيل المشترك بين الجملتين : (المحافظة على الدين) .
الخلاف بينهما : الإنجيل ليس التمثال ، وإن كانا يؤولان إلى حقل واحد .
« حفظاً » : + العناية بالدين + فعل استعاب .
« وتدريساً » : + العناية بالدين + فعل فهم .
المشترك بين الجملتين : (العناية بالدين) .
الخلاف بينهما : (نوع الفعل) .

« زعقنا بهم » : + رفع الصوت .
« فهيمنوا » : + انخفاض الصوت .
المشترك : (مجال الصوت) .
الخلاف : المقابلة : الارتفاع ـ الانخفاض .
« غابة » : الشجر الكثير الملتف .
« أو » « خيسا » الشجر الكثير الملتف المطابقة .
« وقلنا » : اشتراك وإضافة شيء جديد .

وقد نطّيل إذا ما تتبعنا كل أنواع العطف ، ولذلك فإننا سنختصر ونقول : إذا كانت علاقة جملة لاحقة بجملة سابقة بمثابة خاصة ذاتية أو عرض فصلت لأنه ترجع إلى نفس الذات ؛ فعطف الخصائص والأعراض يفيد المغايرة ، على أن اللغة الطبيعية تخرق هذا الواقع ، ودليلنا على هذا الأبيات الأولى من المقطوعة التي تتحدث عن الرهبان ، فتحليلها يؤدي إلى النتائج التالية :

* الرهبان : (الخصائص الذاتية : + أحياء + بالغون + ذكور . . .)
(الخصائص الثقافية – الأعراض : + تأليه عيسى + الاعتكاف على التمثال واستلامه + العِنَاية بالإنجيل) .

و«العناية بالإنجيل خاصة ثقافية ولكنها وصلت، فلماذا؟قد يكون جواب القدماء سلبياً بهذا الصدد وهو : إذا تعددت الصفات جاز وصل بعضها ، ويمكن أن يقَالَ : أن الفعل متعلقٌ بمختلفين هما : التمثال والإنجيل . ومهما يكن ، فإن أي جواب جازم سابقٌ لأوانه ، ولذلك فإنه ينبغي أن تتضافر جهود لسانيي الجملةِ والخطاب للوصول إلى بعض الاطرادات التي تكمن وراء ظاهرة الوصل .

خـــاتمـــة

إعادة الانتاج وإشكال التأويل :

لعل فيما قدمنا بعض الأدلة على أهمية حوار النصوص، ولذلك اجتهدنا لتقديم بعض الآليات لوصفه وتأويله ، وهكذا نظرنا إليه في مستويين :

* مستوى الحوار مع نصوص خارجية مختلفة الأشكال والمضامين والقائلين والأزمنة والأمكنة ، لا تسلم منه « اليد الأولى » ولا « اليد الثانية » ولا نص « الدرجة الأولى » ولا

« الدرجة الثانية » . فلا اختراع مطلق ولا ابتداع كلي ، إنما هناك دور وتسلسل يعسران عملية التأويل إذا لم تحلل هذه الظاهرة الإنسانية إلى الآليات الأولى التي تتحكم فيها ؛ وعلى هذا فهي ليست خاصة بثقافة دون أخرى ، ولا بشاعر دون آخر . إذا سلمنا بهذا فعلينا أن لا نشغل أنفسنا كثيراً بمدى إبداعية النص ، وإنما يجب أن ينصب اهتمامنا على وظائفه ، بناء على مقصدية قائله أو مؤلفه ونوعية المخاطب به في زمان ومكان معينين. وينتج عن هذا ـ منطقياً ـ أن اعادة انتاج الشاعر العباسي ليست هي اعادة الشاعر الأندلسي ، وأن أي شاعر لا تسيرُ إعادة انتاجه على وتيرة واحدة ، **وإنما تُكَيَّفُ بِحَسَبِ المخاطب وظروف امكانية الانتاج** .

على أن اعادة الإنتاج نوعان أساسيان يتفرعان إلى أنواع عديدة ، فمنها المبجل والمحترم والموقر ، ومنها المستهزىء والساخر والمداعب ، ومنها ما هو متردد بين النوعين .

وبهذا المنظور الموسع نتجاوز بعض التنظيرات الغربية التي أنشئت في سياق مليء بالاحتجاج والرَّفض فردَّت حوار النصوص إلى نوع وحيد وهو الحوار الساخر ، فإذا صح هذا في كثير من الثقافة العربية المعاصرة الشعرية فإنه لا يُسْتَسَاغُ في مجمل التراث العربي القديم الذي أغلبه مُبَجّلٌ ومحترمٌ ووقورٌ .

* مستوى الحوار الداخلي الذي بواسطته تتجلى كل أبعاد النَّصّ الجمالية والاقناعية والذاتية ضمن شبكة من العلاقات ،وعلى ضوء هذه الشبكة يمتاز نص من نص وشاعر من شاعر . ونظراً لطبيعة هذا التناول التمييزية ، فإنه يتطلب توظيف أدوات إجرائية متعددة ودقيقة تكون أحياناً كثيرة فوق طاقة المحلل الأدبي .

على أن الحوارين متلازمان ، إذ لا نتصور نصاً خالياً من الحوار الخارجي سواء أكان مع نص مركزي أم مع نص فرعي أم باستثمار معجم خاص، ولكن هذه الأنواع ليس إلا مَوَادُّ خاماً يمكن أن تشكل ـ بالحوار الداخلي ـ في هيئة جميلة على يد صناع ويمكن أن يركم بعضها فوق بعض بقلم فاقد الموهبة .

عملية حوار النصوص إذن ليست سهلة يسيرة لمعيد الانتاج كما أنها ليست هينة لضابط آلياتها ومؤولها .

الفصل الثالث

تناسل الخطاب الشعري

استهل هذه المداخلة بأن أنبه إلى أنني سأتعامل مع قصيدة الشاعر الأستاذ محمد الخمار الكنوني « قصائد إلى ذاكرة من رماد »[1] على ضوء مفهوم واحد هو الحوارية . وهذا المفهوم نفسه لن أتعرض إلى كل جزئياته وتفصيلاته ، فقد فعلت ذلك في بحث آخر[2] ولذلك فإني لن أذكر إلا ما لا مناص منه ، ومن ثم فإن عملي سيتجه إلى التحليل أكثر مما سيعتني بالتنظير .

إذا اتفقنا على هذا فلأقل : أن حوار النص يمكن أن يقسم إلى قسمين :

* حوار خارجي ، وهو ما يكون بين نص ما ونصوص أخرى متعددة المصادر والمستويات والوظائف .

* حوار دَاخلي ، وهو ما يتجلى في توالد النص وتناسله .

على أن الحوارين معاً ـ الداخلي والخارجي ـ يمكن أن يفرعا إلى ثابتين أساسيين ، هما : حوار التعضيد وحوار التصادم . ولكل منهما متغيراته ومشتقاته تصل مجتمعة إلى أربع عشرة حالة[3] .

I ـ الحوار الخارجي :

أعود ، بعد هذا ، إلى الحديث عن الحوار الخارجي كما تعكسه القصيدة ، ولكني أقول

(1) هذه القصيدة من ديوان : رماد « هسبريس » ، دار توبقال . انظر الملحق بعد المقال .

(2) أنظر الفصل الثاني .

(3) وقد تصل إلى ست عشرة حالة :

(ـ مقصدية التّثبيت ـ المماثلة والمشابهة ـ العلاقة) (ـ مقصدية تغيير الرأي ـ المماثلة والمشابهة ـ العلاقة)

ـ بادىء ذي بدء ـ إن استشفاف النصوص الخارجية في نص ما عملية صعبة في كثير من الأحيان ، وبخاصة إذا كان النص محبوكاً وفيه حذق الصنعة ، ولكنها مهما تسترت واختفت فإن القارىء المطلع لا يلبث أن يمسك بتلابيبها ، ويرجعها إلى المصادر التي أتت منها . ولكن التواصل نسبي ، يختلف من شخص إلى آخر .

إذن في ضوء هذه الصعوبة ، وهذه النسبية يتراءى لي أن النصوص الخارجية التي حاورها النص الذي هو موضع التحري هي : نص مركزي ، ونصوص فرعية .

أ ـ النص المركـــزي :

ويتمثل في القرآن ، ويظهر في قول الشاعر : « كلما اشتعلت لعنت أختها » المقطع الأول « غربة الماء» ففيه حوار مع : «كلمات دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » (الأعراف 38 - 39) . كما أجد أن قول الشاعر « ففريق نجا بخيانته ، وفريق مضى في المجامع » (المقطع الثاني : العبور) يحاور القرآن في « فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » (الأعراف 29) .

ب ـ النصوص الفرعية :

وأما النصوص الفرعية فهي عديدة أوضحها الأمثال ، كما يوحي عنوان القصيدة بذلك « قصائد إلى ذاكرة من رماد » . فالذي يعمل بدون جدوى يقال له : « أنت تنفخ في غير ضرم » . والثقافة الشعرية التقليدية والحديثة ، فالتقليدية أجد الاحالة عليها في « فعين الرضا تلد اللغة العاهرة » ، (المقطع الثالث: تناوب النباح) ، فمصدرها : « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » ، والحديثة في المتن الشعري العربي الحديث والمعاصر (شعر التفعلة) ، والانتروبولوجية التي تنعكس بجلاء في المقطع الرابع « شمس هرمة » ، كما أن المعارف الصوفية لها حضور بارز في النص : صورة ماء البحر وماء الكأس ، والمعجم: المريدين ، القرب ، البعد ، الدائرة ، الحرف ، معاني المعاني ، التواصل . . .

على أن توظيف الشاعر لهذه النصوص ، سواء أكانت مركزية أم فرعية هو مختلف ، فقد استثمر القرآن بقصد تعضيد أطروحته ، واعطائها امتداداً تاريخياً ، وكذلك الشأن في لجوئه إلى الشعر والأمثال وبعض التجارب الثقافية ، بيد أن موقفه من الخطاب الصوفي يمكن أن ينظر إليه من زاويتين : التعضيد (صورة الماء) ، والسخرية/ التي يوحي بها المعجم .

وإذا ما أردت أن أصوغ هذا بكيفية أخرى فإني أقول : إن التعضيد هو :

+ المقصدية + المماثلة والمشابهة + التبجيل = استثمار القرآن والنصوص الأخرى .
– المقصدية + المماثلة والمشابهة + السخرية = استغلال المعجم الصوفي وحده[4] .

واعتقد أن تعضيد القصيدة واضح للأصوات المشار إليها ، وإنما الذي يحتاج إلى تبيان هو عنصر السخرية ، والطريق إلى ذلك هو اللفظ الجامع أو الرابط[5] :

قراءة صوفية	اللفظ الرابط	قراءة سياسية	نوع العلاقة
التلميذ	المريد	المنخرط	السخرية
قرب التلميذ	القرب	قرب المنخرط	
مع التلميذ	التواصل	التواصل مع المنخرط	
الطائفة	الفريق	الفريق الحزبي	

وقد يتضح من خلال هذا أن توظيف الشاعر للمعجم الصوفي كان من أجل السخرية من هذا المُنَظِّر المعاصر، بخلاف توظيف النص القرآني الذي جاءت القصيدة لتعضيد دلالته وإحيائها ، وفي هذا ايضاً سخرية مبطنة من الفئات المتلاعنة المتخذة للشياطين أولياء .

على أنه في هذا السياق ينبغي أن أشير إلى أن ما اهتديت إليه ينبني على اشتراك في المقاصد بيني وبين الشاعر ، وليس الأمر هكذا دائماً فقد يكون للشاعر مقصدية خاصة في توظيفه لبعض النصوص يحتمل أن أتَوَصَّلَ إليها بالتحليل ، وقد يستعصي عليَّ إدراكها[6] .

ومهما يكن، فإن هذه النصوص الخارجية تقوم بوظائف متعددة داخل النص ، أهمها : اتخاذها حجة للاقناع ، ويأتي في مقدمتها القرآن والتصوف والمأثورات الشعبية ، والثقافية العامة . واتخاذها وسيلة لتحقيق المتعة بتقديم صور بلاغية .

II ـ الحوار الداخلي :

على أن حوار النصوص الخارجية مع نص ما لا يكفي للكشف عن آليات تناسل النص ، ولذلك فإنه يتعين الوقوف على ميكانيزمات الحوار الداخلي .

---

(4) أنظر فصل « الحوار في النص الشعري » .

(5) اللفظ الرابط (connecteur)، وهو ما تبنى عليه قراءتان تشاكليتان بمصطلح المدرسة الفرنسية أو صراع إطارين بمصطلح من يتبنى الاتجاه الانجلوساكسوني (Schéma conflict) وحالتنا هذه : الإطار الصوفي .

(6) هناك أدبيات كثيرة حول « المقصدية » و « المقصد » في « علم النصوص » المعاصر . وتكاد تجمع على أهمية هذا المفهوم . أنظر المدخل .

يمكن تناول هذا الجانب انطلاقاً من المفاهيم التالية : الكلمة ـ المحور ، الكلمة ـ الرابط ، والجملة ـ المنطلق ، والجملة ـ القنطرة ، والجملة ـ الهدف ، والحوار المباشر ، والحوار اللامباشر ، والحوار الأفقي ، والحوار العميق[7] .

حين يرغب الباحث في تناول الحوار الداخلي ، فإنَّهُ عليه أن يهتم بالعناوين الواردة في النص ، ويرصد علاقات بعضها ببعض ، وعلاقة كل عنوان بمقطعه ، هذه أمور أساسية ، لا غنى عنها للكشف عن الميكانيزمات المتحكمة في النص كمقاطع ، أو فيه ككل متكامل . واعتباراً لهذا فلأنظر في العنوان : « غربة الماء » لأتَبيَّنَ علاقة المقطع به ، موظفاً بعض المفاهيم السالفة الذكر تاركاً بعضها إلى أن يحين وقته .

* **القسم الأول** : من المقطع يبدأ بالكلمة ـ المحور (راية) التي تولدت عنها الجملة ـ المنطلق (راية تتناسل أو تتمزق . . .) وينتهي عند « على من » ، ولكن هناك الجملة القنطرة وهي « كلما اشتعلت لعنت اختها » .

* **القسم الثاني** : هو الجملة ـ الهدف[8] :
« فهَا أَنتَ ذَا أَيُّهَا البَرْقُ بَعْدَ آشْتِعَالِكَ »
« تَسْكُنُ بَيْنَ رَمَادِكَ »

* **القسم الثالث** : يبدأ من :
« كالْمَاءِ في الكَأْسِ » ، بِوَاسِطَةِ الكَلِمَةِ ـ الرَّابِط[9] (ك) حتى نهاية المقطع .

أ ـ الكلمة المحور والجملة المنطلق :

إن القسم الأول يحتوي على الكلمة ـ المحور (راية) التي تولدت عنها الجملة ـ المنطلق ، التي انتجت بدورها جملتين أخريين .
رايةٌ تَتَنَاسَلُ أَوْ تَتَمَزَّقُ في صَخَبٍ وثَنِيّ
(الكلمة ـ المحور) ، (الجملة ـ المنطق)

---

(7) هذه المفاهيم تدخل ضِمن مُحاولتنا البرهنة على دينامية النص ، وهناك دراسات حديثة في هذا الشأن مثل : نظرية الكوارث ، ونظرية الشكل الهندسي ، ونظرية الحرمان ، ونظرية العمل التواصلية . . والبنيوية التكوينية وسيجد القارىء في المدخل تعريفاً مُركزاً لِبَعْض هذه النظريات ، وتطبيقاً مَلْمُوساً في الدراسات .

(8) الجملة ـ الهدف ، والجملة القنطرة مصطلحان انجلوساكسونيان .

(9) مثل ما ورد في الهامش 5 .

غَدْتَ رايَتَيْنْ
غَدْت مِزَقاً

وبعد الجملة القنطرة تأتي الجملة الهدف ، وهي القسم الثاني فالقسم الثالث الذي هـو عبارة عن تخصيص وتمطيط لما ورد عاماً في الجملة الهدف عن طريق الكلمة ـ الرابط (ك) .

ولمزيد من الاستدلال سأستغل الفضاء فـأقول : إذا كـانت البلاغـة اللغوية تعتبر من المقومات الأساسية لكل نص شعري ، فإن هناك بلاغة أخـرى لا تقل عنهـا أهمية ولا ينبغي للمحلل إغفالها ، واقصد بها البلاغة البصرية ، ومن ثمة يصبح التساؤل حول وظيفة الفضاء في هذا المقطع خاصة وفي النص كله امراً مشروعاً .

إن الفضاء في هذا المقطع يعبر بأمانة عن هذه النزعة التدريجية التي رَصَـدْتُها ، فهنـاك سطر طويل :

رايَةٌ تَتَنَاسَلُ أَوْ تَتَمَزَّقُ في صَخَبٍ وَتَنِيّ

وهناك سطران قصيران :

غَدَتْ رَايَتَيْنْ
غَدَتْ مِزَقاً

فالسطر الطويل يفيد ـ فضائياً ـ التعميم ، أما السطران القصيران فيفيدان التخصيص . وما يقال عن هذا القسم من المقطع الأول ينسحب كذلك على الجملة ـ الهدف ومـا تلاهـا ، حيث يجد القارىء :

فهَا أَنْتَ ذَا أَيُّهَا البَرْقُ بَعْدَ اشْتِعَالِكَ
تَسْكُنُ بَيْنَ رَمَادِكَ
كَالْمَاءِ في الكَأْسِ

ب ـ الجملة ـ القنطـرة :

وأما الجملة ـ القنطرة ، فوظيفتها هي نقل القارىء من تشاكل الجماد (الراية) إلى مجال الانسان صاحب الراية (. . . لَعَنَتْ اختها) ، وهذا ما تحقق بواسطة الاستعارة التي تبدو ، وكأنها تعمل على تحطيم النص ، فإنها على العكس من ذلك تعمل على انسجامـه وتمطيـطه : ولذلك فانه يجب اعتبار الاستعارة ـ عمودياً[10] ـ مظهراً من مظاهر انسجام النص .

---

(10) اعتاد الباحثون أن يحللوا الاستعارة أفقياً ، ولكن هذا التحليل قليل الجدوى إذا لم يصاحب بتحليـل عمودي ، وخصوصاً حينما يتعلق الأمر بالنصوص المعاصرة : الشعرية والتخريفية . .

إذا اتضح هذا القول : أن كلمة (راية) الواردة في مطلع المقطع ككلمة محور معضدة بكلمة محورية أخرى في (الدم بالدم) التي تفيد الصراع الذي يتولد عنه الانتصار أو الانهزام . والمحوران معاً مرتبطان بواسطة الجملة ـ القنطرة والكلمة ـ الرابط (تغسل) اللتين تقبلان القراءة المزدوجة التي ينتج عنها تشاكلانِ (الجماد والانسان) .

بالنظر إلى هذا يمكن القول : إن علاقة الخصوص بالعموم هي المهيمنة ، إذ كلما أتت وحدة عامة إلا وتلتها وحدات أُخْرَى خصصتها ، وهكذا فإن النص ينتقل بنا من العام إلى الخاص أي هناك علاقة تداخل أو تضمن أو اقتضاء . أقول هذا ، وأنا أدرك أن العلاقات بين الجمل عديدة : (علاقة التضاد ، علاقة التناقض ، علاقة شبه التضاد ، علاقة التداخل في النفي . . .) والمُهِمُّ هنا أنَّ العلاقة إثْبَاتِيَّةٌ .

ج ـ الجملة ـ الهدف :

إذا إتضح هذا ، فلأرجع إلى الجملة ـ الهدف .
فَهَا أَنْتَ ذَا أَيُّهَا البَرْقُ بَعْدَ اشْتِعَالِكَ
تَسْكُنُ بَيْنَ رَمَادِكَ
كـ . . . .
ما الدليل الذي يجعلها متعلقة قبلياً وبعدياً ؟[11] .

انطلاقاً من مفهوم انسجام النص بواسطة المعجم والكلمة ـ الرابط تصبح العلاقة وثيقة :

المعجم : الاشتراك في (اشتعلت) (بعد اشتعالك) ، فـ « اشتعلت » = الراية = الطائفة = البرق .

اشتعلت الراية : = سرعة الاضمحلال
اشتعلت الطائفة : = سرعة الاضمحلال
اشتعل البرق : = سرعة الاضمحلال

إذن ، سرعة الاضمحلال مقوم مشترك بينها جميعاً ،

ولكن « اشتعال البرق » جاء موضحاً لما سبق ومكثفاً له ، ومن ثمة اعتبرت جملته هي الهدف .

الكلمة الرابط : وأما العلاقة عن طريق الكلمة ـ الرابط فهي واضحة في أداة

---

(11) الجملة ـ الهدف هي ما يقابل لدى « الكارثيين » مركز الجذب «Attracteur» .

التشبيه (كـ) التي تجمع بين حالتين مركبتين : بين حالة (اشتعال البرق وانطفاءِ البرق ، بين حالة البحر والماء في الكاس) .

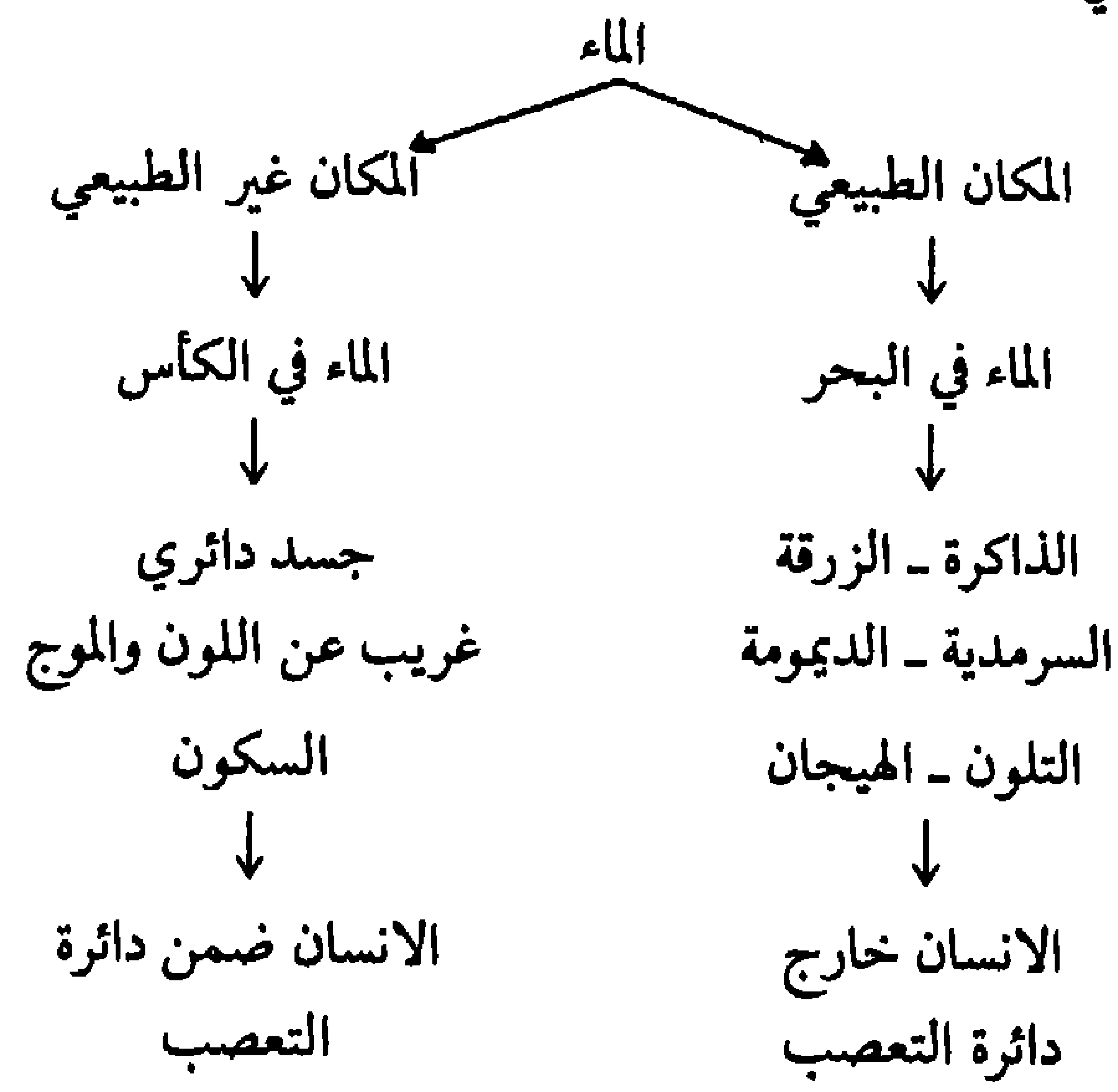
أي : اشتعال البرق وماء البحر = حالة الأصالة .

انطفاء البرق والماء في الكأس = حالة فقد الهوية .

أي : حالة الأصالة = حالة الوحدة والتآخي .

حالة فقد الهوية = حالة الصراع والتعصب .

معنى هذا أن الجملة ـ الهدف هي مصب ما سبق ومَنبع ما يلحق في هذا المقطع . وإذ قد بينت تناسل ما تقدم عن طريق علاقة الخصوص بالعموم ، فإن الآليات نفسها حكمت ما يتلو ، ولكن العلاقة ليست التداخل في الاثبات . وإنما هي علاقة تضادية كما يوضحه الرسم التالي :



إن نوع العلاقة هذا يَخْدُمُهُ الفضاء بصدق ، ذلك أنني إذا قلت : كلما كان الفضاء ممتداً كان هناك تعميم ، وكلما كان متضائلاً قصيراً كان هناك تخصيص ، فإنّني أجد ما يؤكده ، فَهُنَاكَ امتداد وهناك تناقصٌ تدريجي وهناك تبادل بينهما .

ربما اتضح الآن بعض الاتضاح أن الأبيات التي تحكمت في تناسل هذا المقطع هي ما يلي : لفظ محوري (راية) انبنت عليه جملة ـ منطلق (رايةٌ تَتَنَاسَلُ أوْ تَتَمَزَّقُ في صَخَبٍ وَثَنِيٍّ) تولدت عنها بدورها جملتان واصِفتانِ نقلتها من العموم إلى الخصوص ، ثم أتت جملةٌ قنطرة بين

تشاكلين ـ موضوعتين ، فجملة هدف هي تكثيف لما سبق وما يلحق ـ وهذه الآليات علاقاتها منطقية ومعجمية وتركيبية . وسأزيدها إيضاحاً في ما سيأتي :

إذا اطمأنَّا شيئاً ما إلى هذا الإجراء ، انتقل لقراءة المقطع الثاني « العبور » على ضوئه . بَدْءاً أتساءل : ما علاقة المقطع الأول بهذا الذي تلاه ؟ للإجابة عن ذلك أَقُولُ : إنها علاقة خصوص بعموم ، علاقة متدرجة في التوضيح ، إن على مستوى اللفظة وإن على مستوى التركيب ؛ فقد كان الحديث عن الراية ـ الانسان بصفة عامة ، ويجري الحديث ـ الآن عن المنظر بكيفيةٍ خاصة . وإذ أعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى جدال ، فإني انتقل للبحث عن العلاقة بين العنوان والمقطع ، فالعبور فيه من حالة إلى حالة ، ومن لغة إلى لغة ومن موقع إلى موقع ، ومن مبدأ إلى مبدأ . . كما أنه يمكن ملاحظة هذا التدرج من العام إلى الخاص على مستوى التوزيع الفضائي للنص . فقد جاء معضّداً لمقصدية الشاعر ، وسَأُمَثِّلُ فقط :

1 ـ كان يعقد مجلسه لِيُنَظِّرَ ، ← تعميم
(الجملة المنطلق)
2 ـ قلب أوراقه ← تخصيص
3 ـ وهو يمسح لحيته ← تخصيص
4 ـ ويدخن غليونه الآبنوسي ← تعميم

كما أنه يمكن ملاحظة التساوي بين السطرين : الأول والرابع بين عقد المجلس للتنظير وبين تدخين الغليون الآبنوسي . . . إن هذا التساوي بين السطرين فضائياً أيقون على أن التنظير يعادل تدخين الغليون ، فالثقافة والتنظير . . . هي الغليون ، والغليون هو الثقافة والتنظير . . . إنها الحلقة المفرغة . على أنه إذا كانت الاستعانة بالفضاء ـ في اطار استكشاف آليات تناسل النص ـ امراً مشروعاً ، فإنه يجب علي أن أذكر تحفظين اثنين :

1 ـ أن يكون الشاعر واعياً بالتوزيع الفضائي في نصوصه أو يكون غير واع ، ولكن حاسته الفنية تهديه إلى الصواب .

2 ـ أن لا يكون بين المحلل والشاعر وسيط ، ولذلك فإنه من الأفضل أن يكون النص مكتوباً بخط يد الشاعر .

وبناء على هذا ، فإنني حين استعنت بفضاء النص فقد فعلت ذلك داخل هذا التحفظ ، وتبعاً لذلك تبقى استنتاجاتي مبنية عليه .

إن تلك الحلقة المفرغة قدْ أوضحها التركيب أيضاً ، إذْ أجِدُ في بداية القصيدة :

وَهْوَ يَمْسَحُ لِحْيَتَهُ
ويُدَخِّنُ غَلْيُونَهُ الآبنُوسيَّ
وأعثر في نهايتها على
يَمْسَحُ لِحْيَتِهِ .
ويُدَخِن غلْيونَهُ الآبْنُوسيَّ

إن هذا التشابه التركيبي ـ بداية ونهاية ـ هو ما يعرف بالتدوير ، ويمكن أن يعطى له معنى الدوران في حلقة مفرغة : إعـادة نفس السلوك ، إعادة نفس التجـارب . . . هذه الـدورية وهذا التناوب هو ما يَعْكِسُهُ المقطع الثالث بوضوح « تناوب النباح » وعلى هذا فإنه مرتبط بما سبقه عن طريق علاقة الخصوص بالعموم ، والقرينة على ذلك العبارة الأولى « لَيْسَ يَشْكُـو » فضمير الغائب هو الرابط بين ما سبق وما لحق ، كما أن المقطع جاء مخصصاً لعموم العنوان ، فهو وصف لهذه الشخصية المزدوجة ذات اللسانين وذات اللغتين وذات الموقفين . . . وكلما نما النص ازداد التخصيص والتدقيق عن طريق أدوات العطف التي ضمنت انسجام النص مثـل باقي الأدوات الأخرى المشار إليها .

على أني اعتبر أن الجملةَ ـ الهَدف في المقطع هي :
فَيَكْتُبُ أوْ يَتَحَدَّثُ
مِنْ مَوْقِعِ القُرْبِ والبُعْدِ
مِنْ جَسَدِ الدَّائِرَةْ

فما تقدم هذه الجملة يصب فيها وما يتلوه نابع منها أي تفصيل وشرح لها : فهناك فقرتان إحداهما يتحدث فيها عن القرب من :
إذا اشْتَعَلَ القُرْبُ
إلى : فَعَيْنُ الرِّضَا تَلِدُ اللُّغَةَ العَاهِرَةْ
وثانيهما يتحدث فيها عن البعد من :
وإذَا اشْتَعَلَ البُعْدُ .
إلى : سِوَى رَكْلَةٍ

والعلاقة القائمة بين القسمين هي علاقة تقابل : القرب ـ البعد ، وقد حدد الشاعر كلا منهما بأوصاف معنية .

بصفة عامة فإنه يمكن الوقوف في المقطع الثالث على ثلاث وحدات :
1 ـ توطئة .

2 ـ الجملة ـ الهدف التي تصور حالة ذي اللسانين في قربه وفي بعده .
3 ـ خلاصة أو نتيجة .
ـ والعلاقة القائمة بين أجزائه هي التضاد .

إن الدورية المعبر عنها فضائياً وتركيبياً ومعنوياً فيما سبق هي التي جاء المقطع الرابع لتوضيحها « شمس هرمة » فقد مر الكيان المتحدث عنه بثلاث مراحل : تعلم التنظير + التنظير + النباح خارج الدائرة ، ومراحله هي حالات الشمس في + بزوغها + توهجها في كبد السماء + اصفرارها وغروبها وهي مثل حالات + الطفولة بما فيها من براءة وصدق وسذاجة + اشتداد الساعد وتلوث الطبيعة الانسانية + مرحلة السيرورة والاضمحلال . آنه تفكير دائري ذو حلقة مفرغة معاد ومكرور . وقد كَثَّفَتْهُ الأسطر الثلاثة الأخيرة :

فأَرْسُمُ أُخْرَى ،
وبَيْنَ الدَّوائِرِ والْحُلْمِ
كَانتْ حُدُودُ رُسُومِي الأثيرَة .

هذا التفكير ـ الدائرة هوَ الذي وقع في قعْرِ جُبِّهِ الكيان المتحدث عنه ـ كما يحكي ذلك المقطع الخامس « سيدة الضوء » فسَار لا يستبين ما خَلْفَ الدائرة . وإنما كل ما يسمع هو الضجيج ، وكل ما يرى هو بصيص من اللمعان ، مما يغري ببعض المكاسب ولكن :

تَبَيَّنَ أَنَّ الضَّجيجَ
مَواثيقُ لِلْجَرْحِ لا لِلْوَفَاءِ
وأَنَّ التَّوَهُّجَ في اللَّمَعَانِ
ابْتِدَاءُ انْتِهَاءِ

د ـ المعجم والاطار :

بهذه النهاية الدورية يظهر ـ أيضاً ـ علاقة الخاتمة بالعنوان « ذاكرة من رماد » وما بينهما من دوران النص على نفسه في تقدم دائري بطيء ، وإذ إني سأزيد هذا توضيحاً في التركيب العام ، فإني سأكتفي الآن بتركيز ما تقدم حسب المفاهيم الموظفة :

* الكلمات المحاور في النص جميعه :

المقطع الأول : راية – الدم بالدم – الماء .
المقطع الثاني : المجلس – التنظير – المريدين .
المقطع الثالث : ذو اللسانين – القرب والبعد .

المقطع الرابع : الدفتر ـ الشمس .

المقطع الخامس : الكلمات ـ الضجيج ـ واللمعان .

وقد يتبين للمستمع وللقارىء أنني الححت على مفهوم الكلمة ـ المحور ذَلِكَ لأنه أساسي ، فهو يعني أن الشاعر أو الكاتب حين يذكر كلمة محورية فإنه سيجد نفسه ملزماً أو مُخَيَّراً بعض التخيير للإتيان بكلمات أخرى تنتمي إلى نفس الحقل ، سواء عن طريق الترابط ، أي كلمة تدعو كلمة بكيفية تكاد تكون ضرورية ، أو التداعي ، وذلك حينما ينساق الوهم ليعقد الصلة بين أشياء أو كلمات لا رابط بينها ظاهرياً ، على أن العلاقة بين التداعي والترابط جدلية ، إذ لا يخلو عمل انساني منهما ، وكل ما هنالك أن أحدهما يهيمن على الآخر بحسب مقصدية المتكلم وهيئة المخاطب ونوعية الخطاب .

وإذا ما أردت أن أمثل فإن « الكلية » محور ، يستدعي بالترابط : إدارة وأساتذة وطلبة ـ وبالتداعي أشياء أخرى .

« والطالب » محور يستدعي : الحصول على الباكالوريا وهيئة مُلقنة وامتحانات . . .

ـ فالمحور إذن ، يَشْتَرِطُ المنتج والمتلقي في آن واحد بما يبعثه من انتظار في كل منهما .

ولأرجع بعد هذا الايضاح للنص لأدلل على هذا الذي قـدَّمْتُه فـ « راية » ارتبط بها التناسل والتمزق . . والدم بالدم : الحرب وما تقتضيه من انتصار وانهزام ؛ وماء البحر استدعى أوصافاً معينة ، والتنظير تضمن منظراً وهيئة ومستمعين ولغة وأسئلة وأجوبة ؛ والازدواجية انبنى عليها ـ ازدواجية اللغة والموقف . . . وَليسرْ من أراد على هذا الطريق في باقي المقاطع .

ولكن هذا الارتباط ليس ضرورياً بين الفقرات وإنما بُنِيَ كثير منها على التداعي ، فلم يكن الشاعر ملزماً بأن يتحدث عن الماء في المقطع الأول لعقد المشابهة مع ما تقدم ولم يفرض عليه الاتيان بصورة « شمس هرمة » لتوضيح المقاطع الثلاثة السابقة .

وينبني ما تقدم بالنظر إلى العلاقة المعجمية المتعددة بين مكونات المحور ، إذ قد تكون ترادفية أو تداخلية أو تضادية أو تناقضية ، على أن هذه العلاقات المضبوطة في النظام اللغوي تتحول إلى مائعة في نظام النص ، وخصوصاً في بعض النصوص الشعرية ، عن طريق المجاز الخالق ، وخلق ألفاظ جديدة أو التلاعب بألفاظ قديمة[12] .

---

(12) هذا مؤسس على نظرية « الاسمية » و « التجريبية » .

هـ ـ التركيب والدوريـة :

يتناسل النص الشعري ـ إذن ـ بواسطة شبكة العلاقات المعجمية الحقيقية أو الوهمية . كما يتناسل بالتركيب ، واقصد هنا التراكيب المتطابقة أو المتشـابهة ، لا أي تـركيب مهما كـان نوعه . فقد قدمت بعض الاشارات إلى التراكيب الاستعارية ، وسيأتي تبيان تناسل التراكيب الأخرى .

إذا اتضح هذا فلأقدم التراكيب المقصودة من خلال مقاطع القصيدة

المقطع الأول :

ـ غَدَتْ رايَتَيْنْ =
ـ غَدَتْ مِزَقاً
ـ أكَانَ انْهِزَاماً =
ـ أو كَانَ انْتِصَاراً
ـ لِمَنْ =
ـ عَلَى مَنْ

المقطع الثاني :

ـ كَانَ يَعْقِدُ =
ـ كانَ يُفَكِّرُ
ـ كَيْفَ يَعْبُرُ =
ـ كَيْفَ يُغَيِّرُ
ـ مِنْ مُطْلَقٍ لُغَويّ =
ـ إلى مُطْلَقٍ لُغَويّ
ـ فَفريقٌ نَجَا بِخِيَانَتِهِ =
ـ وفَرِيْقٌ مَضى بِخيانَته
ـ يَمْسَحُ لِحْيَتَهُ
ـ وَيُدَخِّنُ غَلْيُونَهُ الآبَنُوسيَّ =
ـ وَيُدَخِّنُ غَلْيُونَهُ الآبَنُوسيَّ

المقطع الثالث :

ـ مِنْ جَسَد الدَّائِرَةْ =
ـ مِنْ خَارِجِ الدَّائِرَةْ

ـ إِذَا اشْتَعَلَ القُرْبُ =
ـ وإِذَا اشْتَعَلَ البُعْدُ

المقطع الرابع :
ـ أَعُودُ إِلَيْهِ =
ـ أُقَلِّبُهُ
ـ أَقْرَأُ فِيهِ
ـ كَيْفَ تَغَيَّرَ =
ـ كَيْفَ غَدَا
ـ أَرْسُمُهَا =
ـ أَرْسُمُ أُخْرَى

المقطع الخامس :
ـ هِيَ الكَلِمَاتُ =
ـ هِيَ الأَشْيَاءُ
ـ فَمَا بَالُهَا لا تُبِينُ =
ـ فَهَلْ تَسْتَبِينُ .

إن وظيفة هذه التراكيب هي تحقيق الدورية المشار إليها ، ولكنها ليست تحصيل حاصل مطلق ، ففيها التعضيد والإلحاح والإبداء والإعادة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي على جديد ما . ومفهوم هذا أن التراكيب التي ليست متطابقة ولا متشابهة هي في توتر مع خلافها ؛ فالعلاقتان : التعضيدية والتصادمية تنعكسان على مستوى التركيب أيضاً .

إن هاتين العلاقتين التعضيدية والتصادمية اللتين رصدتها على مستوى المعجم والدلالة والتركيب سأحاول تبيانها على مستوى ما أدعوه « بالحوار » على أني سأنوعه إلى ما ذكرت سالفاً :

و ـ الحوار الصريح :

أقصد به ما وجد فيه مؤشر « قال » « قلت » « سأل » « أجبت » وما أشبه ذلك .
ـ بالنسبة لـ « قال » و « قلت » لم أجدها إلا مرة واحدة في المقطع الثاني :
فَقَالَ : انْظُرُوا
في مَعَاني المَعَاني

ـ ولمَ أجد الاستفهام إلا في المقطع الأول :

أكَانَ انْهِزَاماً

لِمَنْ ؟

أوْ كَانَ انْتِصاراً

عَلَى مَنْ ؟

ـ وفي المقطع الخامس :

هِيَ الكَلِمَاتُ

فَمَا بَالُهَا لا تُبِينُ ؟

هِيَ الأشْيَاءُ

فَهَلْ تَسْتَبِينُ ؟

ولكن هناك استفهاماً غير مباشر في :

كَانَ يُفَكِّرُ

كَيْفَ يُغَيِّرُ (المقطع الثاني)

كَيْفَ يَعْبُرُ

أقْرَأُ كَيْفَ تَغَيَّرَ (المقطع الرابع)

كَيْفَ غَدَا وَرَقاً اصْفَرا

على أن هذا الاستفهام سواء أكان مباشراً أم غير مباشر ، فإنه لا جواب له ، فهو استفهام بلاغي ، ولذلك يمكن القول أن الحوار الصريح والواضح في هذا النص قليل جداً ومعنى هذا أن :

* الحوار المضمر ، هو المهيمن ، وهذا ينسجم مع سمة النص السردية ، على أني سأقسم هذا النوع إلى :

* حوار خطي وأفقي ، وأقصد بهذه السمة متابعة القصيدة بيتاً بيتاً إلى نهايتها ، ومقياس وجوده ، في نظري أن يكون هناك « فصل » لا « وصل » ومعنى هذا أن تكون الجملة جواباً عن سؤال مقدر ، وتصح أن تؤول بمفرد ، وحينئذ ، فإنها تكون خبراً أو صفة أو بياناً ، أو حالاً أو توكيداً . . . وتوضيح هذا :

راية : ماذا حصل ؟تَتَنَاسَلُ . . .

ماذا حدث ؟ غَدَتْ رايَتَيْنْ

ماذا حدث ؟ غَدَتْ مِزَقاً

ماذا حدث ؟ كُلَّمَا اشْتَعَلَتْ لَعَنَتْ أُخْتَهَا
ماذا أيضاً ؟ تَغْسِلُ الدَّمَ بالدَّم . . .

هذا مثل من المقطع الأول ، ويمكن أن أمثل بشيء من المقطع الأخير :

كنت فوقي . ماذا ؟ كدَائِرَة الجُبِّ
ماذا ؟ ضجَّة
ماذا ؟ تَرَدُّدُ
ماذا ؟ لَمعانٌ

ز ـ حوار عمودي :

إذا اتضح هذا ، فللقارىء أن يجرب بنفسه بناء على بعض المقاييس التي قدمتها ، وعليّ أن أتوجه صوب الحوار العمودي ، وأعني به الثوابت التي تتحكم في بنية أي نص ، سواء كان شعرياً أم نثرياً ، فلسفياً أم خرافة عجوز . . . والثوابت هي العوامل الستة المعروفة : المرسل والمرسل إليه والموضوع الثمين المبحوث عنه ، والبطل الباحث والعامل المساعد ، والعامل المعوق . ولاستخلاصها فإني سأبحث عنها في كل مقطع على حدة ثم أركب بين ذلك جميعاً حتى أحصل على بنيات مشتركة تكون مقدمة لاستخلاص بعض النتائج .

المقطع الأول :

الآمر	الموضوع الثمين	المأمور
(الراية ـ الهيئة)	(تغيير الواقع)	(النزوات والشهوات)
العامل المساعد	البطل	العامل المعوق
(الأنصار ـ الحيل ـ المكر)	(الانسان)	(فقدان الهوية)

المقطع الثاني :

الآمر	الموضوع الثمين	المأمور
(هيئة التنظير)	(العبور)	(المريدون)
المساعد	البطل	المعوق
(الخطابة ـ المظاهر)	(المنظر)	(التشتت)

المقطع الثالث :

الآمر	الموضوع الثمين	المأمور
(الدائرة)	(الاقناع ـ التحكم)	(الصفوف)
المساعد	البطل	المعوق

(موقع القرب)	(المهرج)	(موقع البعد)

المقطع الرابع :

هو تكثيف رمزي يلخص المراحل الثلاث الضمنية في المقاطع الثلاثة السابقة ولذلك فهو عبارة عن :

بداية	وسط	نهاية
(مرحلة الاختيار)	(مرحلة الانجاز)	(مرحلة التشريف) أو التبكيت

المقطع الخامس :

الآمر	الموضوع	المأمور
(الكيان المتكلم)	(الشهرة)	(الكلمات)
(العامل المساعد)	(البطل)	(العامل المعوق)
(الضجيج)	(المتكلم)	(بداية النهاية)

فلأركِّب الآن بين عوامل المقاطع جميعها ، وهي :

الآمر (أو المرسل) : الراية ـ الهيئة
هيئة التنظير
الدائرة
الهيئة المتكلمة

المأمور (أو المرسل إليه) : النزوات
المريدون
الصفوف
الكلمات

العامل المساعد : الأنصار ـ الحيل ـ المكر
ـ الخطابة ـ المظاهر
ـ موقع القرب
ـ الضجيج

العامل المعوق : ـ فقدان الهوية
ـ التشتت
ـ موقع البعد
ـ بداية النهاية

الموضوع الثمين : - تغيير الموقع
- العبور
- الاقناع للتحكم
- الشهرة

البطل : - الانسان
- المنظر
- المهرج

الداجن - العاجز عن الكلام

يستخلص من تركيب العوامل علاقة الخصوص بالعموم ، فهناك تدرج يتجلى في (العامل المرسل) ، وهناك عوامل تأتي كأسباب لإشباع رغبات العامل الأول (المرسل إليه) ، وهناك اتجاه نحو العجز (البطل) . هناك تقدم ، إذن في نُمُوِّ القصيدة ، ولكنه بطيء ، ولذلك يكاد القارىء يجد نفس العوامل تتردد في صيغ مختلفة .

III - تـــركيـــب :

على أن هذا الحوار العميق هو افقي بالنسبة لما يتحكم فيه ويسيره وهو المقصدية - الاجتماعية أي كل خلفيات الشاعر الثقافية والسياسية والاقتصادية ، فمقصدية الشاعر - اجتماعية توجِّهُ تناسل النص إذن وتحدد نوعيته ، وشكل المهارات التي يصوغه بها . أمام هذه القناعة اتجهت إلى استكشاف آليات تناسل النص موظفاً مفهوماً اجرائياً أساسياً هو : « الانسجام » أي أني أفرض أن هناك علاقات تركيبية ومنطقية ودلالية وزمانية - فضائية تربط بين اجزائه ، عَلَيَّ أن أفسرها إذا كانت ظاهرة ، وعليّ أن اجتهد في الكشف عنها إذا كانت خفية .

لتحقيق هذه الغاية استخدمْتُ مفهوم « الكلمة - المحور » التي لا تلبث أن تتحول إلى الجملة - المنطلق . وحين ينتقل النص من تشاكل إلى تشاكل يَمُرُّ بالجملة - القنطرة ، أو الكلمة - الرابط . وتتلاقى تفاعلات هذه الآليات جميعها في الجملة الهدف التي تكون في نقطة ما من النص .

وقد نتبين من خلال الرصد أن عنوان القصيدة (قصائد إلى ذاكرة من رماد) هي : غربة الماء + العبور + تناوب النباح + شمس هرمة + سيدة الضوء ، فالمقاطع إذن ليست إلا تمطيطاً للعنوان وتقليباً له في صور مختلفة أو إن شئت أَقُولُ : إنَّه تكثيف لها ، كما أن كل مقطع كان يخصص المقطعَ الذي يسبقه بكيفية ما .

وسأعبر عن هذا برموز ، مبتدئاً من الظاهر إلى الخفي مما سينتج عنه متغيرات تؤول في الأخير إلى ثابت واحد .

1 ـ المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الرابع	المقطع الخامس
(1 ـ ب)	(ج ـ د)	(د ـ هـ)	(و، ز)	(ح، ط)

فهذا المتغير يبين أن العلاقة الوحيدة هي الموجودة بين المقطع الثاني ، والمقطع الثالث ، فهما اللذان يشتركان في (د) أي أنهما يتحدثان عن موضوعة واحدة ، هي (المنظر ـ ذو اللسانين) .

2 ـ المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الرابع	المقطع الخامس
(أ، ب)	(ب ـ ج)	(ج، د)	(هـ، و)	(ز، ح)

يبين هذا المتغير العلاقة بين ثلاثة مقاطع إذ تشترك في (ب، ج) ، وعلى هذا فكل منها يسلم إلى الآخر . وتحقيقاً لهذه الغاية فقد عُودِلَتْ « الراية » بـ « الانسان » أي أن الأمر أصبح على الشكل التالي : (الانسان ، الانسان المنظر ، الانسان ذو اللسانين) ، ولكن العلاقة تبقى غير واضحة بينها وبين المقطعين اللاحقين .

3 ـ المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الرابع	المقطع الخامس
(أ، ب)	(ب، ج)	(ج، د)	(د، هـ)	(هـ، و)

يتبين من هذا المتغير أن المقاطع القصيرة جميعها أصبحت بينها صِلاَتٌ حميمة ، كل منها يأخذ بيد جاره . ولم يتوصل إلى هذه النتيجة إلاّ بالانتباه إلى موضوعة (الهيمنة على اللغة) في المقطع الرابع ، وَمَوْضُوعة (الكلمات) في المقطع الخامس فالحاصل هو :

(الانسان ، الانسان المنظر ، الانسان ذو اللسانين ، الانسان المهيمن على اللغة ، الانسان المستعمل لكلماتها) أي أن الموضوعة العامة أو التشاكل ـ الرسالة ، هُو وسيطُ اللغة وكيفية استعمال الانسان لها .

إن تناسل النص على هذه الخَطِّيَّة هو الطبيعي ، إذ لا بد من تشابه واختلاف ، لأنَّ كل جملة يكون لها اشتراك واختلاف مع ما يليها ، وكذلك كل مقطع ، ولكن الأمر ليس على هذا المنوال في الخطاب الشعري الذي يمتاز بدورية المعنى وكثافته كما تجلى ذلك فِيمَا رصدناه ، إن على مستوى الكلمات أو التراكيب أو الدلالة ، وإن على مستوى العوامل .

لتوضيح هذا ، ارجع إلى الحاصل السابق :

الانسان　　الانسان المنظر　الانسان ذو اللسانين الانسان المهيمن على اللغة
(أ،ب)　　(أ،ج)　　(أ،د)　　(أ،هـ)

الانسان المستعمل لكلماتها :
(أ،و)

فالمغايرة ليست إلا تمطيطاً وتنويعاً لمنطلق واحد ، ومن ثَمَّةَ ، فتقدم الخطاب الشعري يتم على أساس يمكن أن يشبه بالدَّوائر التي يكون تقاطعها أكثر من استقلالها .

وبالضرورة فإن رصد هذا على مستوى النص ككل يمكن أن يوجد على مستوى كل مقطع أيضاً .

ولذلك ، فإنه ينبغي أن لا يخدع القارىء بما يجد من تعدد المواضيع داخل المقطع الواحد ، ففي « غربة الماء » : هناك حديث عن الراية ، وحديث عن الدم وحديث عن الماء .
(أ،ب)　　(ج،د)　(هـ،و)

ولكنه حين ينظر إليه بواسطة الجملة ـ القنطرة ، والكلمة الرابط يصبح الأمر على الشكل التالي : الراية ـ الانسان ، الانسان ـ البرق ، البرق ـ الماء . ولكن عند التأمل يجد المرء أن
(أ ، ب)　　(ب ، جـ)　(جـ ، د)
الراية والبرق ليسا إلا رمزين للانسان ، وحينئذ فإنه ينتج تراكم واضح ملح على هذه الموضوعة : (أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د) وإن أريد التدقيق ، فإن الوضع كما يلي : (أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د)
1　　2

أي أن هناك تخصيصاً وتفريعاً للمنطلق وليس هناك إعادة صرف له .

يمكن أن يلتمس هذا على مستوى كل فقرة في بعض المقاطع ، ففي « غربة الماء » ثلاث :

+ من س (1 - 3) .
(أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د) I فقرة الراية
(1)　　2

+ من س (4 - 9) :
(أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د)، (أ،د) = فقرة الصراع (الدم بالدم)
1　　(2)　(3)

+ من س (10 - 19) :

(أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د) استحالة البرق إلى رماد .
(1) (2)

وفي « شمس هرمة » فقرتان اساسيتان هُمَا :

1 ـ الحديث عن الدفتر من س (1 - 14)، 2 ـ والحديث عن الشمس
(أ،ب) (ج،د)
من س (15 - 22) .

وعناصر الأولى هي : (أ،ب)، (أ،ج)، (أ،د)، (أ،هـ). . . (أ،و). . . (أ،ز).
(1) (2) (3) (4) (5)

وعناصر الثانية هي : (أ،ب)، (أ،ج). . . (أ.د)، (أ،ج + أ،د) = تكثيف .
1 2 2 1

وفي « سيدة الضوء » يوجد :

سيدة الضوء من س (1 - 6) ، والكلمات والأشياء ، من س (7 - 10) .
(أ،ب) (ح،د)

وسيدة الضوء من س (11 - 21)
(ب، أ).
(1) (1)

ولتوضيح الصلة يمكن أن يقال :

الصحة واللمعان ، الكلمات ، النهاية بالكلمات
بالكلمات

(أ،ب)، (ب،ج)، (ب،أ)

إذن ، (أ،ب)، (أ،ج)، (ب،أ) = أتى الضرر مما يعتقد أن به النفع[13] .
1 11

وبعد فإني أظن أن القارىء يستخلص من هذا التحليل أن تناسل هذا النص تم بكيفية دورية ، فقد رآها تحققت معجمياً وتركيبياً ، ودلالياً وعوامل ، على أنه إذا كانت الدورية محايثة لأي نص شعري ، فإن مقصدية الشاعر واجتماعيته ـ وعياً منه أو بدُون وعي ـ عمقتها وألحّت عليها ، ويكفيني أني أوضحتها ، وللمؤول إذا أراد ، أن يعطيها أبعادها ودلالتها .

---

(13) هذا التحليل استفاد من « نظرية العمل التواصلي » بعد أن كيفها وأدخل عليها بعض التعديل .

ملحـــق

قصائد إلى ذاكرةٍ من رماد

1 ـ غُرْبَةُ المَاء

رَايَةٌ تَتَنَاسَلُ أَوْ تَتَمَزَّقُ في صَخَبٍ وَثَنِيٍّ
غَدَتْ رَايَتَيْن
غَدَتْ مِزَقاً
كُلَّمَا اشْتَعَلَتْ لَعَنَتْ أُخْتَهَا
تَغْسِلُ الدَّمَ بِالدَّمِ بِالفَرَحِ الهَمَجِيِّ
أَكَانَ انْهِزَاماً
لِمَنْ ؟
أَوَ كَانَ انْتِصاراً
عَلَى مَنْ ؟
فَهَا أَنْتَ ذَا أَيُّها البَرْقُ بَعْدَ اشْتِعَالِكَ
تَسْكُنُ بَيْنَ رَمَادِكَ ،
كَالمَاءِ في الكَأْسِ
يَفْقِدُ ذَاكِرَةَ البَحْرِ ، زُرْقَتَهُ
يَتَحَوَّلُ مِنْ كَائِنٍ سَرْمَدِيٍّ
التَلَوُّنِ وَالْهَيَجانِ
إِلَى جَسَدٍ دَائِرِيٍّ
غَرِيب عَنِ اللَّوْنِ وَالمَوْجِ
يَسْكُنُ بَيْنَ الزُّجَاجِ
وَبَيْنَ النُّزُوعِ إِلى البَحْرِ . . .

2 ـ العُبُــور

كَانَ يَعْقِدُ مَجْلِسَهُ لِينَظِّرَ،
قَلَّبَ أَوْرَاقَهُ
وَهْوَ يَمْسَحُ لِحْيَتَهُ
وَيُدَخِّنُ غَلْيونَهُ الآبنوسِيَ ،
كَانَ يُفَكِّرُ
كَيْفَ يُغَيِّرُ
مُعْجَمَهُ وَتَراكِيبَهُ،
كَيْفَ يَعْبُرُ
مِنْ مُطْلَقٍ لُغَوِيٍّ
إِلى مُطْلَقٍ لُغَوِيٍّ . .
رَأَى فِي عُيُونِ المُرِيدِينَ
أَسْئِلَةً وَكَلاَمَا
فَقَالَ : انْظُرُوا
فِي مَعَانِي المَعَانِي ،
انْبُذُوا الكَلِمَاتِ
الَّتِي للتَّوَاصُلِ أَوْ لِلْقَطِيعَةِ . .
حَتَّى إِذَا حَمِيَ المَجْلِسُ النَّظَرِيُّ
وَلَعْلَعَ صَوْتُ السِبابِ وَنَعْتُ الخِياناتِ
فَانْكَسَرَ الجَمْعُ،
عَنْ دَغَلٍ خَرَجُوا :
فَفَرِيقٌ نَجَا بِخِيَانَتِهِ
وَفَرِيقٌ مَضَى فِي المَجَامِعِ
يَمْسَحُ لِحْيَتَهُ
ويُدَخِنُ غلْيُونَه الآبْنُوسي .

3 ـ تَنَاوبُ النُّبَاح

لَيْسَ يَشْكُو ازْدِوَاجِيَةً أوْ فُصَاماً
وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ ذُو لِسَانَيْن

أَوْ هُوَ إِنْ شِئْتُمُوا مُلْتَقَى لُغَتَيْنِ
فَيَكْتُبُ أَوْ يَتَحَدَّثُ
مِنْ مَوْقِعِ القُرْبِ وَالبُعْدِ
مِنْ جَسَدِ الدَّائِرَة ،
فَإِذَا اشْتَعَلَ القُرْبُ
فَلْتَسْتَكِنْ أَيُّها الحَرْفُ
وانْطَفِئِي في المَوَاقِفِ أَيَّتُهَا الذَّاكِرَة ،
وَاسْتَحِلْ يَا سَوَادُ بَيَاضاً
وَكُنْ أَيُّها الشَّرْقُ غَرْباً
فَعَيْنُ الرِّضَى تَلِدُ اللُّغَة العَاهِرَةْ ،
وإِذَا اشْتَعَلَ البُعْدُ
لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الرِّضَى والنُّبَاحِ
سِوَى رَكْلَةٍ
ثُمَّ يَأْخُذُ نَوْبَتَهُ ذُو اللِّسَانَيْنِ
بَيْنَ الصُّفُوفِ
لِيَبْدأَ في لُغَةِ النَّبْحِ
مِنْ خَارِجِ الدَّائِرَةْ .

4 ـ شَمْسٌ هَرِمَة

دَفْتَرٌ مَدْرَسيٌّ قَدِيمٌ
أَعُودُ إِلَيْهِ
أُقَلِّبُهُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ
أَقْرَأُ فيهِ حَيَاتِي الصَّغِيرَةَ،
كَانَتْ حُرُوفِيَ
مَائِلَةً في البِدَايَةِ
ثُمَّ اسْتَقَامَتْ
عَلَى الصَّفَحَاتِ الأَخِيرَةِ
أَقْرَأُ كَيْفَ تَغَيَّرَ
كَيْفَ غَدَا وَرَقاً اصْفَراً

اسْتَحَالَ المِدَادُ عَلَيْهِ
تَنَاثَرَ بَيْنَ رُسُومِي الكَثِيرَةِ ،
حَيْثُ وَقَفْتُ طَوِيلاً اقْرأُ
عِنْدَ دَوَائِرَ بَيْنَ سَمَاءٍ وَمَاءٍ ،
هِيَ الشَّمْسُ دَائِرَةً
كُنْتُ أرْسُمُهَا
تَتَولَّدُ عِنْدَ الشُّرُوقِ
لِتَكْبُرَ
ثُمَّ لِتَهْرَمَ عِنْدَ الغُرُوبِ
فَأَرْسُمُ أُخْرَى،
وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ وَالحُلْمِ
كَانَتْ حُدُودُ رُسُومِي الأَثِيرَة

5 ـ سَيِّدَةُ الضَّوْء

كُنْتِ فَوْقِي كَدَائِرَةِ الجُبِّ
لاَ أَتَبَيَّنُ مَا خَلْفَهَا ،
ضَجَّةٌ تَتَرَدَّدُ في المُنْتَأَى
لَمعانٌ تَوَهَّجَ بَيْنَ السُّجُوفِ
فَيُشْعِلُنِي التَّوْقُ
بَيْنَ اليَقِينِ وَبَيْنَ السُّؤَالِ
هِيَ الكَلِمَاتُ
فَمَا بَالُهَا لا تُبينُ ؟
هيَ الأَشْيَاءُ
فهل تَسْتبينْ ؟
لَقَدْ كُنْتِ لي بَيْنَ بَسْمَلَتِي وَصَلاتي
سَيِّدَةَ الضَّوْءِ
ذَاكِرَةَ المُنْتَهَى
كُلَّمَا أَوْغَلَتْ بِي الرُّؤَى في الغُيُوب ،
وحِينَ عَلاَ في المَدَارَاتِ صَوْتُ الهُرُوب

تَبَيَّنَ أَنَّ الضَّجيجَ
مَوَاثِيقُ لِلْجُرْحِ لاَ لِلْوَفَاءِ
وَأَنَّ التَّوَهُّجَ فِي اللَّمَعَانِ
ابْتِدَاءُ انْتِهاءِ
وَأَنَّكِ سَيِّدَتِي
كُنْتِ لي . .

الفصل الرابع

سيرورة النص الصوفي

1 ـ تحديد :

سنستعير التعريف الذي تقدمت لنا صياغته في مقال سابق[1] لما تبين ، لنا من مناسبته لوصف الكتابة الصوفية وتبيان مقاصدها ، كما أننا سنعتمد عَلَيْه في المبادىء العامة مع بعض التعديل ، وذلك أنه لم يطرأ جديد كاف حتى نُعَدِّلهُ كلياً ، أو نستغني عنه جملة . وتحديد الكتابة الصوفية أنها :

تهدف إلى تكوين إنسان كامل بطرق خاصة في سياق معين . والكتابة ، كما هو معلوم ، جنس تدخل تحته أنواع متعددة ، مثل الكتابة الفقهية والكتابة الكلامية (نسبة إلى علم الكلام) ، والكتابة الشعرية ، والكتابة النحوية . . . فالكتابة الصوفية إذن جزء من كل ، تشترك مع هذا الكل في وسيلة التعبير ، وهي اللغة الطبيعية (اللغة العربية) ، وضروري أن يكون لكل كتابة من هذه الكتابات خصائص بنيوية تميزها عن غيرها ، فما هي هذه الخصائص البنيوية والوظيفية التي تجعلنا ندعو كتابة ما بالكتابة الصوفية ؟ أيرجع ذَلِكَ إلى الأغراض التي يتناولها مؤلف ما مما درج على تسميته بالأغراض الصوفية ؟ أم يرجع ذلك إلى المعجم الصوفي وكيفية إستعماله ؟ ليس ذلك وحده ولا هذا ، وإنما لا بد من توفر أركان أربعة في كل كتابة ، ومنها الكتابة الصوفية . وإذا ما اجتمعت تلك الأركان جميعها في أية كتابة فإنها حينئذ تكون جنساً نقياً غير مَشُوب بغيره . والأركان هي : الغرض المتحدث عنه ، والمعجم التقني ،

(1) محمد مفتاح ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، العدد 2 ، 1977، الرباط ، من 5 - 26 .

وكيفية استعماله ، والمقصدية وهذه جميعاً تكون وحدة غير قابلة للتجزئة ، فمثلاً إذا تناول مؤلف بعض الأغراض الصوفية ، ولم يستعمل المعجم الصوفي في سياق يلائمهُ فكتابته ليست بصوفية كالكتابة الفلسفية ، فهي مع تناولها بعض المواضيع المشتركة بينها وبين التصوف مثل البحث في الحواس الخمس وما الحق بها ، وفي النفس والقلب والروح ، وفي البحوث البرهانية لإثبات وجود الله . . . فليست بها . كما أن الذي يَسْتعيرُ القاموس الصوفي ولا يستعمله في غرض من الأغراض الصوفية المتعارف عليها فلا تمس كتابته كتابة صوفية مثلما نجد في الشعر الذي يستمدُّ من القاموس الصوفي وإذا هدفت كتابة ما إلى بعض مقاصد الكتابة الصوفية، ولم تستعمل لغتها ، ولم تطرق أغراضها فليست بها كالكتب الاصلاحية ، وإذا ما تناول مؤلف ما الأغراض الصوفية كلا أو جزءاً ، واستعمل القاموس نفسه ، ولم يقصد ما يهدف إليه التصوف فكتابته ليست بصوفية كما نجد في مؤلفات الحب .

على أن الكتابة الصوفية أنواع متعددة : منها كتب طبقات الصوفية والشعر التعليمي الصوفي ، والرجز الصوفي ، والشعر الذي قيل في غرض التصوف ، والكتب التعليمية الصوفية ، والمؤلف الصوفي الذي يجمع بين دفتيه غالب أنواع الثقافة العربية وكأنه من كتب الأدب العام .

ومعنى هذا أن ليس هناك كتابة صوفية صرف ، إذ منها ما يشترك مع التاريخ ، ومنها ما يتداخل مع الشعر ، ومنها ما يظن القارىء غير المطلع أنه كتاب للأدب . وهكذا فالتداخل يقع كثيراً بين نوعين أدبيين أو أنواع ضمن مؤلف واحد ، والحكم الفصل ، في هذا الشأن ، هو الغالب بالقياس إلى النوع الصرف إذا وجد فإن لم يوجد يتخذ القصد أساساً للتمييز مع تعزيزه بعنصر آخر (أو أكثر إذا أمكن) من العناصر الأربعة المذكورة .

وسنقتصر هنا على دراسة نوعين من التأليف الصوفي أحدهما كتب الطبقات الصوفية ، وثانيهما قصيدة من الشعر التعليمي الصوفي .

ولنبدأ بكتب الطبقات . فمن خلال تسمية القدماء لها ، نعلم أنهم أدركوا أشياء ما تجمع بينها جعلتهم يصنفونها تحت إسم واحد ، وبتعبير حديث أنها نوع أدبي يخضع « لمجموعة قواعد متواطأ عليها Preexistant لتوجيه فهم القارىء (الجمهور) ، والسماح له بتقبل تقويمي »[2] ، على أن القواعد المذكورة منها ما هو ضروري ، ومنها ما هو اختياري ، كما أن

---

(2) Hans - Robert jauss, (Littérature médiévale et théorie des genres), poétique, 1970, pp 79 - 99. et aussi: T. Van dij K, Modèles génératifs en théorie littéraire ,'Essai de la theorie du texte, Paris, 1973. p Paris, 1973.p 72.

القارىء قد يكون موجوداً فعلاً ، وقد يكون ضمنياً . ومهما يكن فمؤلف هذه الكتابة يَتَّخِذُ استراتيجيّة وتحركات مضبوطة ليكون خطابه مقنعاً وذا سلطة .

2 ـ بين الكتابة التاريخية وكتابة الطبقات الصوفية :

وتتشابه هذه الكِتابة مع الكتابة التاريخية من حيث القصد الايديولوجي العام ، أي : المحافظة على هدف تعاليم الإسلام الداعي إلى وحدة الأمة ، ومن حيث الشكل كذلك : لقد أكد كثير من الباحثين أن الكتابة التاريخية ، وخاصة عند كبار رجالاتها مثل الطبري كانت غالباً لا تسرد إلا الروايات التي تسهم في المحافظة على وحدة الأمة وكانت ، لذلك ، تتجنب الروايات الدَّاعية إلى الشقاق ، والتشرذم[3] فكذلك كتب الطبقات الصوفية ، فهي تعتمد على السند وهي « تمحصه » ثم تقبل منه مَا لا يحدث تفرقة وبدعة في الدِّين ، فابن الزيات يقول بصدد مصادره : «وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة ، والخير والصلاح والمستورين ما استطَعْتُ ، وربما ذكرت بإسنادي ما نقلته من ذلك ، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة فاعتمدت على أصحها سنداً وأقربها إلى الصواب لفظاً »[4] . وكان صاحب المنهاج يضرب عن ذكر ما يخشى منه أن يفتن بعض السامعين من الفقراء الجهلة[5] ، كما أنهم كانوا يضربون عن ذكر الخوارق والمعجزات والكرامات التي تحدث شغباً بين أفراد الأمة أو المجموعة ، وجعلوا ، كذلك ، كرامات الصوفية وخوارقهم مستمدة من معجزات الرسول وكرامات الصحابة والتابعين ليبرهنوا على اتباعهم لا ابتداعهم وكانوا يستشهدون بالسلف : أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم وهذا يعني الاندراج ضمنهم إيديولوجيا ، والبرهنة بذلك على حقيقة ما يقالُ وما يفعل[6] . وكانت مصادرهم النصية ذوات الحجة البالغة التي لا مرد لها : القرآن والحديث وأقوال حجج الاسلام مثل الغزالي ، وأكدوا هذا الاستناد السلفي بالسند الصوفي الذي كانوا غالباً ما يرجعونه إلى الرسول أو إلى أحد صحابته ، تثبيتاً للشرعية وبرهاناً ساطعاً على الدخول ضمن الجماعة . فهذا النوع ، إذن مِنَ الكتابة الصوفية ، وما تتضمنُهُ مؤلفاتُهُ من طوائف ، وما تُمارسُهُ تلك الطوائِف من أفعال ، وما تتخذه من شارات ، وما تتعاطاه من علوم ، يُرجع بها كلها إلى المصدر والمعين بهدف إثبات وحدة التعاليم وصحتها وشرعيتها . كما أن هذا النوع يتطابق مع التاريخ في صيغة الخطاب ، فكلاهما تاريخ يحكي عن ماض ، ومن ثمة ، فإن كلا

---

(3) Voir - Ali Oumlil,,1979, p 37.

(4) ابن الزيات ـ التشوف ، إلى رجال التصوف ، الرباط 1958، ص 4 .

(5) حفيد أبي محمد صالح ـ المنهاج الواضح ، ص 4، وتحقيق كرامات الشيخ أبا محمد صالح مخ رقم 674 د .

(6) M. ARKOUN, 1970,p 140. 1973, pp 135 - 231.

منها يستعمل ، غالباً ، اللفظ الخاص بسرد التاريخ وحكايته وهو الفعل الماضي المجرد من العلامات الدالة على المتكلم ، وكأن خطابه يَسْرُدُ نفسه بنَفسه[7] . وتكون حصيلة هذا جمل حِكائيّة « محايدة » ، مما يطمئن القارىء بل « يخدعه » بأن المؤلف محايد فيقبل ذلك الخطاب بدون تردد، وفي هذا تتجلى استراتيجية الخطاب التاريخي الماهرة إذ تهدف إلى الاقناع باستدلالات خاصة . على أن كتب الطبقات الصوفية تظهر استراتيجيتها واضحة للعيان لوضوح استدلالاتها إذ تعتمد على القرآن والحديث ورؤية النبي في المنام ، واتباع سلف الصوفية ، والنقل عن « الثقة » واختيار « أصح » الأسانيد ومشاهدات المؤلف وإقحام المؤلف نفسه بقوله « حدثنا » ، وهو اقحام يفيد مزيد تأكيد على « الحقيقة » ، ونوعاً من البرهان عليها ولا يطعن فيها . فكل من الخطابين تعليمي اقناعي بطريقة قد تختلف بعض الاختلاف . وكل خطاب تعليمي يفترض فيه أن يتضمن ما يعلم ، والعلم إما أن يكون عاماً مُتَلقّى بالقبول من الجميع لِما فيه من حقائق مُجْمع عليها ، وإما أن يكون يعبر عن اهتمامات فئة معينة تشعر بذلك ، ويكون هدفها توصيل خطابها إلى فئة معينة وإقناعها به ليس غير (الخطاب العلمي والتعليمي) ، وإما أن تكون طموحة فتريد أن يعم خطابها كل أفراد المجتمع فتقع مجابهة بينها وبين فئات أخرى ، لأن خطابها لا يدل على حقائق يقينية وإنما يعكس رُؤْياها ، كالخطاب الديني والصوفي . . . ففعالية الخطاب إذن وسلطته وإحداثه التأثير المرغوب تتوقف على معرفة منطلقات المتكلم (المرسل) والمخاطب (المرسل إليه) . ولهذا ، كلما كانت المنطلقات المشتركة كثيرة أو موحدة كانت فرصة التفاهم أكثر وفعالية الخطاب أعمق . ولهذا نجد ، في أول الكتب المؤلفة في طبقات الصوفية ، ما يمكن أن يطلق عليه اسم « العقدة » بين المؤلف والمؤلف إليه[8] ، إذ يبين بعضهم أنه طلب إليه إخوانه في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين[9] ، أو يريد أن يزيد المريد قوة في الأمل وحرصاً على العمل[10] أو إفادة علم لمن يجهل[11] وقد حاول منظرو نظرية التداولية «Pragmatique»أن يضعوا قواعد وشروطاً ليصل الخطاب إلى مبتغاه ،

---

(7) Voir, E. Benveniste **Problèmes de linguistique générale,** (les relations de temps, le verbe français), Paris, 1966, pp. 237 - 751.

(8) **Voir, A.J. GREIMAS, Sémiotique et sciences sociales** (Le contrat enonciatif). PARIS, 1976.p 24. André helbo, L'enjeu du discours lecture de Sartre (Le contrat, du jeu à la communication), PARIS, 1978. p.23.

(9) ابن قنفد ، أنس الفقير ، وعز الحقير ، ص A مخ رقم 524. د (خ،ع)

(10) ابن تجلات ، اثمد العينين ، ونزهة الناظرين ومناقب الأخوين ، ص 2 مخ رقم 935 (خ ـ ع) .

(11) ابن الزيات ـ التشوف ، ص 3 .

أهمها : أن القارىء يرغب في التأليف والمؤلف يدرك هذه الرغبة . أن ما يتضمنه المؤلف يستطيع المخاطب به أن يقوم به ويرغب في ذلك، وصاحب التأليف يدرك ذلك . وإذا ما كان هذا الاتفاق حاصلاً فإن الكلام يبلغ إلى كل مقاصِده[12] . ونعتقد أن هذا لا يتحقق إلا في مجتمع بِدَائي أو عند فئات قليلة أو في مجتمع بلغت فيه اللبِرالية درجة لا يكاد يتصورها العقل . والمهم هنا أن الخطاب الصوفي واجهته فئات قوية مثل السلطة والفقهاء والمعتزلة . . لأنه كان موجهاً ضدها سياسياً واديولوجياً ومصلحياً . وقد أفاض القول مني هذه النقطة الباحثون في لسانيات النص «Text lingnistics» .

3 ـ تاريخ البطـل :

على أن أهم ما يختلف فيه « تاريخ » رجالات الصوفية عن التاريخ الرسمي هو الموضوع المتحدث عنه وما يتسم به من كرامات وخوارق ، ويعني هذا أنه يخضع لاطرادات احتمالية واطرادات عامة تميزه عن الخطاب التاريخي . ويمكن اجمال مواضيعه المحورية ، بعد أن نقوم بعملية اختزال وتصنيف ، في محورين أساسيين :

1 ـ التحدث عن البطل وبطولاته (الكرامات) ومناقبه وأصله النبيل وطريقته وكبواتها وانتصاراتها .

2 ـ الاطار ، ونقصد به مكان تجلي بطولاته وزمانها[13] ، والكتب المؤلفة في هذا الشأن دليل على هذا التصنيف وتأكيد له . وأول دليل عناوينها : مثل « التشوف إلى رجال التصوف » و « أنس الفقير وعز الحقير » و « اثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين » ، و « المنهاج الواضح في تحقيق كرمات أبي محمد صالح » . وثاني دليل مضمونها « فاثمد العينين » يخصص الباب الثامن ، والتاسع والعاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر ، والتاسع عشر للحديث عن البطل ، وجعل صاحب « المقصد » القسم الثالث لذكر المشاهير من « كل مرضي أدين ما بين زمان عصر المؤلف وزمن أبي مدين » ومحور « أنس الفقير » ترجمة أبي مدين ، و « المنهاج الواضح » يقوم على أقطاب ثلاثة ، والقطب الثاني والثالث في ذكر حياة الشيخ وكراماته . وسنفصل القول في هذا ، فيما بعد . وأما الآن فنتعرض لما دعوناه بالقوانين المحتملة التي تميز هذه الكتب من غيرها ولكن بنسبة متفاوتة ، وأهمها :

---

(12) Voir François Récanati, la transparence et L'enonciation, pour introduire à la pragmatique, 1979, p.178.

(13) Voir, Michel de certeau, 1975,pp 274 - 288.

أ ـ الاستشهاد بالشعر :

فابن الزيات كثيراً ما كانَ يستشهد بالشعر، عقب كل ترجمة أو أثناءها، وكأنه يسوقه بمثابة دليل إضافي، وكذلك البادِسِي الذي ذكر أنه التزم اقتضاب أبيات من الشعر عقب كل شيخ تناسب أحواله كل المناسبة ، وفعل مثل هذين ابن قنفذ وابن تجلات. على أن أغلبهم كان لا يقصد من الاستشهاد بالشعر إقامة الحجة ، فالثابت لدى الفقهاء والأصوليين أنه لا يصح احتجاج بما ليس بديني على ما هو ديني ، وإنما الهدَف منه إثارة العواطف والانفعالات خدمة للغرض العام ؛ فابن الخطيب يعلل استكثاره من الشعر « لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها »[14] ولذلك كثيراً ما كانوا يصاحبون إنشاد الشعر بالألحان وذكر للهوى وأوصاف المحبين ليؤثروا في المتعلم[15] ؛ فوظيفة الشعر ، إذن عملية وعلمية . وقد جَلاَ هذه الوظيفة الشاطبي في كتابه « الموافقات » فرأى أن الصوفية « ينتزعون معاني الأشعار ويضعونها للتخلق بمقتضاها وهو في الحقيقة من الملح لما في الأشعار الرقيقة من إحالة الطباع وتحريك النفوس إلى الغرض المطلوب ، ولذلك ، اتخذه الوعاظ ديدناً وأدخلوه في أثناء وعظهم »[16] ؛ وارتباط الشعر بالدين والسِّحْرِ والكهانة والموسيقى ظاهرة عامة لدى جميع الشعوب ، ولذلك كانت لَهُ لُغَتهُ الخاصّة ويغتفر فيه ما لا يغتفر في الكلام النثري من ضرورات وتجوز في اللغة « فإذا كان التكرار في اللغة العادية لا يغير دلالة الخطاب فحسب بل يسيء إليه إذ يكون تَحْصيل حاصل (. . .) فإن الحال ليست كذلك في الشعر ، فالوحدات الشعرية غير قابلة للتكرار فإذا ما أعيدت فليست هي »[17] ولهذا كله ، تزول غرابة إدْخال الشعر ضمن المؤلفات الصوفية وتطريزها به حتى ليمكن أن يقال إنه كاد الاستشهاد به أو على الأصح الاستئناس به أن يُصْبح قاعدة مطردة لا تتخلف .

ب ـ الحكايات وذكر الأمثال والأخبار :

فابن تجلات ضمن كتابه جوامع كلم قصاراً ، وخصص الفصل السادس عشر للوصايا والأمثال من أقوال الحكماء ، و« المنهاج الواضح » فيه مواعظ وحكم للنصيحة[18] ، وذكر ابن قنفذ أمثالاً وأخباراً أوردها مختصرة . وقد علل ابن الخطيب إيراده للحكايات بأنَّها تُجْري دموع

---

(14) ابن الخطيب ، روضة التعريف بالحب الشريف ، ص 108 (1970) الدار البيضاء .

(15) المصدر السابق ، ص 278 .

(16) الشاطبي ، الموافقات . . (ج: 1، ص 40).

(17) Voir, Kristeva Julia; Recherche pour une semanalyse, PARIS, 1959, pp 258 - 259.

(18) حفيد أبي محمد صالح ، المنهاج الواضح ، ص 59 .

المريدين وتؤثر في قلوب العارفين وتهيّج مواجد المحبين[19]، فتورد، إذن ، بقصد هذه الوظائف لا باعتبارها حجة ، فقد اعترف بعدم صحتها في قوله « وإلا فهذه الأنماط من الشعر والحكايات ضعيفة » ، وأما الأمثال فكانت تورد ، لنجاعة تأثيرها وسهولة حفظها .

ج ـ الحديـــث :

فقد قدمنا أن الحديث كان من أدوات المؤلفين في التصوف لإقامة الحجة على شرعية ما كانوا يقومون به ، وكانوا يستدلون به ولا يتحرون صحته ، لأنه إذا كان صحيحاً فذاك وإذا كان موضوعاً فمغزاه ومقصوده هو الأهم أي الأصلح ، ولسنا في حاجة إلى القول بأن كتب المؤلفين في التصوف زاخرة بهذه الأحاديث الموضوعة ، فقد « وضعوا أسانيد خيالية تحث على الصلاة والتوبة والحب الإلهي ليذيعوها في الناس »[20] ، وقد أورد المُحَاسِبِي والغزالي في كتبهما كثيراً منها ، وقد أثارت هذه الأحاديث الموضوعة نقاشاً في مختلف العصور بين المتصوفة والفقهاء المتشددين في التحري ، وقد انتقل هذا النقاش إلى الغرب الإسلامي فسجل في كتب الفتاوى [21] ؛ وسواء حصل هذا في المشرق أو في المغرب فإن الموقفين يعكسان وجهتي نظر مختلفتين ، فالفقهاء يرون أن كل ما خرج على السنن الصحيح ، وخرق قوانين التحديث ، وتمرد على قوانين التعديل والتجريح بدعة وضلالة ، وكذب وبهتان ، وأما المتصوفة فإن « المهم لديهم فيما يستشهد به ليس الحرص على إيراده كلمة كلمة أو أن فلاناً أو علاناً هو أول من قاله ، وإنما هو بمثابة مثل يقبله السامع ويتذوقه وكأنه قاعدة حياة[22] ولذلك فإن أغلب الأحاديث التي يوردها المؤلفون في التصوف مراسل أو أحاديث قدسية أو تتعلق بالرقائق أو فضائل الصحابة أو الزهد . أي أنها تتعلق بمواضيع تتغلب فيها العبرة والحث على العمل الصالح على تحريات صحة السند والمتن .

د ـ تنوع الاستدلال :

على أن استدلالاتهم كانت تختلف من مؤلف إلى آخر ، فابن الزيات اعترف بأنه جرد كتابه من علوم التصوف واقتصر على ايراد أخبار الرجال ، في حين ذكر صاحب « المنهاج الواضح » فصولاً تكلم فيها على مرتبة الشيخ ، وتربية المريد ، وما يجب عليه وعلى الشيخ ،

---

(19) ابن الخطيب ، روضة التعريف ، (ج:2، ص 676) .

(20) L. Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, 2me ed. 1954.p 120.

(21) الرنشريسي، المعيار ، (ج: 11، ص 85) و (ج: 132,12). 1314 و / 1896 فاس

(22) L. Massignon. 1954. pp 126 - 127.

والتحريض على الخدمة . . . وخصص صاحب « المقصد » فقرأ للفقر والفقير ، والتصوف والصوفي . . . وإذا ما اختلفت كتبهم في بعض الجزئيات غير القاعدية فإنه يجب أن لا يقلل من أهمية ذلك الاختلاف بأن نعتبره نوعاً من الحشو أو التطويل الذي لا داعي له ، بل الأمْر بالعكس ، إذ بمقدار ما أضاف بعضهم شيئاً ما إلى كتابه فإنما يعني ذلك أنه يزيد دليلاً آخر لتأكيد مقصده وبلوغ مرامه ، لأن القواعد الأساسية الضرورية ، والقوانين الاحتمالية الاختيارية متكاملة ، فهي تتضافر جميعاً وَتَنْصَبُّ في جَدْول وحيد اتجاهه اقناع القارىء ، كما أن ذلك الاختلاف النسبي كان يضفي بعض التنوع على مثل تلك الكتب ويبعدها قليلاً عن النَّسْخيّة والجُمُوديّة .

4 ـ من التاريخ إلى الأسطورة :

لقد قدمنا أن لباب تلك الكتب هو تاريخ البطل وأفعاله . ونرى في تاريخها ذلك اختلاط الممكن بالمحال ، ولا يعني هذا أن خطابها لا مرجعية له في الواقع وإنما يحيلُ على نفسه . على أننا ، تجنباً ، للوضعية «Positivisme» دققنا النظر في بعض الكتب فتبين لنا أن قسطاً منها يصح أن يعتمد عليه بوصفه وثيقة تاريخية ، وهذا ما يقربها من التاريخ ، وأن قسطاً آخر منها هو أقرب إلى الأسطورة منه إلى التاريخ ،وللأسطورة أيضاً دلالاتها ووظائفها . وهذا القسط هو ما يُعْطي لهذه الكتب هويتها وتميزها ، ويتمثل في الكرامات ، والخوارق والمعجزات . فالكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة والتحدي يظهره الله على أيدي أوليائه ، وأما الخارقة فكل أمر خالف العادة وخرق نظام الطبيعة المعلوم كالمعجزات والكرامات والارهاصات ، ويطلق الخارق على ما يجاوز قدرة الإنسان لا على ما يجاوز نظام الطبيعة ، وأما المعجزة فأمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ودعوى النبوة مع تعذر المعارضة وتظهر على يد الانبياء تأييداً لنبواتهم واثباتاً لصدق رسالتهم[23] . وتشترك هذه المفاهيم في الأشياء الآتية : إنها خارقة للعادة ، وتظهر على يد رسله وأوليائه ، وتتعذر معارضتها من الانسان العادي وتكون موافقة للسنة النبوية ومصدقة لها ، وتكون أحياناً نتيجة للتحدي . ونستطيع أن نميز العادي من الخارق لطبيعة بمقياس أساسي وهو : ما أثار حيرتنا ودَهْشتنا ولا تتقبله عقولنا ولا نستطيع أن نفسره تفسيراً طبيعياً . على أن الحيرة نسبية فهي تختلف بحسب السن والمعرفة والمعتقد والبيئة فما يظهر للصَّبيّ أو الشاب الغِرّ أو الجاهل أو الملحد خارقاً فقد يرى فيه الكبير أو العالم أو المتدين أمراً طبيعياً ، والعلم والتدين أو الالحاد كلها نسبية ، فالأمر إذن ليس من

---

(23) راجع في هذه المفاهيم ، جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، (ج:2، ص 228)، (ج:2، ص 392) (ج:1، 513) وابن خلدون ، المقدمة ، مصر ، ص 353 .

البساطة بمكـان. وَلْنَسُقْ بعض الأمثلة للتدليل على ما نَقُول : ذلك أن الامغاريين تقع قرب سُكْناهم عين من المـاء الحلو داخلة في البحر عـدة أمتار ، تسمى عـين الفطر ، وبهـا سميت سكناهم فيما تزعم الأسطورة ، وهي موجودة فعلاً قبل وجود الامغاريين ولكن بعض أتباعهم كـانوا يعـدون ذلك كـرامة . فقـد حكى بعض تـلامـذتهم أن عبـد الله بن أمغـار ذهب مـع عبد الخالق ليتوضأ من البحر فتبعهم المريد الراوي ليتوضأ أيضاً ، فغلبه مـاء البحر ثم تغلب عليه بعد أن أذن له فتبعهما يمشي على الماء إلى أن وصلوا إلى جزيرة فدخلوا فيها فوجدوا عيناً من الماء ، فقال لهم أبو عبد الله هذه العين هي عين الفطر ، ورثهـا عن أبيه عن جـدّه ثم توجـه بالخطاب إلى المريد ليقول له « قد شاهدت ما شاهدت فاكتم علينا حتى نموت » فيقول الراوي « فلم أحدث بذلك أحداً حتى مَاتَا »[24] . فقد يفسر هذه الحكاية من لا يعرف جغرافية المنطقة بأن لا وجود لعين هناك ولا لماء حلو ، وإنما مغزى الكرامة هو الرغبة في الماء لندرتـه في تلك المنطقة فعبرت عن حالة نفسية وأشبعتها ، وهكذا ، فكلما تقدمت معارفنا الجغرافية والتاريخية والعلمية نستطيع أن نصل إلى المعنى الحقيقي الذي يظهر لنا في حالة جهلنا أنه خارق للعادة ، ومثل هذا ما يحكى من اضطرار إلى الماء في مكان جـدب أو صحراء قـاحلة فيذهب الصـوفي بأتباعه إلى مجمع صخر ويبدأ يُفتّش فيه حتى يعثر في وسطه على صخرة تجمع فيها الماء ، فمثل هذا الوجود للماء جائز عقلاً وعادة .

وإذا ما أردنا أن نصنف كرامات الصوفية كما تجلى في بعض المؤلفات المغربية فإنه يمكن لنا اختصارها في مفهومين أساسيين ، ونعني بهما : الدنيا ـ الآخرة . وليس بين هذين المفهومين انفصال ، وإنما بينهما جدلية ، فالرغبة في مصير المتيقن تدعو الصوفي إلى أن يتعبد من جهة ، ولأنه لا يعيش من جهة أخرى ، وحده ، وإنمـا يعيش في مجتمع لـه مشاكله وحـاجاتـه فكان يكسب ليتصدق ، ويتحرك لينقذ ، وكلا الفعلين يقوم بهما ليجازي عند ربـه الجزاء الأوفى . على أننا سنقتصر على تصنيف الكرامات التي تتعلق بهذه الحياة الدنيـا . ويظهـر لنا أنه يمكن حصرها في المواضيع الآتية :

ـ الخوف ومقاومته :

إن المجتمع المغربي كان يعيش في خوفين : من البشر ، وتمثله السلطة ، والقراصنـة ، والاعراب وقبائل بربرية راحلة وقد انتصر عليهم جميعاً فلبوا رغباته ، سواء تعلق الأمـر به أو بمن تدخل لديه ، فرداً أو جماعة ؛ ومن الطبيعة ، وكان يعتري فيها الأفراد فقر ومرض وكوارث طبيعية ، ولم يكن لهم ملجأ أو ملاذ إلا هو .

(24) ابن الزيات ، التشوف ، ص 192 .

ـ التعصـــب :

ونعني به التعصب للبلد والأقليم. وقد اعتمد الصوفية المغاربة على « الحديث » المشهور الذي ينسب إلى الرسول ، أن أهل المغرب يبقون قائمين على الحق حتى تقوم الساعة[25] ، وهكذا نلاحظ في كتاب ابن الزيات ، ومن السطور الأولى ، أنه ينوي اعادة الاعتبار إلى المغرب وتأكيد حديث الرسول . ففي المغرب طائفة عظيمة من الصوفية ولكن أهملت أخبارهم وجهلت آثارهم[26] ، وألف صاحب « المقصد » كتابه لأنه رأى ابن الزيات غمط البلاد الريفية حقها ، وهي لم تَخْلُ من كل صالح شهير . وصنف ابن قنفد كتابه ليجعل محوره أبا مدين ويسجل فيه ما شاهده في المغرب من صلحاء وأولياء، ولكن ليثبت ، وهذا هو الأهم، من كل ذلك ، سَنَدَ عائلتِهِ الصوفي واستحقاقه لوارثتهم . . . ونعلم أنه لا يثبت الصوفي جدارته وصلاحه إلا إذا أتى بخوارق تميزه عن الناس العاديين ، ولذلك كثرت الكرامات المنسوبة إلى صلحاء الجنوب وصلحاء الريف . كما كان كثير من الكرامات يرويه أبناء الصوفية وأسرهم وأتباعهم ليؤكدوا توارث الصلاح واستمرار الطائفة ، وقد يعزز ذلك بنسج كرامة تدور حول النسب « الشريف » للعائلة الصوفية ، وبالجملة فإذا ما وجدت كرامات تؤكد أمانة المغاربة (في مقابل المشارقة) وعفتهم وورعهم[27] ، وتؤكّدُ على الإقليمية أو تظهر صلاح الأسرة والطائفة ، أو تحقيق البطولة الفردية أو القبلية فإنها وضعت وضعاً .

ـ التعليميـــة :

وهناك كرامات يمكن تصنيفها تحت اسم واحد وهو العلم والتعليم . فحينما كانت تعتاص المسائل على الدارسين يتوجهون إلى قبر الصوفي فتذكر له المسألة فيتكلم من قبره ويحيلهم على مظانها ، أو يهرعون إليه إذا كان حياً مثل أبي زيد الهزميري ، الذي أغلب الكرامات المنسوجة حوله ترجع إلى حله المشاكل العلمية المعتاصة . وكانت هذه المسائل تتعلق بالعقيدة أحياناً مثل الكفار ومعرفتهم الله[28] . وأحياناً أخرى بامتداح أصول الدين وأصول الفقه ، والحديث والفقه ، والتحذير من علم الرأي . وهكذا جاء بعضها ليذم المناظرة[29] ، وذم كتاب الارشاد لأبي المعالي ومدح كتاب الأحياء . على أننا نلاحظ هنا أن الكرامة تابعة لا متبوعة ، وهذا منطقي لأنها يجب أن لا تكون متقدمة على دعوى الصلاح فإذا ما وجدنا بعضها يذم كتاب الارشاد فلأن قارئه آنذاك بَرَّزَ في الحديث والفقه[30] ، وكذلك إذْ ما وجدنا بعضاً

---

(25) ابن الزيات ، التشوف ، ص 2.

(26) ابن الزيات ، التشوف ، ص 1 .

(27) ابن الزيات ، التشوف ، ص 71 .

(28) ابن الزيات ، التشوف ، ص 64 .

(29) ابن الزيات ، التشوف ، ص 89 .

(30) ابن الزيات ، التشوف ، ص 158

آخر يرغب في درس كتاب الإرشاد فَمَرَدُّ ذلك أن دارسه كان عالم أهل المغرب في الاعتقاد[31] ؛ فالكرامة إذن تزكية وتثبيت لمختلف مؤهلات الشخصية الصوفية ، ومن ثمة يستحيل أن تأتي مكذبة لدعوى الصوفي . كما نلاحظ أيضاً ، أن هذه الكرامات مدنية أي أنها ألفت في وسط مدني تشغل كثيراً مِن وقته المناقشات المجردة . وأهم هذا الوسط كما جاء في الكرامات ، فاس ومراكش وأغمات وسجلماسة .

ـ الاقتصادية والاجتماعيـة :

ونجد في كتب الطبقات الصوفية قسماً كبيراً متعلقاً بالاقتصاد والزواج لأن الصوفية لم يكونوا منعزلين ، وإنما كانوا يعيشون مثلما يعيش الناس ، فكان بعضهم جزاراً ، وكانت مهنته تلزمه أن يبيع ويشتري ، ولكنه كان يتحرى في بيعه وشرائه . فكان يذبح تلامذته ما اشتراه من أغنام ويعدونه للبيع فيتخطفه المبتاعون[32]. وقد يمر على جزار من معارفه وكان جزاراً ورعاً يتحرى الحلال في كسبه ، فيدعو له فيبارك الله فيما يذبح[33] . وقد يخرج من منزله فيرى السوق عامرة فيدعو لأهلها بالربح فتستجاب دعوته فيصير كل تاجر في السوق يربح[34] ؛ كما نجد كرامات ضد الترامي على أرض الغير[35] ، وضد السرقة[36] ، وأما الجنس فله حظّه من الكرامات ويتبين منها أنها تعطي للمرأة حقوقها كاملة ، فهي ضد الزواج غير العدل[37] ، وهي ملحة على الأهلية في الزواج[38] ، كما أن بعضها ضد الاختلاء بالمرأة التي ليست من المحارم[39] ، وبديهي أن تكون محرمةً للّواط[40] . ومهما يكن ، فالكرامات المتعلقة بالاقتصاد بمعناه العام تشغل حيزاً كبيراً من كتب الطبقات الصوفية ، وقد بيّنا بعضها في سياق آخر ، كما أننا بيّنا هناك منزلة المرأة . والذي نؤكد عليه هنا أن الكرامات جاءت مطبوعة بالطابع المحلي ولكن هدفها هو الحث على تحري الحلال في البيع والشّراء ، والنهي عن أكل أموال الناس ظلماً وعدواناً ، والحث على احترام المرأة .

ـ التحكم في الكائنات :

وهذا من أهم المحاور التي تدور عليها الكرامات الصوفية ، لأن الصوفي الحقيقي هو

---

(31) ابن الزيات ، التشوف ، ص 179 .
(32) ابن الزيات ، التشوف ، ص 78 - 79 .
(33) ابن الزيات ، التشوف ، ص 141 .
(34) ابن الزيات ، التشوف ، ص 87 .
(35) ابن الزيات ، التشوف ، ص 115، و120 .
(36) ابن الزيات ، التشوف ، ص 80 .
(37) ابن الزيات ، التشوف ، ص 141 .
(38) ابن الزيات ، التصوف ، ص 159 .
(39) ابن الزيات ، التشوف ، ص 138 .
(40) ابن الزيات ، التشوف ، ص 104 .

الذي يمارس على الحيوانات سيطرة مطلقة فيعيش معها ويفهم لغاتها ويأمرها[41] فتأتمر . وأهم الحيوانات التي نجدها كثيراً في كتب التصوف المغربية الأسد ، فالصوفي يطرده ويضربه بالقضيب ويفتل أذنه « ويُحرّشُهُ » على مُناوئيه ، ويتبعه في انقياد تام . وكذلك الجن المؤمنة التي تقرأ القرآن ، وقد تظهر أحياناً للصوفي على هيئتها المعروفة له وقد تتنكر في هيئة حنش أو غيره . ثم حيوانات أخرى مثل الهررة والحمام ، والصرار . وأعجب ما يلقانا في هذه الكتب المخلوقات الغريبة ، وهي شيء أبيض كالطائر العظيم أو الدابة العظيمة ، أو دابة بيضاء كأنها ناقة . وتأتي الصوفي أحياناً هذه الدابة فيركبها ويطير إلى الحج ، والمهم أن كل هذه الحيوانات والمخلوقات هي جنود مجندة في خدمة الصوفي كما كانت جنوداً مجندة في خدمة الانبياء والرسل .

ـ السفريـــات :

والسياحة ركن من أركان التصوف الشعبي . وقد وضع لها المتصوفة آداباً وشروطاً وبينوا فوائدها ، ويهمنا هنا أنها لم تكن سهلة آمنة وإنما كانت تحف بها الأخطار من كل جهة ، فجاءت الكرامات أو الخوارق لتغلب الصوفي عليها فكانت تزوده بالمال والزاد والصحة والأمان وكانت تسخر له المخلوقات الغريبة ليركبها ، بل جعلته يمشي على الماء الغمر ولا يحدث له شيء . وكانت الأماكن المزورة الحج والرباطات والجبال والمغارات . وبالجملة كل ما يدعى بالجغرافيا المقدسة .

تلك أهم موضوعات الكرامات والخوارق ولكن كيف تحققت « وظهرت » لغوياً ؟ وما هي الوسائل التي كانت تتخذ حتى تتابعت تلك الوحدات الدالة ؟ يمكن حصر هذه الوسائل في الأشياء التالية :

1 ـ السند : على أن مؤلفي الطبقات الصوفية لم يسلكوا ، غالباً ، مسلك المحدثين أو المؤرخين القدامى الثقات وهذا شيء أساسي وثمين بالنسبة إلينا ، فهذه النصوص رغم الغربلة التي قام بها مؤلفوها احتفظت لنا بشيء غير يسير من الثقافة الشعبية الشفوية ، إذ كانت مصادرها النساء وقرابة الصوفي ، وأصهاره وأتباعه ، وكان لكل صوفي أصهارٌ وأتباع مما كان يؤدي إلى التنافس في الخلق والتزيد ، وكل ذلك يفيدنا في معرفة هموم الناس آنئذٍ . وكان المؤلفون شاعرين بذلك فكانوا يستعملون صيغاً تفيد احتياطهم مثل أخبرني مخبر ، وأخبرني غير واحد ، وحدثوا عنهم . . .

2 ـ وثاني الوسائل الرؤيا والرؤية : ونقصد الأحلام سواء أكانت في المنام أم في اليقظة ،

(41) Voir, T.Fahd, l'Etrange et le merveilleux. (ouv. coll). 1978 .p 126.

وهي تكون العمود الفقري لتأليف الكرامات والخوارق ، ومواضيعها هي مواضيع كثير مما سبق تصنيفه . وأما الرؤية فكانت تحصل بالليل ، أو وقت صلاة المغرب . . .

3 ـ وثالث الوسائل هو حالة عدم السواء ، وتكون في وقت الاحتضار ، أو من فرط الجوع أو من شدة العطش والحرارة ، أو توهم الحواس ، أو وسواس الشيطان . وكانت هذه الكرامات والخوارق تثير عجب الراوي والسامع والصوفي على السواء ، فتصدر عنهم ألفاظ دالة مثل تعجبت ، فلإن شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بمغيبات الأمور ، أو كان من أعاجيب الزمن ، وكان يعجب الصوفي من نفسه ، فبعد أن يسرد ما رأى أو ما سمع يعقب « وعجبت من حالي غاية العجب » ، ولربما يجعلنا هذا نفهم لماذا كان كثير منهم يمتنع عن التكلم في الكرامات أو ابدائها حتى صار من أقوالهم الشائعة : « الملتفت إلى الكرامات كعابد الأوثان »[42] ، كما كانوا يحثون أتباعهم على أن لا يتحدثوا بالأحوال الغريبة ، وإذ ما تحدث بها فقد يفر من تحدث عنه من بلده ، كما أن مغزى كثير منها ينهي عن السؤال عن الخارق . فالصوفية إذن ، كانت تتأرجح بين ضرورتين: ضرورة المحافظة على الحياة لأن السلطة والفقهاء كانوا يتابعونهم ، وضرورة نشر الطريقة وكسب الاتباع ، واشباع حاجات البيئة . ومع ذلك فقد تغلبت الضرورة الثانية في البادية ، فتعاون الخارق للعادة والممكن لبناء حكايات تهدف إلى الأمثولة لمقاومة صعوبات حياة مليئة بالخوف لأن « تاريخ الخارق هو تاريخ الخوف »[43] ، ولهذا كانت الخوارق أهم مميز لهذا النوع من غيره ، فبها يكتسب البطل بطولته ويدلل على خصوصيته ويكثر أتباعه ، ويعظم في أعين الناس عامة وخاصة ، ولهذا، حينما يذكر ، في تلك الكتب ، وصف « من أكابر الأولياء » ، أو من « الأفراد » ، أو « من الأبدال» ، أو « الأولياء » ، أو « النجباء » ، أو « الأوتاد » ، أو « النقباء » ، أو « العرفاء » ، أو « المختارين » ، أو « الغوث » تذكر معه كرامة أو خارقة ضرورة ، بعكس من لا يوصف بأحد هذه الأوصاف ، فإذا ما ذكرت أفعاله فقد تذكر له منقبة تكون في متناول الإنسان العادي . فالخارقة إذن ميثاق بين الصوفي وأتباعه ، وسدى ولحمة تضامنهم .

إنَّ الجوّ الأسطوري الذي تُضْفيه الخارقة ينعكس على المجال اللغوي ، فالالفاظ المحورية تكتسب دلالات جديدة رمزية ، أو على الأقل أحدها ، ولكن تسري عدواه إلى باقي المحاور الأخرى وهكذا يصير الزمان والمكان والحيوان وفعل الصوفي ذات دلالات أسطورية ،

---

(42) ابن الزيات ـ التصوف ، 321 .

(43) Voir, Tzvetan Todorov, introduction à la littérature fantastique, PARIS, 1970, p 39.

ولتوضيح هذا نسوق المثل الآتي[44] : فأبو تونارت ولجوط ابن ومريل الإيلاني حدثوا عنه أنه كان يصلي العشاء الآخرة بجامع تاسماطت ويبيت بمكة ، فسمع من كان ينكر ذلك ، فصلى معه ليلة العشاء الآخرة وجاء إلى الباب الجوفي (الشمالي) الذي عند الصومعة واتبعه ، فالتفت إليه أبو تونارت فقال له : اركب معي أيها الشاب فإذا هو بِدَابَّةٍ بيضاء كأنها ناقةٌ باركة عند الباب فركب وركب الرجل خلفه ، فسارت بهم (كذا) إلى أن وصل (كذا) إلى مكة فحطتهم (كذا) فعاد أبو تونارت إلى المغرب ، وأقام ذلك الرجل بالمشرق ، ولم يرجع إلى أن توفي أبو تونارت . . . فوصل تاسماطت حينئذ ، وكثيراً ما حدث الناس بهذه القصة .

فالزمان هنا مقدس أسطوري لا قبل له ولا بعد إذ حطمت مفاهيمه المتعارف عليها ، فقد وصلا من مراكش إلى مكة في وقت يسير جداً تعجز عن القيام به حتى الطائرات النفاثة الآن . وتحطم مفهوم الزمان في مجال مقدس : رباط تاسماطت ، وعند الصومعة ، وبابه الجوفي ، ومكة . وأما أداة السفر فهي هذا الكائن الغريب الذي كأنه الناقة البيضاء . وقد وقعت هذه الخارقة ـ المعجزة تحدياً من الصوفي للمنكر عليه . وقد جمعت كل مكونات هذا الخطاب الأساسية (بطل ، مجال ، زمان ، حيوان طائع ، منكر) . ونلاحظ أنها تحصل في طي تعبيرها ما يدل على أنها من نسج الخيال ؛ فالرجل لم يذكر اسمه ، ولم يرجع إلى أن توفي أبو تونارت ، واستعمال لفظ القصة . وقد نسجت للترغيب في طريق التصوف ، والترهيب من معارضته . غير أننا نؤكد أن هذا يعكس حيرتنا نحن ، فقد نجد من يسلم بهذا ويعتبره من قبيل العادي : « وكان الله على كل شيء قديرا » ، كما أن جاهل المعطيات الجغرافية قد يسلم بهذا فيظن أن مراكش قرب مكة ، والإتصال متيسر في مثل هذا الوقت الوجيز ، والشأن كذلك فيمن ليس له حس التمييز ؛ ففهم الخوارق إذن متطور ونسبي ، ولا يمكن وضعه في قوالب جاهزة ، أو إنشاء قواعد معيارية لتمييزه من غيره إلا لدى فئة معينة .

قَدْ يفهم مما سبق أن هذا النوع من الثقافة خاص بالفكر العربي بصفة عامة ، وبالفكر المغربي البربري بصفة خاصة لأن الظروف الموضوعية والذاتية حتمت ذلك ، ولنزيل هذا الفهم الذي قد يتبادر إلى الذهن نؤكد أنه خاص ، من حيث توظيف الرموز بحسب معطيات البيئة وحاجات الناس المختلفة ، وخلق رموز أخرى مشتقة منها ، وأنه عام من حيث كونه متجذراً في النفس الانسانية يبين البعد الانساني العميق للوجود ، كما تبين من الدراسات التي قام بها المهتمون بهذا النوع من الثقافة من محللين نفسانيين ، ومؤرخين للأديان ، ودارسين

(44) ابن الزيات ـ التشوف ، ص 143، 144، ترجمة ، 47 .

لآداب العجائب والغرائب[45] . ويظهر لنا أن أصله المشترك كان أساطير الفرس والتوراة والأنجيل و . . . وقد انتقل منها إلى تفاسير القرآن ما دعي بالاسرائيليات والمسيحيات ، وما دخل السيرة النبوية من قصص الأنبياء ، والأمم الغابرة . والذي نؤكد عليه هنا أن الكرامات صارت أغراضاً أدبية مستقاة من التراث ، كالحديث عن الخضر ، وعيسى بن مريم ، وانخراق العادات باجابة الدعوات ، والاستسقاء ، وجواز الماء الغمر ، والطحن بدون طاحن ، والحصول على الماء من أماكن يستحيل وجوده فيها ، والتحكم في الحيوانات والطيور . ولنوضح ببعض الأمثلة فقط ؛ فالطيور عَشّشَتْ على الغار الذي اختفى فيه الرسول لما هاجر من مكة إلى المدينة حتى خرج من محنته سالماً ناجياً . ولما أراد أبرهة الحبشي غزو مكة أرسلت عليه طير أبابيل رمته بحجارة من سجيل فجعلته كعصف مأكول . واسراء الرسول ومعراجه واستماع الجن له ، وتطوعه بالحرب مع جنوده . . . الخ ، يبين الاستمداد والامتداد .

ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن كثيراً من « كرامات » الصُّوفية وخوارقهم هي حكايات خيالية نواتها من زمن سحيق ليس لها من دلالات واقعية الا ما تؤديه من وظائف مختلفة .

إنها مثل أدب « العجائب والغرائب » ، ففي هذا النوع تلعب المصادفة ، شأن الكرامات الصوفية الخارقة ، والأحلام وتدخل الجان ، وتأثير شيء ما ، والغلط ، وتوهم الحواس ، والحمق ، دورها كاملاً غير منقوص[46] ، كما أن هناك دليلاً آخر ذا أهمية على خرافيّتها ، وهو أن كثيراً منها يخضع لتحليل المنهج السيميائي كما هو مطبق عالمياً . وسنختار بعضاً منها ونحلله لنرى مصداق ما نقول ؛ فالبطل ـ الصوفي يمر فيها بالمراحل الثلاث المعروفة ، الاختبار التّهييئي والاختبار الحاسم وقت محاولة الانجاز ، وحصول التّشْريف بالكرامة أي أن هناك ، موضوعاً ثميناً مبحوثاً عنه بدون الحصول عليه يختل التوازن ، ولا يحصل عليه بسهولة ، وإنما تكون هناك موانع وحواجز يتغلب عليها البطل فيحصل عليه فيقَعُ التوازن[47] المنشود : « حدثني داوود بن عبد الخالق قال : حدثني وين الخير وغير واحد :

Voir, Gilbert Durant, les structures anthropologiques de l'imaginaire - introduction à L'Archetypologie - fénérale. PARIS 1960.

- Voir aussi. T.TODOROV, 1970.

- Voir aussi, Michel de certau, 1975, ch V. 11 une varieté: l'edification hagio - graphique. pp 274 - 287.

(46) Voir, T.Todorov. op. cit. pp 46 - 62.

(47) = Voir. A.J.Greimas, Maupassant. La sémiotique du texte exercice pratique. PARIS, 1971.

1 ـ أن المطر احتبس في وقت نزولـه وقلت المياه فكـان الناس يـرحلون من بلادهم إلى موضع المياه .

2 ـ فأمر أبو وكيل قومه أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر .

3 ـ فقالت له زوجته : ما هذا الذي تفعله ؟ أتريد أن يتم الماء فنرحل كَمَا رحل الناس ؟

4 ـ فأعرض عن قولها .

5 ـ فلما نفد ماؤه أتت إليه ، وقالت له :

6 ـ أنظر في الرحيل فقد نفد ماؤنا .

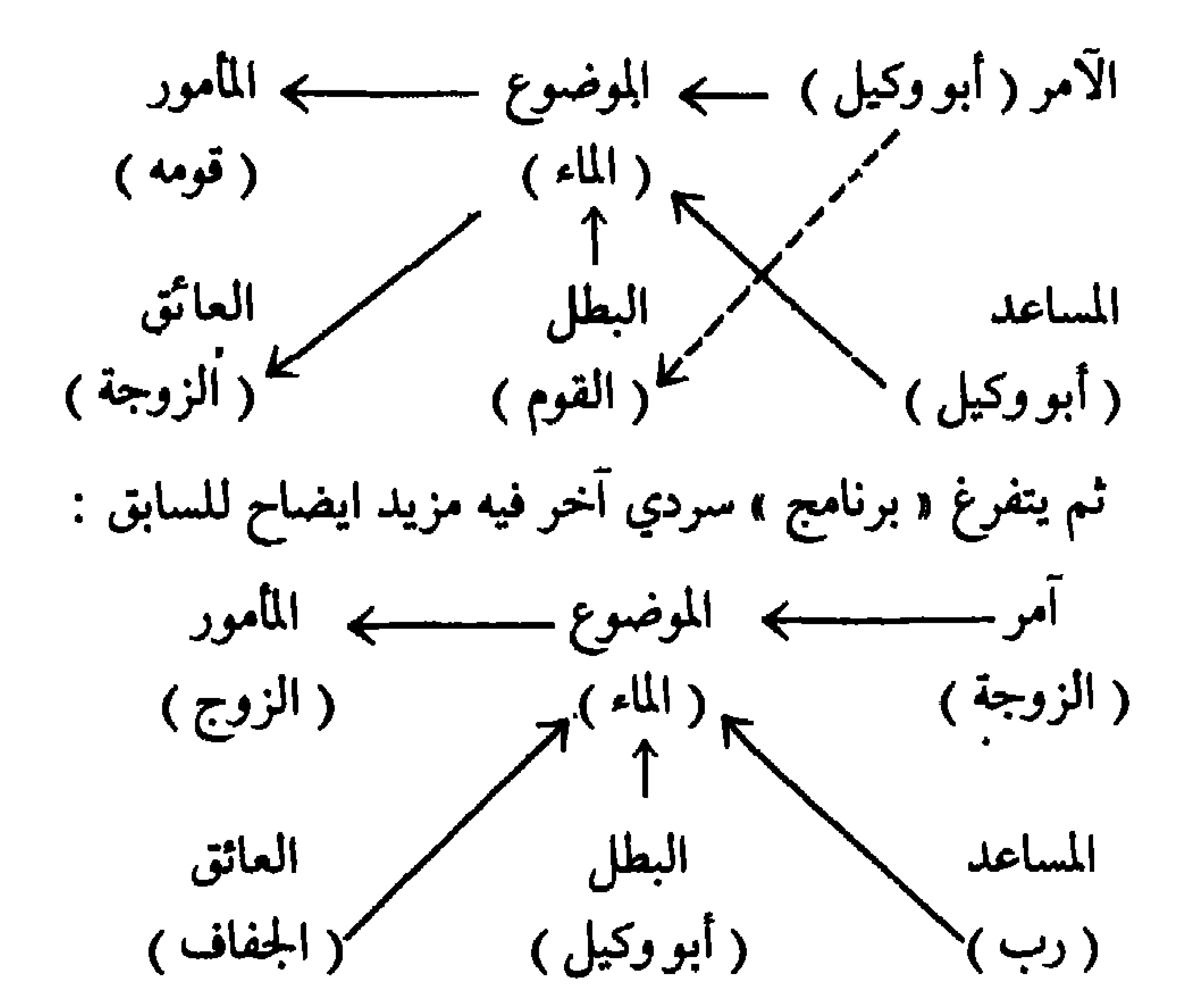
7 ـ فجاء إلى خيمته ليفضها ويرحل فأمسك حبلاً منها ورمق بطرفه السماء .

8 ـ وقال : أغثني يا رب يا مغيث .

9 ـ فنشأت سحابة صغيرة ، وهمهم الرعد وتدلى السحاب وهطل بالأمطار .

10 ـ فروى الناس وامتلأت صهاريجهم .

11 ـ فرجع الناس إلى بلادهم »[48] .



ثم يتفرغ « برنامج » سردي آخر فيه مزيد ايضاح للسابق :

آمر ← الموضوع ← المأمور

(الزوجة) (الماء) (الزوج)

المساعد البطل العائق

(رب) (أبو وكيل) (الجفاف)

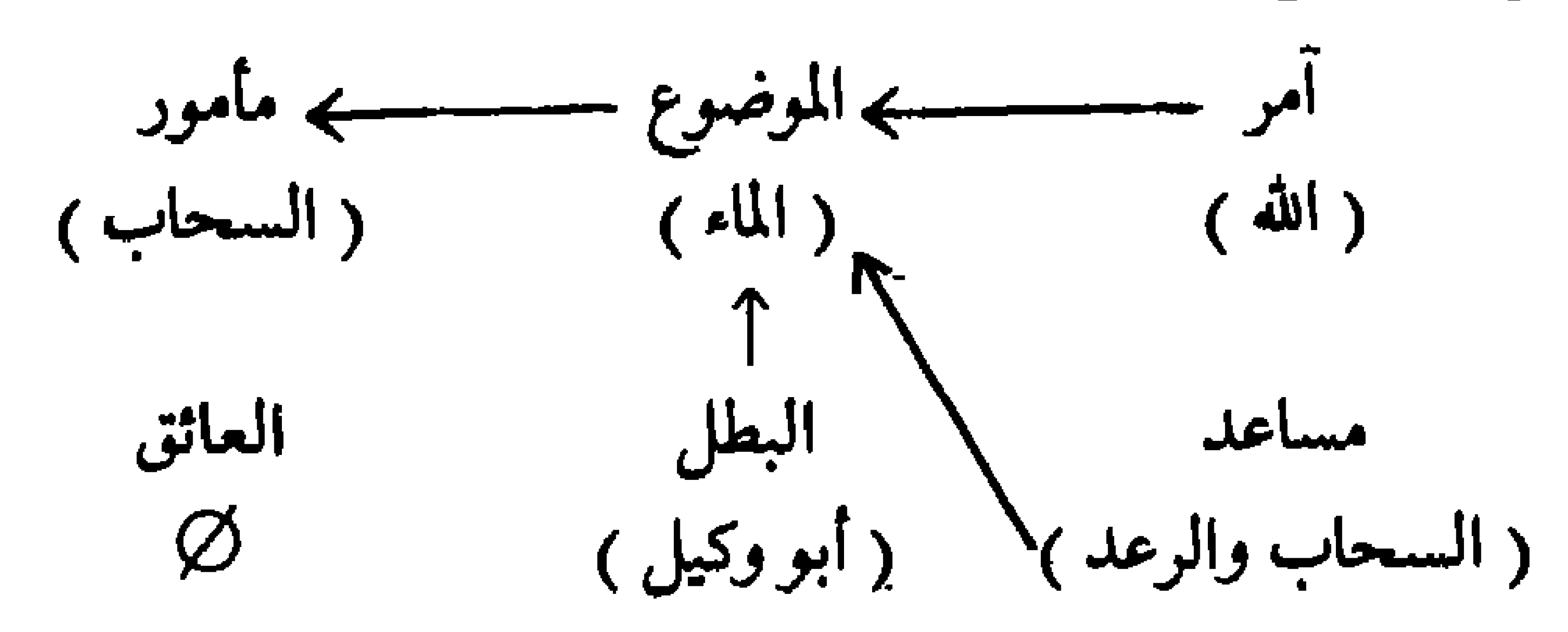
= وهناك دراسة فيها بعض التطبيق لهذا المنهج عنوانها :

Voir aussi Yvan Almeida, l'opérativité sémantique des récits paraboles. Sémiotique narrative et textuelle herméneutique des discours religieux, PARIS, 1978.

Voir aussi, pour comprendre les lectures nouvelles Linguistiques et pratique textuelles (ouv. coll) Paris 1978. pp 23 - 43.

(48) ابن الزيات ، التشوف ، ص 219. ترجمة 88 .

ثم يتفرغ « برنامج » ثالث توضيحه :



نستنتج من هذا بعض الملاحظات : أن البحث متعلق بشيء ثمين وهو الماء ، فلم يفارق موضعه واستمر الالحاح عليه باعتباره محور الرغبة أو البحث إلى أن قضي الأمر وحصل عليه .

ان هذه الكرامة تبدأ بالقولين المتعارف عليهما في التحليل السميائي ، ونَعْني قول الحالة المعبر عنها في الجملة الأولى بفعل « كان » وما يقوم مقامه في العربية مثل الاضافة ولام الملك . . . وقول الفعل المعبر عنه بـ « احتبس » ، وقد نتج عن هذه البداية نتائج لاحقة متوقعة تتمثل في حصول شكلين من العلاقات بين الذات (أبي وكيل ، والقوم) والموضوع (الماء) حالة القوم :

1 ـ (ذات $\vee$ موضوع)
2 ـ (ذات $\wedge$ موضوع)

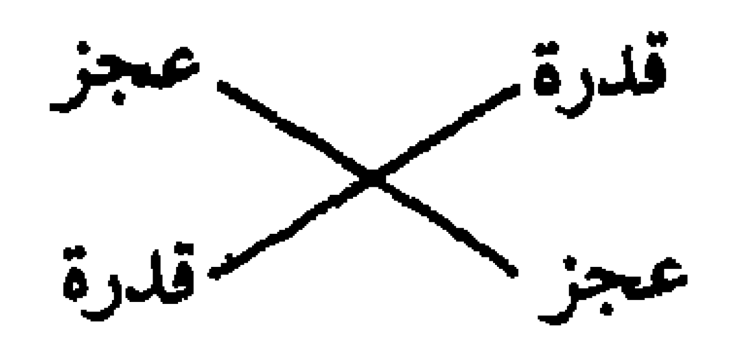
وأما حالة الشيخ فكانت عكسية :

1 ـ حالة الملك (ذات $\wedge$ موضوع)
2 ـ حالة الفَقْدِ (ذات $\vee$ موضوع)

وهكذا وقع هذا التحول من حالة إلى أخرى والذي يمكن تلخيصه على الشكل التالي :

(ذات $\vee$ موضوع) ← (ذات $\wedge$ موضوع)
(ذات $\wedge$ موضوع) ← (ذات $\vee$ موضوع)
ثم (ذات $\vee$ موضوع) ← (ذات $\wedge$ موضوع) في النهاية :

وقد أحدث ما سبق قدره لابي وكيل ، أولاً ، حققت : انتقال الماء الثمين الى القوم العاجزين الذين لم يستطيعوا فعل شيء ، كما أن الزوجة عجزت عن أنْ تثنيه عما صمم عليه . ثم تحولت قدرته ، ثانياً ، الى عجز ، فإلى قدرة ، وتبيان ذلك :



أي على التوالي : (ذات ∧ موضوع) (ذات V موضوع)
(ذات V موضوع) (ذات ∧ موضوع)
وتعني علامة V الفقد وعلامة ∧ الملك .

ـ إن الأمر الحقيقي والمسيطر المطلق هو الله فبأمره فعل أبو وكيل ما فعل ، كما أن أمره النهائي لم يكن له راد ولا مُعَارِض

ـ أن البطل الحقيقي هو أبو وكيل ، وأما قومه فلم ينلهم من البطولة إلا شيء ناتج عن بركته وبطولته .

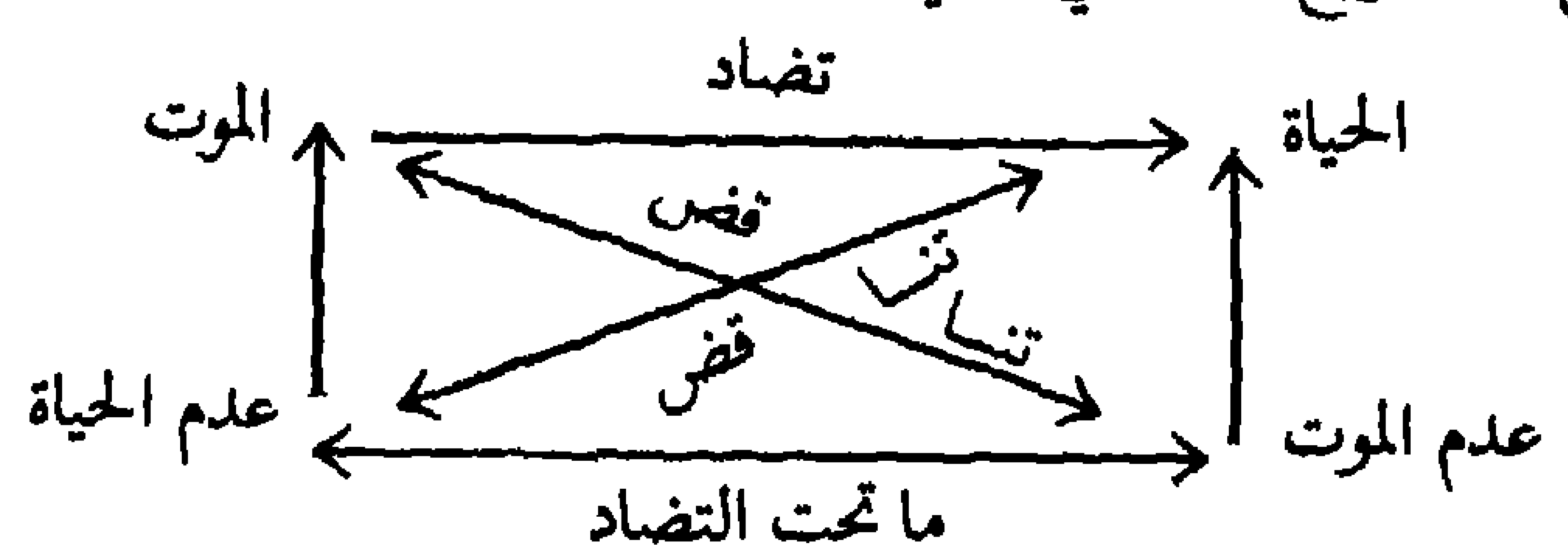
ـ أن العائق الواضح هو الزوجة ، فهل لرمز الزوجة هنا دلالة ثقافية تعني أنها عنصر شر ؟

ـ أن هناك دورية في التقمص ، فقد يصير الأمر مأموراً وقد يصير العائق مساعداً .

كما أن في هذه الكرامة إحدى المقولات الأساسية المتعلقة بالمكان والزمان مما ينتج عنه التقابلات الآتية :

المكان		الزمان		
داخل	خارج	قبل	اثناء	بعد
(الاستقرار)	(الترحل)	نفاد الماء	نفاده	نفاده
فوق	تحت			
(السماء)	(الأرض)			
(السحاب)	(الماء)			
(الله)	(البشر)			

كما أن مؤداها الآخر هو المحافظة على الحياة بالمحافظة على الماء مما يعطي تقابل : الحياة / الموت ، وينتج عنه المربع السميائي الآتي :

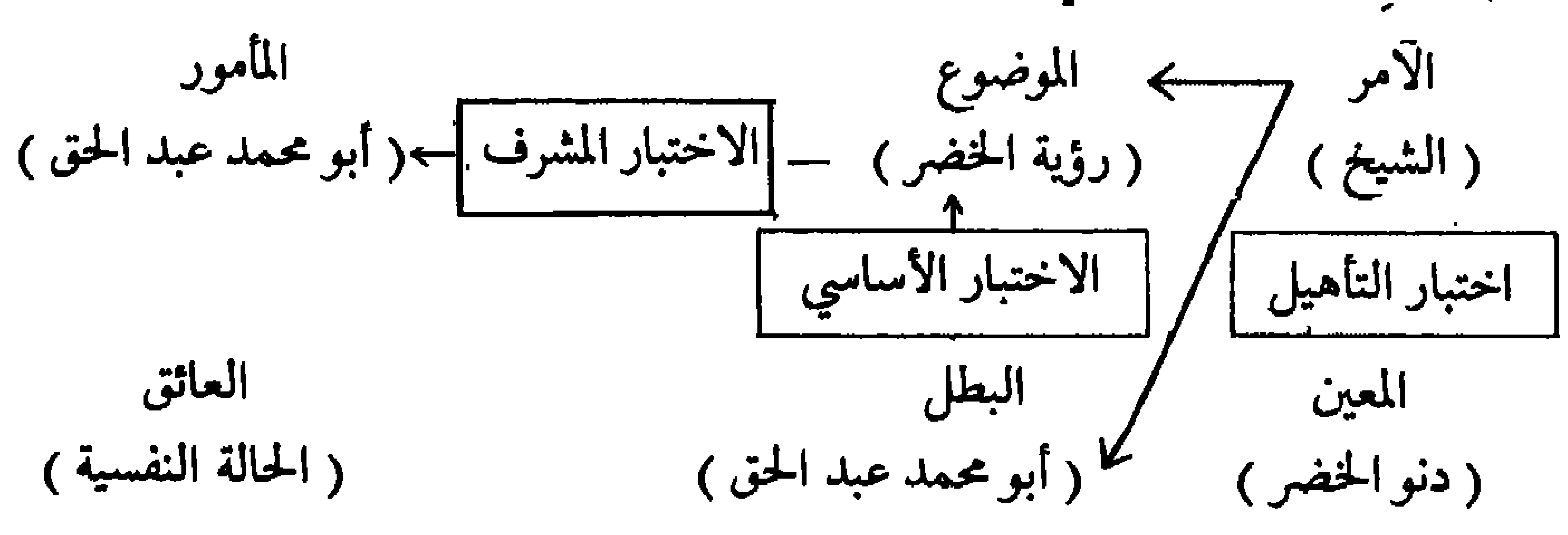


فالرغبة إذن في المحافظة على الحياة والخوف من الموت هي أساس هذه الحكاية الخارقة وبهذا يصدق ذلك القول « تاريخ الخارق هو تاريخ الخوف » .

ولْنَسُقْ مثلاً آخر : « حدثني أبو عبد الله محمد بن أحمد الزناتي قال : لما عاد أبو محمد عبد الحق إلى مراكشِ قلنا له : كان الحجاج يتحدثون عنك بالعجائب ، فأخبرنا عن أعجب ما رأيته في مجاورتك : فقال لي : خدمت بمكة شيخاً من المجاورين مدة فقال لي يوماً أتريد أن ترى الخضر عليه السلام ؟ فقلت له من لي بهذا ؟ فقال هو رجل طوال ، من صفته كذا وكذا ، فقلت له أرنيه ، فقال لي : لا يمكنني ذلك . ولكن أرقب هذه الصفة عند الطواف ، فإذا رأيت رجلاً على هذه الصفة فهو ذلك ، فبقيت طوال الليل أتوسم الوجوه ، فلما كان وقت السحر رأيت رجلاً على هذه الصفة التي وصف لي ، فدنا مني حتى تأملته ، فلم أقدر أن أكلمه ، فقمت أدنو منه وهو يمشي القهقرى ، وأنا أدنو منه ، وهو يبتعد مني وأهاب أن أكلمه ، ولم أطق أن ألحقه حتى خرج من باب ابراهيم عليه السلام ، فخرجت في أثره ، فنظرت يميناً وشمالاً فلم أره ، فعدت إلى الشيخ وقلت له : رأيت رجلاً من صفته كذا وكذا . فقال لي هو ذاك[49] .

فلنحلل هذه العجيبة على ضوء المنهاج السيميائي ، وأغلب عناصره متوفرة وهي :

آمر (وهو الشيخ) حدد موضوع البحث ، وموضوع البحث (هو الخضر) ، ومأمور اتفق مع الأمر على رضية الخضر (وهو أبو محمد عبد الحق) . وموانع منعته من الكلام معه (حالته النفسية ، ومشي الخضر القهقرى) ومساعِد وهو دنو الخضر . كما أننا نجد فيها وضعين ابتدائي ونهائي وبينهما اختبارات ثلاثة . وهي هذه : اختبار التأهيل وهو خدمة الشيخ بمكة وفوزه بثقته ، واختبار أساسي وهو بحثه طوال الليل إلى وقت السحر وتردده بين الأحجام والأقدام ، وتغلب الشجاعة أخيراً . واختبار تشريفي حصلت فيه رؤية الخضر ؛ وهكذا فكل من المِنْهَجيْنِ السردي والوظيفي يتكاملان في هذه العجيبة كما ينتج من التبيان الآتي :



(49) ابن الزيات ، التشوف ، ص 212. ترجمة 82 .

ولنأخذ مثلاً آخر يبين بطولة الصوفي وانهزام القوات المضادة له ، رغم توفر القوة المادية لها « حدثني مخلوق بن ياسين عن أبي علي منصور أن أبا زكرياء أمره بعض أصدقائه بالخروج من البلد خوفاً عليه ، وكان الحرس على باب المدينة ، فخرج عليهم ولم يشعروا به حتى بعد عنهم ، فقالوا متى خرج علينا هذا ؟ فاشتدوا ليدركوه فأخطأوا الطريق التي أخذ فيها فلم يدركوه ، ولم يقفوا له على أثر فسلم منهم »[50] نرى في هذه الحكاية « برنامجين » سرديين : أحدهما متعلق بالسلطة ، وثانيهما متعلق بالصوفي :

(1)	الآمر (السلطان)	⟵	الموضوع (العوفي)	⟵	المأمور (الحرس)
			↑		
	المساعد ∅		« المنهزم » بادىء الأمر		العائق (الكرامة ـ الله القدر)
(2)	الآمر (الصديق)	⟵	الموضوع (النجاة)	⟵	المأمور (الصوفي)
			↑		
	المساعد (الكرامة)		البطل الصوفي نهاية الأمر		العائق ∅

وقصدنا من تحليل هذه الأمثلة القليلة ، ومثلها كثير في كتب الطبقات الصوفية لنثبت أنها حكايات هدفها الأساسي إظهار بطولة البطل ، واندحار كل العراقيل التي تقف ضده فهي أمثولة ، إذن ، للترغيب والترهيب ، ولأسطوريتها ، فهي مليئة بالمعاني ، ولكنها معان باطنية ، ولذلك يخطىء من يأخذها على ظاهرها مفسراً إياها بكيفية وضعية ، كما أن من يهملها بعده إياها هذراً من القول ، ولغو حمقى مخرفين يبتر جزءاً من التاريخ العميق لمجتمع ما .

قد يصدق على هذا النوع من التأليف قول الأستاذ أركون ، بصدد دراسة العجيب في القرآن . « ونستطيع أن ندرس (العجب) في القرآن ، وكأنه مجال لاسقاط المعتقدات ، وضروب الهوس ، وأحلام الشعور الاسلامي الذي خضع ، عبر تاريخه ، إلى ضغوط

---

(50) ابن الزيات ، التشوف ، ص 213 - 214 . ترجمة 84 .

نفسانية ، ولغوية متنوعة أشد التنوع وأقواه »[51] ، إن هذه الكتب يمتزج فيها الطبيعي بالعجب ، والتاريخ بالأسطورة . ذلك أن فيها وقائع تاريخية ، وفيها أساطير يمكن تمييزها بمقاييس لغوية ومنهاجية ، وليس هذا مستحيلاً في جلها إذ تحمل بين ثناياها دلائل تشير إلى أسطوريتها. وهكذا يصبح ضرورياً ، والحالة هذه ، تناولان : تحرٍّ تأريخي بمقارنة ما ورد فيها بكتب التاريخ والطبقات وغيرها للتأكد من صحة ما ورد فيها أو عدم صحته . وتناول لغوي ومنهجي لما ورد فيها من غرائب ، وعجائب ، وقصص ، وحكايات ، لاستخراج البنية الذهنية لفئة معينة في عصر معين . كما يجب أن يعار الانتباه إلى الفروق الموجودة بين المؤلفات في هذا الفن . فمن خلال ما اعتمدنا عليه لاحظنا أن « التشوف » و « المقصد الشريف » ، هما اللذان يكثران من سرد الكرامات الخارقة في حين أن « أنس الفقير » و « أثمد العينين » تقل فيهما . ومهما يكن ، فهذه الكتب جميعها لا تخلو من خوارق ، باعتبار الخارقة هي صلبها وجوهرها ، ولكنها تختلف من حيث الكثرة والقلة ومواضيعها . كما أن مؤلفيها كلهم كانوا يقومون برقابة ذاتية ، ما أمكن ، لإبعاد ما لا يتلاءم مع المعتقدات « العالمة » السَّائِدَة [52] .

5 ـ بين الخطاب الشعري الصرف والخطاب الشعري التعليمي الصوفي :

أ ـ فضاء القصيدة :

تؤكد كل الدراسات القديمة والمحدثة على أن ما يميز الشعر من غيره هو الوزن والقافية والايقاع والتصوير والاهتمام بالتعبير في حد ذاته أكثر من المضمون ، أي أن الرسالة الشعرية تكون هدفاً في حد ذاتها[53] . وعلى هذا ، فإن السلوك الصوفي المصاغ شعراً يجب أن يندرج ضمن قواعد الكتابة الشعرية النوعية من جهة ويجب أن ينفصل عنها من جهة أخرى ، فهذه القصيدة أي رائية الشريسي موجهة للتعليم بصفة جوهرية ، كما أن بعضاً من معجمها هو لغة خاصة ، والموضوع المتحدث عنه من طينة خاصة كالشيخ والمريد والمقامات والأحوال . وأول ملاحظة تثير انتباهنا في هذه القصيدة خُلُوُّها من البداية المعروفة من ذكر اسم الله والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة على الرسول والتوجه بالخطاب إلى سائل التأليف . ومن حيث مواضيعها فهي تُرَكِّزُ على محاور معينة في حين أن من جاء بعد من المؤلفين حصر الكلام في خمسة

---

(51) M.ARKOUN, L'étrange et le merveilleux dans l'islam médieval. (ouv colle). 1978. p. 15.

(52) M. ARKOUN, op. cit. p. 20.

(53) Daniel Delas et jacques Filiolet, linguistique et poétique, Paris, 1973.

- IOURI Lotmah, la structure de texte artistique, paris ., 1973.

فصول[54] ، 1 ـ في أصله . 2 ـ في فصله . 3 ـ في أحكامه . 4 ـ في الرّدّ على من رده . 5 ـ في تطوره . ويتناولون عادة في باب الأحكام تسعة أشياء :

1 ـ حكم الشيخ والمشيخة ، ومعنى الشيخ .

2 ـ حكم الاجتماع .

3 ـ حكم اللباس .

4 ـ حكم الأكل .

5 ـ فيما يلزمهم من الأدب عند الاجتماع .

6 ـ حكم السماع .

7 ـ حكم السير والقدوم على المشايخ والأخوان .

8 ـ حكم السؤال .

9 ـ حكم المريد. ومعنى الارادة وفائدة الشيخ وتدريجه المريد إلى أن يصير شيخاً . وأما الشريسي ، فلم ينظم إلا مسائل تتعلق بباب الأحكام جمعها في 140 بيتاً وهي علامات الانتباه الخمس (من 1 - 13) ومن (14 - 21) في علامات الشيخ من (22 - 25) من يسأل ويدل على الشيخ . من (26 - 49) حالة المريد مع الشيخ . ومن (50 - 97) في مقامات المجاهدة والمحاسبة ، والمراقبة والورع ، والزهد ، والتوكل ، والعبودية ، والمحبة . ومن (131 - 136) في مقامي الفناء والبقاء . ومن (98 - 130) في وصف الفناء والقرب والتجلي ، والشوق ، والبسط ، والقبض والغلبة والمحو والاثبات ، والقرب ، والتجريد والتفريد والحضور والغيبة . ومن (137 - 140) ما للخواص في الدنيا من حق اليقين . تلك هي بداية القصيدة ونهايتها ، فهي إذن تشغل من الفراغ حيزاً له نفس الهيئة التي للعمل الهندسي، فكلا الأمرين : النص المكتوب والعمل الهندسي ، يتعلق الأمر فيها بتنظيم مكاني يقرأ في زمان[55] . وقد نظم معلوماته في بحر الطويل .

ب ـ تقنية التأليف :

ما هي الوسائل والطرق التي سلكها لتبليغ مقصده إلى القارىء وإقناعه بما يقول له . ولتبيان هذا يجب أن نفكك القصيدة إلى عناصرها لادراك سر صناعة المؤلف في جمع مواده وتركيبها ؛ وأول مادة علينا أن نهتم بها هي المعجم الوظيفي الذي أعطى طابعاً خاصاً لقصيدته ، والملاحظ أن معجمه فقير إذا ما قيس بالرصيد الأساسي للمادة ومع ذلك طالت

---

(54) أرجوزة ابن البناء السرقسطي ، المباحث الأصلية عن جملة الطرق الصوفية مخ 84 22 د (خ،ع) .

(55) Y. Almeida, 1978. p 139.

قصيدته ، فكيف تم ذلك ؟ يرجع ذلك إلى تكرار المصطلحات عبر أبيات مختلفة ، ولكن التكرار وحده لا يفسر الطول ، وإنما تفسره أشياء أخرى منها غلبة اللغة العادية وكثرتها ، فلم تكن تلك الألفاظ الاصطلاحية إلا بمثابة نواة يقيم عليها بناء بيت أو أبيات . ومنها اعتماده على المقابلة وجعلها عنصراً أساسياً في بناء قصيدته وهي أنواع عديدة منها مقابلات مقولية مثل ، الجمع ـ الفرق ، المحو ـ الاثبات . الغيبة ـ الحضور . ومقابلة لغوية عادية ، الدنيا ـ الآخرة . الكسر ـ الجبر . الطي ـ النشر . الصفو ـ الكدر . البرد ـ الحر . . . وقد تكون هذه المقابلة صريحة كما رأينا وقد تكون ضمنية مثل الخير ـ الشر . الراشد ـ الطفل . الصوفي ـ غيره .

وقد لجأ أحياناً إلى ما يدعى في البلاغة العربية بالجناس بمختلف أنواعه . فهو يطالعنا في أول بيت من القصيدة : البر ـ البر . البشر ـ النشر . الحجر ـ الحجر . . . أو يذكر الفعل ثم مصدره ـ ذكرت ـ ذكر أقرع ـ قرع ، جانبه ، مجانبة ، نأى ـ نأى . أو يشقق عدة صيغ من الكلمة : الورع ، ورع ، متورع . أنحاء النحاة فتنتحي . واستعمل أحياناً تكرار الجمل : فصبر . . . فصبر . . . فصبر . . . وأكثر من الجمل التي لا يتم معناها إلا بجمل أخرى مثل الجمل الشرطية : إذا ، وأن ، ومن . . . إذ تذكر أداة الشرط ، وفعل الشرط . ثم الفاعل ظاهراً أو مقدراً فالجملة الجوابية في البيت نفسه أو في الذي يليه إذا لم تحذف للعلم بها (1، 2. 4. 5. 11 . . .) ومثل أن وأخواتها وكان وأخواتها (27,28,39 ...) وكذلك الأسماء الموصولة (64,9) . والجمل المنهية مثل : فما . . . إلا . فما هو . . . إلا . وإن كان إلا . . .

وقد استعمل كثيراً من أنواع المجاز ، كالمجاز المرسل والاستعارة . ونعلم أن الاستعارة من مكونات الرسالة الشعرية الأساسية ، وهي تستعمل لاغراض كثيرة درسها بعض الباحثين[56] . منها : الاقناع والتجميل ، وإبراز المعاني العقلية في الصور الحسية لكمال البيان ، ودفع المخاطب للانتباه إلى المقدمات والحجج . ووردت الاستعارة قصيرة أحياناً مثل « يرى البشر » وطويلة أحياناً أخرى مثل : « نشرت على العلياء ألوية الفخر » « فورود يرد الكسر في غاية الجبر » . وذكر مقام التوبة ثم تشبيهه بباب مغلق يطرقه المريد متضرعاً يفتح . وتشبيه المرغوب فيه بالعَقل . والنفس بالطفل الرضيع وذكر الفطام ، وشم رائحة الفقر ، والصوفي طائر له وكر . . . وطبيعي أن هذه المجازات يسرت للشاعر أن يطول قصيدته إذ كان

---

(56) Voir. Michel de Guern, sémantique de la métaphore et de la métonymie (les motivations de la Métaphore). PARIS 1972; pp 66 - 76.

- R. Jakobson, Essai de linguistique générale, Paris. 1963, pp 240 - 248.

- Jean molino et autres la métaphore, langage, 12 année, juin, 1979 No 54.

كلما ذكر لفظة مجازية إلا وصار يضيف لها أوصافاً ترشيحية ، فإذا ذكر النظم ذكر الحروف والأسطر ، أو إذا ذكر كأس المحبة أتبعه بالشربة السارية سري الماء في الغصن النضر . . .

على أن الشاعر ليس مبتدعاً لكل ما ذكر وإنما في كثير منه كان مسيّراً لا مُخيراً ، فهذه القصيدة هي إنتاج وإعادة إنتاج ، ومن ثمة فإن مؤلفها قام بعملية هدم وبناء أي أنها تكونت مما علق بذاكرته من معلومات ومحفوظات . وكما سنلاحظ فإن كثيراً من أبياتها مأخوذ من مجالات معرفية مختلفة . وقد اهتم النقاد العرب القدامى بهذه الظاهرة فأسموها أسماء مختلفة مثل الاقتباس والتضمين والسرقات . . . الخ ، على أن الدارسين المحدثين نظروا إلى هذا في آفاق أخرى ووضعوا مفهوم « تداخل النصوص » أو التناص «Inter textualité»[57] . فالنظر إلى نص كانتاجية يعني أن نعتبره من حيث هو إعادة بناء لأقوال جاءته من مناح متعددة . ولعل هذه المقدمات أكثر صدقاً على مثل هذه القصائد التعليمية ، إذ هي في جوهرها تركيز واختصار لمعلومات معروفة متداولة فهي تقدم بمثابة جرعة مركزة لمتعلم . وأهم احالات الشاعر إلى ما يلي :

* القرآن مثل قوله :

« فيبدو مقام التوب وهو ممهد   فدونك فاقرع بابه قرع مضطر »

فهذا يحيلنا إلى القرآن   «أمن يجيب المضطر إذا دعاه »

ومثل قوله :

« ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته   ولا تجهروا جهر الذي هو في قفر »

فإنه يحيل إلى :

« ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض »

ومثل قوله :

« فلو قال طافي النار ، والنار جمرها   له لهب يَرْمي الشرارة كالقصر »

« فإنه يشير إلى : ترمي بشرر كالقصر   كأنه جمالاتٌ صفرٌ »

ومثل قوله :

« ولي منه بشرى لو حللت بقعرها   أبت لي أن أدري ببرد ولا حر »

ينظر إلى « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »

---

(57) أشهر من أهتم بهذه الظاهرة كريستفيا . وصار رأيها هذا متداولاً . أنظر :

- Y. Almeida, 1978. 141 - 142.

- M ARKOUN, 1973. p 189.

ولكن بعض الدراسات الحديثة تجاوزت هذا المفهوم . انظر فصول الكتاب .

* **الاقتباس من معاني شعر الحب وغيره مثل قوله :**

فـإن رقـيب الالـتفـات لـغيـره يقـول لمحبوب السيـارة لا تسري

فقد استعمل الرقيب والمحبوب ، ونعلم أن مؤلفي كتب الحب يعقدون فصلاً أو أكثر في سرد أنواع الرقباء ومن يرقب المحب ومن يرقب المحبوب[58] . ومثل قوله :

وفي غلبـات الـوجـد مكنـون سـره مـذاع ، فـلا سـدل لسـتر عـلى سر

ومـظهر هـذا الحب يوشـك أن يرى قتيـلاً لمحبـوب يـغـار عـلى السر

ففي البيتين إحالة لباب علامات الحب ، وباب طي السر ، وباب الإداعة . ومثل قوله :

سقتـه بـراحـات المحبـة راحهـا فلولا دوام الشرب لم يصح من سُكر

ففي هذا البيت اشارة واضحة إلى بيت أبي نواس « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

كما أن الشاعر عمد إلى ثقافته المتنوعة فاستمد منها مادة للبرهنة على ما يقول ، ولتقريب ضرب الأمثلة ، وأهمها : **الثقافة العروضية :**

ومن لم يكن يـدري العروض فـربما يرى القبض في التطويل من أظهر الكسر

ـ **والنحويـة :**

وفيم مقـام الصبر والخـوف والـرضـا كذاك الـرجاء المـد أولى من القصر

ـ **والأمثـال :**

« وقد جاء وقت الزهد أهلاً ومرحباً مكـانـك بـين السَّحْـرِ مني والنحـر »

على أننا نعقب على ما سبق ، وبخاصة استعماله المجاز واعتماده على التراث بأنه ليس في استطاعتنا معرفة كثير من التراكيب أهي مجازية أم حقيقية ، إذ بعض منها كـان مجازيـاً ، ولكن تنوسيت مجازيته لكثرة استعماله حتى صار مألوفاً للقـارىء والمستمع ، ثم أن تمييز ما اقتبس فيه وما لم يقتبس أمـر في غايـة الصعوبـة ، وفي غايـة النسبية ، إذ يعتمـد على ثقـافة الدارس للنص الأدبي ومدى استيعابه وقوة ذاكرته .

غير أن ما سبق لا يعني أن الشاعر كان مجرد نـاقل ، وإنمـا يجب أن يفهم في حدود مـا شرحنا أي الهدم والبناء ، ومع ذلك ، فكل قصيدة هي بمثابة حدث لا يتكرر ، فالشاعر نفسه لو حاول أن يعيد نفسه لما استطاع ، فلا بد من إضافة ما ، إلى ما سلف ؛ فـالقول المعـاد ، والمتفرد عمليتان ضروريتان لحياة أي خطاب ، فالمعاد ضمان لمزيـد من المشاركـة في الخطاب وتقبله وروجانه وازدياد قيمته الاستهلاكية .

---

(58) هذه أقدم دراسة انجزت حتى هذا البحث ، إذ عمرها سبع سنوات .

والتميز ابتعاد عن الجمودية والنسخية . ومن ثمة يصير من المحال وضع قواعد نصية عامة للشعر تدخل ضمنها كل قصيدة كيفما كانت ومتى كانت ، وكائناً من كان قائلها ، ومع ذلك فلا بد من استخلاص « مكونات » مميزة .

ج ـ محاور القصيدة :

تنحصر محاور كل خطاب في ثلاثة : المتكلم ، والمخاطب ، والغائب ، والمجاور كلها في تفاعل .

أ ـ ولنبدأ بالمتكلم الذي يهيمن على كل مقال ويتسبب فيه ، ولكنه ينقاد له أحياناً أخرى فيصير أسيراً لجمله المتتابعة مستعبداً لها . وقد نخدع بظاهر هذه القصيدة فنظن أن المتكلم غير حاضر فيها ، وغير متحمل لمقاله ، مما نتوهم معه أنه يريد أن يوصل معلومات لقارئه وسامعه بكيفية محايدة ، والدليل على ذلك أننا لا نجد ضمير المتكلم إلا في بيت78:

خلوت عن الاملاك طراً فلا أرى   أميل إلى ملك ، ولو كان ذا خطر

و (97)، (98)، (99)، (100)، (101)، (103)، وفي الأبيات المتعلقة بالتَجَلّي والشوق ، والفناء ، والمحو ، والاثبات ، والقرب ، والتّجْريد ، والتفريد ، والحضور ، والغيبة والجمع والفرق . أي كل الصفات التي تعكس حالته وتجربته الشخصية فهو في كل هذا يريد أن يثبت أنه معني به بمثل غيره .

على أننا إذا سايرنا هذه الوجهة نقع في وضعية مفرطة انتقدت على أصحاب نظرية الضمائر مثل « بنفنست » وهي نظرية تجوزت أو على الأقل تممت بما يمكن أن نترجمه بنظرية « الاقتضاء » أو المقدمات (Presupposition)، وما ينتج عن ذلك من قانون التسلسل (La loi d'enchainement) واعتبار الكلام ظاهرة بيفرْدية (interindividuel) . ونظن أن هذه النظرية تتوفق في كثير من الظواهر الكلامية التي تعجز نظرية الضمائر عن إدراكها مثل جمل أحكام القيمية ، « ففي عشاً عيناك ، والسمع في وقر » ، والجمل الحكمية .

مثل :

فأقرب أحوال العليل إلى الردى   إذا لم يكن منها الطبيب على خبر

والجمل التوكيدية التي تبتدىء بأن ، أو بالقسم ، أو بلقد ، فمثل هذه الجمل كلها تفترض مستفسراً أو معترضاً ، أو منكراً . وكثير منها في هذه القصيدة .

ب ـ المخاطب ، وهو المحور الأساسي المقصود بالكلام ، فلذلك تفتن الشاعر في خطابه واقناعه بطرق مختلفة ، بكاف الخطاب ، وتاء الضمير ، وتاء المضارع المخاطب ، والأمر والمضارع المجزوم بأداة النهي .

ج ـ الغائب ، ونرى أنه ليس إلا وسيلة أو توطئة للمُخاطب ، ويمكن تقسيم حديث الغيبة هنا إلى نوعين مرجعي ، وقول شارح (métalinguistique) ؛ فالحديث عن المقامات ووصف الشيخ من قبيل ما يدعي بوظيفة اللغة المرجعية ، كما أنه من ناحية أخرى يمكن أن يدعى لغة شارحة ، وخاصة حين الحديث عن المقامات فهو يذكر المقام ، ثم يعقب عليه بتحديد ما ، وكأنَ اللغة تتحدث عن اللغة .

يتضح مما سلف أننا اعتمدنا على مسلمات مناهج ثلاثة في دراسة هذه القصيدة .

أولها : المنهج الاحصائي الذي أبان لنا فقر المعجم الوظيفي لدى الناظم ، وإذا لم نعط أرقاماً لتبيان عدد المرات التي تكرر فيها اللفظ فلاعتبارنا أن ذلك ليس ذا جدوى كبيرة ، إذ السياق هو الذي يحدد معاني تلك الألفاظ ويعطيها قيمتها .

وثانيها : نظرية المقال في صيغتها الأولى عند « بنفست » ، وهي أكثر ضبطاً لاعتمادها على قرائن لغوية لا نزاع فيها ، ولكنها مثل المنهج الاحصائي مغرقة في الوضعية ، إذ تهتم بالظاهر ولا تعير ما لم يقل اهتماماً ، ولهذا كانت ثالثة النظريات (التداولية) مستدركة لما لم يدرس ، فاهتمت « بالاقتضاء » و « المقدمات » وأدوات الاستدلال . والاستلزام ونظن أننا بواسطة هذه الأدوات أثرنا أهم ما تتوفر عليه القصيدة المدروسة . ولا يدرك ذلك إلا من قرأ القصيدة عن كثب .

6 ـ خاتمة :

حاولنا في هذا الفصل الخاص بسيرورة النص الصُّوفي دراسة نوعين من الخطاب الصوفي أولهما ، ما يمكن تسميته باختصار « كتب سير الصالحين » ، وثانيهما قصيدة شعرية ، ولم نخترهما عبثاً ، وإنما لأن الكتب المذكورة كانت مصادر أساسية للمؤلفين ، فاعتمدوا عليها واستقوا من مادتها ، وتأثروا بمناهجها . كما أن القصيدة كانت محل دراسة وتدريس من قبل الصوفية ، إذ كانوا يحثون تلامذتهم على مطالعتها ، والتمعن في معانيها ونسجت حولها رؤى وكرامات ؛ فالنوعان ، معاً بضاعتهما رائجة في سوق الدراسة والتدريس والتأليف والشرح .

وقد قلنا في مطلع البحث أن ليس هناك نوع خالص من الكتابة إلا قليل القليل ، وهذا ما اتضح لنا عند الممارسة ؛ فالكتب المذكورة تشترك مع التاريخ في كثير من المظاهر قد بيناها سلفاً ، ولكنها تختص ، في نفس الوقت ، بقواعد خاصة مثل الحديث عن البطل والكرامات ، وبقوانين احتمالية تشترك فيها مع الكتابة الصوفية الأخرى ؛ وأما القصيدة فتشترك مع الشعر في الوزن ، والقافية ، والصور الشعرية ، وما يتبع ذلك من اهتمام بالايقاع وانسجام الحروف ، ولكنها تمتاز منه بالمعجم الوظيفي ، والموضوع المتحدث عنه ، ومقصدية الشاعر .

والنوعان ، بدورهما ، يشتركان في بعض الموضوع المتحدث عنه مثل : الشيخ ، والمريد وبعض المصطلحات ، والقصد ، ويختلفان فيما عدا ذلك ، ولا نستطيع في الوقت الحالي ضبط مواضع الاختلاف بدقة لعدم توفر مفاهيم شارحة كافية ، وحتى إذا ما توفرت فلن نستطيع إلا ضبط مكونات البنية العميقة . وأما البنية السطحية فليس إلى ذلك من سبيل ، فالاكتفاء ، إذاً بوصف كتاب أو قصيدة ومحاولة تعميم ذلك الوصف هو نوع من الشطط ، إذ لكل مقام مقال ، وظروف المقام لا حصر لها ، وتبعاً لذلك المقال ، فتكرار المقال استثناء ، وتجدده هو القاعدة ولكنه تجدد ينبني على ميراث يكون السند له والضامن لوجوده فمحاولتنا ، إذن ، يجب أن تفهم في هذا الأفق إذ حاولت ، نوعاً ما ، استكشاف البنية العميقة لكل من الخطابين واكتفت بوصف البنية السطحية .

الفصـل الخـامس

الصراع في النص القصصي

اختبرنا المنهاجية السابقة على نصوص شعرية قديمة وحديثة ، وسنحاول تمحيصها ـ أيضاً ـ على نص قصصي لنتبين مـدى ملاءمتهـا لمختلف الأجناس الأدبية . وسينصب اهتمامنا على محورين : أفقي وعمودي .

I أفقيـة النص :

1 ـ التصريـح بالهويـــة :

على أن اتجاهنا هذا لا يعني أننا نماثل تمام المماثلة بين النصوص ، ونلغي الفروق الجنسية بينها بتطبيقنا لهذه المنهاجية الموحدة مدعين الاهتمام بالكتـابة من حيث هي . فـإذا كان هـذا صحيحاً من حيث بعض الثوابت التي يدركها المتلقي في كل نشاط كتابي ، فإن هناك فروقاً في مقصدية المؤلف ومقصدية النص ، وعـلى هذا ، فـلا يعقل أن تعـدم الفروق بـين النصوص الشعرية القديمة ، وبـين النصوص الشعـرية الحـديثة ، وبـين هذه جميعـاً وبين نص تخـريفي أسطوري . ومع هـذا الذي أشـرنا إليـه ، فإنـه يجب الاعتراف بـأن كثيراً من النصـوص ، وخصوصاً الحديثة والمعاصرة ، تـطرح بإلحـاح مسألـة تحديـد الهويـة ؛ لهذا ، فـإن كثيراً من الدارسين يرون أن الأعراف والمواضعات هي التي تحدد جنس الخطاب المعاصر لأنه ليس لـه خصائص مميزة ملازمة . أي أن المتلقي هو الذي يمنح الهوية معتمداً على السليقة التي زودته بها الطبيعة والمجتمع ؛ فعملية التحديد ومنح بطاقة الجنس فردية ـ جمـاعية ، وليست مفروضة من قبل النص سلفاً وقبلياً ، وإنما الغرض تابع للاتفاق والمواضعة .

أثرنا هذا المشكل ، في هذا الموضع . . بمناسبة مواجهتنا لنص « الغابر الظاهر » فهو ،

إذا كان نصاً قصصياً ـ بكل تأكيد ـ فإنه لا يدري أي نوع من أنواعه ؟ أأقصوصة أم خرافة أم أسطورة . . . ؟

كما أنه ليس هناك فروق دقيقة بين هذه الأنواع ذاتها رغم ما بذل من مجهودات لرصدها ، فقد تجد فيها جميعاً حديثاً عن الدين والعوالم الخارقة ، و « الطبيعي » و « الثقافي » والقرابة . . . ومع هذه الصعوبات ، فإننا سنلتمس الحل في الالتجاء إلى الخصائص المهيمنة ؛ ومن ثمة سنتعامل مع « الغابر الظاهر » على أنه خرافة ذات بنيات أسطورية .

2 ـ الحـوار الخارجـي :

إن المتلقي لـ « الغابر الظاهر » يدرك ، بسهولة أحياناً وبصعوبة أحياناً أخرى ، الأصوات التي نسج منها النص واعتمد عليها ؛ وأهمها :

أ ـ الموقف الأسطوري :

ونقصد به الأساس الذي تبنى عليه الخرافة ـ الأسطورة أي الإحساس بالتناقض وازدواجية المواقف وتحويله إلى قضايا يتحدث عنها بحرفية موهمة للمتلقي أو بمجازية تؤثّر على الحقيقة وبكيفية منظمة في محاولة لحل التناقض ، والقضاء على الازدواجية إن بطريق اللسان أو الكتابة . والدليل الواضح الذي يضع يدنا على هذا الموقف الأسطوري هو : « وكانوا إذا لقوا بعضهم قالوا نحن أخوة ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » فهذه الآية القرآنية تتحدث عن المنافقين الذين كانوا « إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » ، وقد كررت الآية مرتين : ختم بها المقطع الأول والمقطع الثالث ، حيث تحول الأطفال من وضع إلى وضع ، وحيث اتسمت مواقفهم بالتناقض والازدواجية والنفاق ، فالآية القرآنية ، إذن ، هي النص المركزي الذي اعتمد عليه ، بوعي أو بدونه ، لبناء الخرافة ـ الأسطورة .

ب ـ تحديـد المسـار :

على أن ما ضمن تماسك بناء النص هو امْتِزَاج الثقافة « الشعبية » بالثقافة « العالمة » ، فإذا كانت الآية عَيَّنَتْ جوهر النص ومداره ، فإن بدايته ، جاءت معززة لها ، برسمها مساره شكلاً ومضموناً :

« كان حتى كان في قديم الزمان كانت العرجا تنقز الحيطان ، والعورا تخيط الكتان ، والطرشا تسمع الخبر فين ما كان » .

« قالت الطرشا : سمعت حس الخيل دازو ، قالت العورا : أنا حسبتهم سبعة ، قالت العرجا : تحزموا نلحقوهم » .

إن هذه البداية ـ مواد البناء جاءت متممة للأساس المشار إليه ؛ فالتناقض واضح على مستوى التعبير الحرفي ، إذ كيف يمكن لأصحاب الآفات والعاهات هؤلاء أن يحققوا دعواهم : « العرجا تنقز الحيطان ، والعورا تخيط الكتان ، والطرشا تسمع الخبر فين ما كان » ، كما أنه موجود على مستوى الواقع المدلول عليه ؛ على أن الثنائية ـ الحقيقة والمجاز ـ ليست إلا من وضع الفكر المعقلن ، وأما فكر « قديم الزمان » فلم يكن يفرق بينهما ، وإنما كان يعبر عن أوضاعه وكفى مثله كمثل النظرية الموحدة المعاصرة ؛ والحق أن التخريف والأساطير وأنواعاً أخرى تصحح ـ تعبيرياً ـ هذا الاتجاه، ولكن المرسل الواعي والمتلقي الباحث عن الدلالة مضطر للتفرقة بين الحقيقة والمجاز ؛ ومن ثمة ، فهما يعتبران معاً هذه الخرافة ـ الأسطورة خطاباً استعارياً ترجمت إليه تفاعلات اجتماعية متناقضة أو متضادة على الأقل .

إن الشعور بالتناقض والازدواجية المترجمين إلى لغة استعارية قد استحالا إلى شعور بالعدمية المطلقة كما يعبر عن ذلك « الغابر الظاهر » ، فهذا التعبير المتواتر يعني ظهور الشيء ثم اختفاءه بكيفية فجائية ونهائية ، فيبقى من اعتمد عليه قابضاً على الريح ، إن التعبير المذكور هو العنوان أي أنه هو النتيجة والخلاصة ، فهو وحده ـ يكفي المتلقي المتمرس ليعلم أن الخرافة حكاية فقد وضياع ، وليست حكاية تحصيل واكتساب . ولمزيد من الاستدلال نلتمس الحجج التالية :

* أن المرأة ـ الظل التي أغرت الطفلة كوثر وأغوتها بلباسها وصوتها وحججها حتى أسلمت لها قيادها وتبعتها اختفت ولم تجد الطفلة مَعَهَا إلا « الغابر الظاهر » .

* أن الطفلة ـ بعد التمني والأهوال والمشاق التي تَكَبَّدَتْهَا في سبيل الالتحاق بإخوتها وبعد الأذى الذي لحقها ـ ماتت وصارت « الغابر الظاهر» .

* أن حس الخيل التي سمعت « الطرشا » و « العورا » التي رأت أن عددهم سبعة . . لم تكن في حقيقة الأمر خيلاً (أو أبطالاً) وإنما كانت مجرد ثلاثة أطفال صِغَارٍ ، ولكن هؤلاء الأطفال بعد تحول أحوالهم لم يصبحوا إلا رموزاً للنفاق والابتزاز والقهر والغلبة ـ أصبحوا لمن علق عليهم آمالاً « الغابر الظاهر »

* أن الأمر والأدهى من ذلك هو أن « رجال البلاد » الذين علقت عليهم الآمال واستودعوا الأمانة ـ بعد النقاش والتداول ـ استسلموا وصلوا ـ ركعوا بالمعنى اللغوي والعرفي وصاروا « الغابر الظاهر » .

بيد أن هذا الفقد نسبي ، فهو ليس فقداً بالنسبة للأطفال المنتفعين ، ولكنه كذلك بالنسبة لأولي العاهات والعجزة المعبر عنهم في بداية الخرافة أي تحصيل واكتساب للأقوياء وفقد

وحرمان للضعفاء ، والخرافة تعبر عن وجهة نظر هؤلاء فهي مليئة بأمثالهم وتراكيبهم ورموزهم وصيغت بتقنيتهم ؛ فالشعبي سليل الثقافة الشفوية يدرك بكل سهولة معنى « الغابر الظاهر » ، ويطرب للحكي باللغة الشعبية ، ويرتاح لطريقة السؤال والجواب ، ويجد بغيته هو والعالم في الإحالة على الآيات (13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20) من سورة البقرة .

إذا كان الشعبي ينطق بالتناقض دونما شعور به في « الغابر الظاهر » : « غبر » يدل على الاختفاء والانقراض، و« ظهر » يعني الحضور والوجود أي الاختفاء والحضور والانقراض والوجود في آن واحد ، فإن العالم « والشعبي معاً يدركان التناقض المتحدث عنه في آيات البقرة ـ الحديث عن المنافقين المخادعين المفسدين أصحاب المواقف المزدوجة والمتناقضة المدعين الإصلاح؛ فالثقافة « الشعبية » الشفوية ، والثقافة « العالمة » المكتوبة تمازجتا وتمم بعضهما بعضاً فكانتا معاً أساساً لتبليغ المؤلف رسالته .

إن هذه الأصوات المختلفة الآتية من آفاق متعددة عن طريق قنوات التعليم المنضبط المقنن (حفظ القرآن ، مطالعة كتب الأساطير . . .) والتعلم اللاواعي (الثقافة الشعبية بما فيها من خرافات وأمثال ولغة . . .) خضعت جميعاً لعملية تحويل لغوية شاملة ،إن سلباً وإن ايجاباً ، بقصد التعبير عن مقاصد ايديولوجية . وهكذا ، فإن المؤلف نمى ما اعتمده أساساً بكيفية إيجابية ؛ فما عبرت عنه الآية القرآنية والمثل الشعبي وبداية الخرافة والبنيات الأسطورية من تناقض وازدواجية ألحّ عليه المؤلف ومططه ، إذ لم ينف التناقض والازدواجية ؛ على أن أية عملية لغوية تتضمن وتستلزم « مناقضها » أو مضادها أو المتداخل معها ؛ فالإيجاب يتضمن السلب سواء أكان كيفياً أم سالباً ، والعكس صحيح ؛ ومن ثمة ، فإنه ليس هناك جمود على مستوى النص الغائب أو الحاضر ، وإنما هناك دينامية . وعلى هذا الأساس ، فإذا ما وجدنا النص « هَجَا » واقع الانتفاع والاعتماد على قهر السلطة بمختلف أشكالها ، فإن « هجاءه » يتضمن الإشفاق على من ينوء تحت أعباء المغارم ، وإذا ذم الازدواجية والنفاق ، فإن ذمه يتضمن مديح الاستقامة . بهذا المنظور العلاقي يجب أن يفهم معنى الإيجاب والسلب .

3 ـ الحـوار الداخـلي :

اعتمد الكاتب ـ كأي كاتب ـ على بعض ما تراكم لديه من معارف فبعثه من مرقده لينسج منه نصاً ذا شكل خاص . كيف تم هذا النسج ؟ ما هي الآليات التي حكمته فجعلته ينمو ويتناسل ؟ لَنْ نُجِيب عن هذه الأسئلة جميعها بكل دقة وتوسع ، فقد فعلنا ذلك في الدراسات السابقة ، ولذلك فإننا لن نعدو أن نضرب بعض الأمثلة من النص للتوضيح .

أ ـ عملية التحويل والتمطيط :

1 ـ هيكلة النـــص :

إن الكاتب هندس نصه بحسب الشكل التالي : عنوان وثلاث فقرات :

* أولاها تبتدىء بـ « كان حتى كان » ، وتنتهي بـ « مستهزئون » .
* ثانيتها بـ « وقع الظل » ، وتنتهي بـ « واستقبلوها بالأحضان » .
* ثالثها دشنت بـ « ثم إن كوثر » وتتم بـ « وصلوا الفجر جماعة » .

ويمكن لنا بحسب اتجاهنا في التحليل أن نحتفظ بالعنوان ـ كما هو ـ ثم نجـزىء الفقرة الأولى إلى قسمين : البداية التي تنطلق من « كان حتى كان » وتنتهي بـ « نلحقوهم » ، ثم يتلو القسم الثاني ، كما أن المقطع الموالي نستطيع أن نجزئه إلى نوعين : آخرهما يتحدث عن « رجال البلاد » ؛ فالنص ، إذن ، مكون من عنوان وخمسة مقاطـع . فما العـلاقة بـين هذه الأجـزاء جميعاً ؟حاولنـا قبل أن نبين أن النص هو تمطيط للعنوان ، فمضمونه العدمي يتجلى في النص جميعه وَيَسْرِي بين جزئياته، كما ألمحنا إلى أن استهلال النص بتعبيره الخرافي التناقضي يُؤَشِّرُ على شكل النص ومضمونه ؛ فالعنوان والاستهلال ، إذَنْ ، أيقونان وأمارتان على مجال السرد وعالم الحكي . على أنهما ذوا طبيعة عامة ؛ ولهذا ، فإنه يتعين البحث في كيفيـة تخصيصهما : يحكي الاستهلال عن سبعة خيل ولكن المقطع التابع له يتحدث عن ثلاثة أطفال صغار ـ وحسب ـ صمموا على الدخول إلى غـابة مليئـة بالأشجـار والأحجار والبـوم والجن والماء . . . ويضيف المقطع الموالي أختاً للأطفال غررت بها امرأة ماكرة لِتُلْحِقَها بهم ، ثم تُنَمّى موضـوعة الأخـوة بتبيان طبيعة العـلاقة التي بينهم حيث يسيـطر الأكبر والأقـوى ويستأثـر بالـطفلة التي ماتت ـ « قتلت » من جراء الضرب المبرح والعملية الجنسية المحرمة القسرية ، وقد بني لها ضريح صار مورد رزق لا ينفد ؛ وسمة القداسة هذه والتدين والمال أوضحها مقطع « رجال البلاد » .

يتبين من هذا التلخيص أن العلاقة بين الفقر هي علاقة عموم بخصوص ، فقـد ابتدأ النص بالأعم فالعام فالخاص فالأخص : كل فقرة منه تلقي الضوء على سابقتها وكذلـك كل « مركبـة » بـين كل فقـرة ، عن طريق التضمن والاستلزام ، وفي حـركة وديـنـامية ، وبسلب كيفي : الخيل السبعة خصصت بالأطفال الثـلاثة الـذين يعيشون في « الثقـافي » ، ولكنهم ، لأسباب ، انتقلوا إلى « الطبيعي » ـ الغابة فتأثروا ببيئتها فانعكس ذلك في تصرفـاتهم الأنانيـة المنافقة. ولكن هذا التَّنامِي وهذا التناسل ليسا خطيين دائماً، فقد يتلو التمطيط التكثيفَ أي الدورية أو قل : إن كل واحد منهما يتضمن الآخر . فلندع هذا المفهوم الآخر إلى حين ولنبدأ في البحث عن مكونات المفهوم الأول .

2 ـ الكلمـة المحـور :

إن النص بمعناه الاصطلاحي يقتضي وجود انسجام بين أجزائه . وما دمنا أثبتنا أن لنا نصاً فإننا سننحو صوب استيضاح آليات انسجامه ؛ وأهمها الكلمة ـ المحور . إن الكلمة ـ الاسم والفعل والصفة والحرف ـ هي المادة الأساسية لبناء أي خطاب لغوي لتبليغ رسالة ، ولذلك اهتم الباحثون بالآليات التي تحكم وقوعها وتضبط العلاقات فيما بينها ، فقد اقترح علماء النفس اللغوي مفهوم التداعي بقسميه : المقيد والحر ، وقد عبر اللسانيون بـ « الترابط » . ويظهر لنا ـ في البداية ـ تخصيص « الترابط » بما كانت علاقته المشابهة أو المجاورة مثل علاقة الحيوان بالانسان والجزء بالكل والمحل بالحال . . . وتتابع الشهور والأسابيع والأيام ، والترتيب في أداء الشعائر الدينية وتنفيذ التعاليم البروتوكولية . . . أي كل ما يدرك عقلاً وينفذ عادة بدون « شعور » وإعمال ذهن، وقصر « التداعي » على ما كانت علاقته واهية بين شيئين أو بين كلمتين ، أو بين حدثين مثل شم رائحة الوردة التي تدعو استذكار العطر الذي ينبه إلى لقاء سالف . . . ومثل هذا ما تتداخل فيه الحواس وتتراسل فينوب بعضها عن بعض . على أن ليس هناك سكون أو إبعاد في هذا الميدان ، وإنما هناك علاقة تضمنية ؛ ومن ثمة قد يصح القول : إن كل ترابط تداع ، وليس كل تداع ترابطاً ؛ فإذا كان التداعي يحصل عن طريق الوَعْيِ واللاّوعي مما يتيحه للفرد من حرية بأن يقدم وبأن يؤخر ويخرق القوانين والأعراف ، فإن « المدونة » أو « الاطار » يقيد الحرية بتحديده مجال التحرك، إذْ لَيْسَ في مُكْنَةِ أي أحد أنْ يُبْدِعَ إطاراً لا عهد له به ولا عهد للناس به .

كل نص ـ إذن ـ ينسج بالآليتين وعلى ضوئهما ؛ وإذا كان هذا صحيحاً ، فإن سؤالاً يطرح : أهاتان الآليتان متعاليتان عن الزمان والمكان متخذتان شكل ثوابت لا تاريخية ؟ لا نعتقد ذلك بصفة مطلقة ، إذ المحددات « الزمكانية » بما تستلزمه وتحتويه من تطور البنيات التحتية والفوقية لها دور كبير في تكميم درجة الآليتين ؛ ومعنى هذا أن نوعهما موجود دائماً: ذلك أن أي نص ، وليكن أسطورة أو خرافة شعبية أو كرامة ولي أو سيرة صالح أو قصيدة شعرية تتحكمان فيه نوعياً ، وإن اختلفت درجة الحدوث . على أننا نفترض أن الترابط يهيمن في الأساطير وشبهها ، والشعر العربي القديم والخطابات العلمية، ويسيطر التداعي في الشعر الحديث والمعاصر . على أن هذا ليس إلا فرضاً يحتاج إلى تمحيص بمعطيات تجريبية لإثبات صحته أو زيفه .

على أن آليتي الترابط ـ التداعي تسير في وجهتين : إحداهما التقابل ، وثانيتهما التراكم ، والتقابل ـ التراكم مفهومان علاقيان متكاملان لا يبعد أحدهما الآخر ، إذ لا يخلو نص منهما

معاً ، وإنما يهيمن أحدهما بحسب مقصدية المتكلم وأوضاع المخاطب ، ومقتضيات الأحوال وجنس الخطاب ، فقد يتوقع المتلقي هيمنة التقابل في الأسطورة وفي أيّ خطاب آخر تكون فيه المواجهة حادة بين المؤلف وبين القوات الأخرى مهما كان نوعها .

إذا تبين هذا فلنفحص الخرافة ـ الأسطورة التي بين أيدينا على ضوئه :

* **الترابط** : يراه المتلقي في مكونات النص الخرافية ومقولاته الأسطورية فلما اختار الكاتب « إطار » « مدونة » التخريف تحتم عليه أن يتعرض لما يتكون منه : فقد ذكر « مقولة » الأطفال مما استتبع ذكر الأب والأم وزوجة الأب والأخت ، و « مقولة » الغابة وأشجارها وأحجارها وبُومهَا وفَرَاشاتِهَا وثمارها وجداولها وغدرانها وظلامها . . .

* **التداعي** : على أن أي أحد لم يلزم الكاتب أن يتحدث عن ثلاثة أطفال فقط ، كما أنه لم يقسره أحد على إسناد الكلام لمكونات الغابة . . . .

إن الكاتب يكون حراً في اختيار الموضوع والأشخاص وجمل الأفعال ، ولكنه ـ بمجرد ما يتم اختياره ، ويبدأ في الممارسة ـ **يتأطر** ويشرط نفسه بمستلزمات الجنس ويصبح أسيراً له . ومعنى هذا أن الترابط والتقييد هو أساس الاختيار والحرية ، وخصوصاً في مثل نَصِّنَا هذا الذي هو ، من حيث بنياته ومقولاته ،لا زماني ممتزج فيه الماضي بالحاضر وعاكس للثوابت اللاواعية الإنسانية **ومفكر بالأشياء المحسوسة** ، وقائم على بنية المقابلة .

* **التقابل** : إن التقابل هو جوهر الفكر الأسطوري وعموده الذي عليه يقوم ، وبذلك سنخصه بعناية فائقة موضحين جميع مظاهره . ولنقصر عنايتنا هنا ، على التقابل المعجمي الذي خصه اللسانيون والمناطقة باهتمام زائد . وسنقتصر نحن في تناولنا على الثنائيات الموجودة في النص وتصنيفها :

* **التقابلات التناقضية والتضادية** : الغابر / الظاهر ؛ العرجا / تنقز ؛ العورا / تخيط ؛ الطرشا / تسمع ؛ الظلام / الليل ؛ الضوء / النهار ؛ الداخل / الخارج ؛ الخوف / الأمن ؛ المماة / الحياة ؛ الانس / الجن ؛ الانس / الشياطين ؛ الأرض / السماء ؛ الاقتراب / الابتعاد .

* **التقابلات التكاملية** : الحيوان / الانسان ؛ الزوج / الزوجة ؛ الأم / زوجة الأب ؛ الأب / الأطفال ؛ الطفلة / المرأة .

* **التقابلات المرتبية** : الأكبر / المتوسط / الأصغر ، الأقوى / الأجمل / الأذكى ؛ الليل / الفجر / النهار .

* **التراكم** : على أن هذه الأنواع من التقابلات لم تتحقق إلا عبر تراكمات معجمية

وبمصاحبتها ، ويصعب تصنيفه إلى أنواع لكثرتها وتداخلها ؛ ومع ذلك فلنقدم خطاطة أولية :

* **تكرار « الكلمة »** سواء أكانت من قبيل الفعل أم الأسم أو الصفة أم الحرف : **كان ،** يكون . . . نلحقوهم ، لحقناهم . . سمعوا ، قال . . الغابة ، الأشجار ، **الطفلة ،** كوثر . . .

* **تكرار التركيب** : الأطفال الشجعان .

* **الترادف** : سلموا ، باسوا ، صافحوا . . .

3 ـ التركيب :

بيد أن المعجم ليس الضامن الوحيد لانسجام النص وتوالده وتناسله ، وإنما المنظم له هو التركيب . وللتركيب أدوات تضمن اتصال بعضه ببعض خصها المناطقة واللسانيون وعلماء النفس اللغوي ببحوث كثيرة ، أهمها :

* أدوات عطف النسق مثل الواو ، والفاء ، وثم ، ولا . . . وهي واضحة في النص ، لذلك سأكتفي بضرب بعض الأمثلة ليقاس عليها : (يقفقفون . . . ويمدون فيا أشجار الغابة . . . ويا بوم الغابة) .

* التراكيب المتراكمة ، ومثالها الواضح : «قالت الثمار: أنا لكم الطعام ، قالت الجداول : أنا لكم الشراب ، قال العشب الأخضر الطري : أنا لكم الفراش لكن الأطفال الشجعان قلبوا الغابة . . . » .

* التراكيب المتوازية المتشابهة ، وهي في النص كثيرة ، ولكنها تتجلى أكثر في تلك التراكيب التي اتسمت بصبغة شعرية إن من حيث ايقاعها وصيغها وإن من حيث توظيف الفضاء فيها مما يجعل من بعض مقاطع هذه الخرافة « شعراً » .

فيا أشجار الغابة العريانة
يا أحجار الغابة السهرانة
ويا بوم الغابة اليقظان
لماذا يخرج في الليل أطفال هذا الزمان ؟

* * *

آخ على الأطفال الشجعان

بلعتهم موجة الماء وغاربهم سكان الغدران
الأقدام الحافية الرخصة
وخزتها أبر الجن
عرفت شوك الاسم وشوك السر وشوك الظن

* * *

فيا أحجار الغابة الحبلى
يا أحجار الغابة الثكلى
ويا بوم الغابة المظلوم : أين الدم ؟

* **الشرط** : ان نفس الدور يقوم به الشرط الظاهر المقدر وبعض الظروف في تمطيط الكلام وربط أجزاء بعضه ببعض . ومن أمثلته : « وحين لحقناهم لم نجد خيلاً » ، « وكانوا إذا لقوا بعضهم قالوا نحن أخوة . . . » «اتركي خلفك البقرة. . . . أصنع لك عشرات العرائس » ، « فلما أظلم الليل أرتها » ، « وحين التفتت كوثر لم تجد المرأة » ، « وإن كنت نار أخوتي فاقتربي » ، « فلما أجهدها السير والخوف والوحدة . . . سالت على خديها » . . .

* السببية : على أن أدوات العطف المراكمة والمناقضة لا تكون موجودة ـ دائماً ـ على مستوى سطح النص ، فهناك تراكيب كثيرة تخلو منها ، ولكننا ـ مع ذلك ـ نشعر بعلاقة ما بَيْنَ الجمل ، إن تلك العلاقة هي ما يدعى بالسببية . وقد تكون ظاهرة ، وحينئذ تمتزج بالعطف وأمثلتها : «دقوا الحصى بالخشب ، صفروا في القصب ، وهزوا بأقدامهم عنق الأرض البليد **ففار** العشب . . . » ، « وقع الظل على الطفلة كوثر **فالتفتت** ورأتها . . . » ، « ولا تتعلقي بالمحال **فلا** بد للنساء من الرجال. . . » «ولطم الأجمل **ففقأ** عينيه»: على أنها تكون غير ظاهرة، وحينئذ يجب التماسها عن طريق السؤال والجواب المصرح بهما أو الجواب عن سؤال مضمر أو تقدير المشاهد «المفقودة» ، فمثال ما صرح به :

« لماذا يخرج في الليل أطفال هذا الزمان ؟ »
« قالت الأشجار : ماتت الأم »
« قالت الأحجار : تزوج الأب »
« قال البوم : لا يرضى الأطفال الظلم »

* * *

« من يدق الباب ؟ من الأعداء أو من الأحباب ؟ . . قالت الطفلة . . . »
« أين الدم ؟ أين الدم ؟ أين الدم ؟»
« قالت الأشجار : دم العذرة ، ثلث الشعرة »
« قالت الأحجار : دم القرابة ، الثلث الباقي »
« قال البوم : من يفلق الشعرة ، تفلقه الشعرة ، ودم الثأر ، الثلث الباقي »

بيد أن « لماذا ؟ » لا تكون موجودة دائماً في الخطاب ، وحينئذ فإنه يلتجأ إلى تقديرها ليرتبط السبب بالمسبب . لماذا ؟ لأنه « قالت الطرشا » ، « لم نجد خيلاً » لماذا ؟ لأننا عثرنا على « ثلاثة أطفال صغار » ، ويمكن أن يفعل نفس الصنيع متى وجد « الفصل » .

على أنه في حالة قصوى يمكن أن لا يوجد سؤال ولا جواب ، وإنما يكون هناك انفصال كامل في الظاهر بين جملتين أو بين عدة جمل، وحينئذ يعتقد القارىء أن لا علاقة بين أجزاء الكلام ، وإنما الكاتب كان في هذيان محموم ، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ، فهناك علاقة سببية وثيقة بين ما ظن مبعثراً ، إذ يمكن أن تدرك اذا قدرت « المشاهد » المفقودة . والنص الذي بين أيدينا ليس فيه فقد كثير ، وإنما هناك بعض الجمل توحي بغياب ما، وسنتناولها فيما بعد .

إن التعليل الأساسي لا يأتي متأخراً دائماً فقد يكون مُتَوَسّطاً ، ذلك أن التعليل الأساسي - في المقطع الأول - هو « الحياة حارة » . فهذه الجملة - الذروة جواب تعليلي عما سبقها : فقد خرج الأطفال لموت الأم وتزوج الأب ، ومعاناة الظلم ، وهي جواب عما تلاها لأنهم خرجوا ودخلوا الغابة وتحولت أحوالهم ، وكل من الفعل السابق واللاحق يهدف إلى المحافظة على الحياة ؛ كما أن « الخوا حارة » هي تعليل أساسي لتصرف الأخ الأكبر وخصامه مع أخويه واستئثاره بأخته - وهي تعليل أساسي لتصالح الأخوة بعد موت الأخت وادعاء كل واحد منهم العطف عليها لاقتسام المغنم ، ولكنه ليس إلا مرحلة وسطى بين الحياة والممات : (الحياة - القتل للحياة - الممات) لذلك فإن التعليل الأساسي الأخير « الموت حارة » جاء على أصله .

هناك ، إذن ، سلسلة سببية تسلم كل حلقة منها إلى أختها عن طريق الاقتضاء المتبادل أو الاستلزام أو التتابع . ولذلك فإنه يصبح من الواجب أن تعين أنواع الارتباط (عطف النسق ، عطف البيان ، تشابه التراكيب ، تضادها ، علاقة الخصوص بالعموم . . .) وإذا كانت ظاهرة فذلك وإلا فلتقدر .

ب - عملية التحويل والتكثيف :

إن عمليات التمطيط السابقة الظاهرة والمقدرة لا تعني أن النص تسير دلالته في خط

مستقيم من البداية إلى النهاية ، وأن كل كلماته وتراكيبه على حد سواء في القيمة والأهمية ، فقد تبين لنا أن هناك ألفاظاً محورية مططت بتعابير ، وتعقبتها أخرى مكررة لما سبق أو موحية بما يأتي ، أو ذكر شيء وسكت على أشياء ، لذلك فنحن مضطرون لإدماج مفاهيم أخرى لوصف الظواهر السابقة .

أولها : التكثيف : قدمنا قبل أن تلك « الأبيات الشعرية » تكثيف لما سبقها من نثر كما أن فيها إيحاءً بما سيتلوها ، كما بيّنا أن تلك الجمل ـ الذرى هي تكثيف لمعاني جمل كثيرة سابقة عليها ولاحقة ، ومع ذلك ، فإننا سنعطي أمثلة أخرى لتوضيح هذا المفهوم :

قالت الأشجار : ماتت الأم
قالت الأحجار : تزوج الأب
قال البوم : لا يرضى الأطفال الظلم
قالت الأشجار والأحجار والبوم : الحياة حارة

* * *

قالت الأشجار : دم العذرة ، ثلث الشعرة
قالت الأحجار : دم القرابة ، الثلث الباقي
قال البوم : من يفلق الشعرة تفلقه الشعرة ، ودم الثأر ، الثلث الباقي .
وقالت الأشجار والأحجار والبوم : الخوا حارة .

ثانيها : الحذف أو الإيجاز ، على أن النص لم يكتف بتقنية التكثيف وحدها ، وإنما أضاف إليها ما يمكن أن ندعوه بالحذف أو بالإيجاز ، ويتمظهر في عدة أشياء :

* حذف بمؤشر لغوي أي أنه ـ اعتماداً على الجملة السابقة واللاحقة ـ يمكن تقدير المحذوف . . . « تحزموا نلحقوهم » « وحين لحقناهم لم نجد خيلاً » ، فهنا حذف نستطيع أن نقدره بـ (وتبعناهم سائرين خلفهم قاطعين الجبال والوهاد والسهول حتى . . .) .

* حذف باعتماد على الذاكرة : « ثم ان كوثر حكت لإخوتها جميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر ، وكذلك هم أخبروها بجميع ما جرى لهم » ، فقد حذف ذكر ذهاب الأطفال إلى الغابة وأعمالهم فيها وما انتهوا إليه وملاقاة الطفلة للمرأة وحوارها معها والإقناع والاقتناع والاجتماع بالأخوة لأنها عناصر سبق ذكرها .

* حذف باعتماد على المؤشر الكتابي ، وذلك أن النص اكتفى أحياناً بالنقط عن

الكتابة : « لم نجد خيلاً. . . لم نجد غير ثلاثة أطفال » ، « وأبي يضربني إذا . . . » ، « وزوجة أبي تضربني إذا . . . » « لم تجد المرأة . . . لم تر في الليل » ، « بالخوف وبالحب . . . » .

* حذف باعتماد على المؤشر البياضي ، ويتجلى هذا في كيفية توزيع الكاتب لفقر النص وكيفية كتابة « المقاطع الشعرية » ، فقد نجد تعادلاً بين أسطرها أو جدلية بين الكبر والصغر ، وكل ذلك يمكن أن يفسر على ضوء فرضية الوجود والعدم .

* حذف باعتماد على الإطار ، وتقدير هذا المحذوف يحتاج إلى تفكير واحتياط واستحضار لجميع عناصر الإطار بخلاف أنواع الحذف السابقة التي تقدر بالاعتماد على الجملة السابقة واللاحقة ، ويقرأ البياض بدلالة مستقاة من السواد ومشتقة منه ، ومثل هذا الحذف هو ما نجده في « عرفت شوك الاسم وشوك السر وشوك الظن » ماذا يقصد بـ « الاسم » و « الظن » و « السر » ما علاقتها بما سبقها وما تبعها ؟ قد يكون الالتجاء إلى مفهوم المدونة «Scripts» ضرورياً ، أي ما اعتدناه من ارتباط بعض الأحداث بعضها ببعض وما خمناه من مخططات الكاتب ومقاصده ، وهكذا ، فإنه حين تذكر الغابة يتوقع الناس الحديث عن الأشجار والأحجار والبوم والجن والمياه . . . ولكن هذه البنية الغابوية لها ما يوازيها في الواقع وهو المجتمع الغابوي بقرابته وفئاته الاجتماعية ونظام الحكم ومؤسساته المختلفة . . . وحينما نوازن بين عناصر البنيتين نهتدي إلى دلالة ذلك التركيب وتعالقه مع المعنى الحرفي والمعنى المجازي : الغابة / مجتمع الغابة . وسنرجع إلى هذا بتفصيل فيما بعد .

* * *

تناولنا في أفقية النص عدة مسائل تتعلق بتجنيسه ، وقد تبينت لنا صعوبة إعطاء لقب ما له بخلاف ما كان مظنوناً ، ذلك أنه إذا كان ذا عالم حكائي : واقعي / لا واقعي ، ومجال قصصي : صادق ـ « كاذب » لا نزاع فيه ، فإنه يقوم على استراتيجية المزج بين الأجناس : الحوار ، والقص ، والشعر ، ولكننا ، مع ذلك ، دعوناه تخريفياً ، لأن المزج بين الأجناس هي استراتيجية الحكي التخريفي ، ولأن اللاواقع يهيمن تعبيرياً وظاهرياً على الواقع ، ولأن المقولات التخريفية ـ الأسطورية هي مادته وصورته ، كما تناولنا التحويل الذي نمى النص خطياً ودورياً فأبنا أن التخطيط بأنواعه هو أساس الخطية ، والتكثيف بأشكاله هو موجد الدورية ، وكلاهما تتحكم فيه وتولده آليتا الترابط والتداعي . وقد تبين لنا ـ مع ذلك ـ أن وجود الكلمات على بياض الصفحة غير كاف في فهم معنى النص ، ولذلك كان ضرورياً

القيام بعمليات تقديرية واستدلالية بسيطة أو معقدة لملء أنواع الفراغ والإيجاز والموجودة في النص ، سواء أقصد اليها الكاتب أم أدت إليها ضرورة الفن القصصي ، أم طبيعة اللغة نفسها .

II عمودية النص :

على أن أفقية النص ليست إلا وجهاً واحداً لِكَائِنٍ متعدد الوجوه ، ولذلك لا مناص من تناول الأوجه الأخرى التي كانت وراء تمظهر النص على ذلك الشكل . وليس هذا بدعاً ، فلقد دأب كثير من محللي الخطاب السردي على تناول عنصرين أساسيين : المحور الأفقي والمحور العمودي ، وجعلوا العمودي نوعين : عاملي ودلالي ، ولكننا نحن سنضيف نوعاً ثالثاً وهو التداولي . ولهذا ، فإن معالجتنا في هذا القسم ستنصب على ثلاثة أركان أساسية : المكون التركيبي العميق والمكون الدلالي العميق والمكون التداولي .

1 ـ المكون التركيبي العميق :

أ ـ العوامـــل :

إن كل خطاب مهما كان جنسه تتحكم فيه بنية عاملية هي بمثابة مسرح تحرك ، وتتحرك عليه ، البنيات الانتروبولوجية الانسانية . والبنية العاملية عناصرها هي :

المرسل	←	الموضوع	←	المرسل إليه
		↑		
المساعد	←	الذات	→	المعوق
		(الفاعل)		
		(البطل)		

فالعامل هو ما يقوم بالفعل أو يخضع له ، وقد يكون انساناً أو حيواناً أو فكرة . . . وأما العامل ـ الممثل فهو ما يجتمع فيه عاملان أو أكثر ، قد تكون متوافقة أو متنافرة متضادة ، وهذا هو الأكثر وخصوصاً في الخطاب الأسطوري ؛ على أن بعض الأدوار هي خاصة بعوامل أو ممثلين (الخيرلله / الشر للشيطان) ، والعامل قد يكون مذكوراً وقد يستنبط ، وتنعكس هذه العوامل في النص حسب آلة لا شعورية محددة سلفاً ومعروفة خطاطتها كما بينت ذلك

الدراسات : فقد يشعر « صاحب الأمر » بـالنقص أو بالخلل فيحـاول سده أو القضـاء عليه فيبحث « صاحب الأمر » المذكور ـ ويسمى : المرسل ـ عمن يقـوم بهذه المهمـة ، ويدعى : المرسل إليه ، وحينئذ يجتمعان ويبرمان عقدة يفوض فيها الطرف الأول شيئاً من سلطته للثاني ليقوم بواجبه بعد إعداده وتهيئه وتأهيله والتأكـد من قدرتـه وإرادته ومعـرفته ، ويقفـو هذا الاعداد المرحلة الحاسمة التي ينجز فيها عمله ليسد النقص ـ بعد الأخذ والرد ـ إن أفلح ، ثم تتوج مجهوداته بالاعتراف له والتشريف والمجازاة .

إن هناك علاقة وثيقة بين العوامل ولكنها ليست على مستوى واحد ، وإنما هي دينامية ومتنوعة :

* العلاقة بين (المرسل) و(المرسل إليه ـ الفاعل ـ الذات ـ البطل) تمثل البعد التعاقدي والانتقـالي للموضـوع من المرسـل إلى المرسل إليه . . . عن « طـواعية » واختيـار ، اذا تخلى المـرسل ـ « بمحض إرادتـه » عن شيء من سلطته إذا لم تسلب منـه بالعنف ، فقـد يكـون المرسل ـ في الغالب ـ متسامياً ذا سلطة مادية ومعنوية ، والمرسل إليه في موقع المأمور .

* العلاقة بين الفاعل ومضاده صراعية تعتمد على المواجهة والغلبة والحيلة ، فالفاعل (البطل) يكون مدفوعاً بحوافز نفسانية كامنة وراء تحركه لإشباع رغبته ، ومضاده (المعوق) يحول بينه وبين تحقيق مآربه ، فيستصرخ كل منهما قواته إلى أن تتم الغلبة لأحدهما .

* وعـلى هذا ، فـإن العلاقـة بين الـذات والموضـوع جداليـة صـراعيـة ، فقـد يقـع الانفصال ، وهو ما يعبر عنه بالأقوال السرديـة المسماة بـأقوال الأحـوال ، ويكتب سيميائيـاً (الذت ∪ الموضوع) ، أو يقع الاتصال (الذات ∩ الموضوع) . وبشكل آخر : الـوظيفة (الذات$_1$ ⟵ الذات$_1$ ∪ المـوضوع) الوظيفة (الذات$_1$ ـــ الـذات$_2$ ∩ الموضـوع) ثم يتحول الاتصال إلى انفصال وهكذا .

ب ـ عوامـــل النـــص :

بنـاء على هـذا ، وبناء عـلى أن النص الذي نتعـامـل معـه هـو نص سـردي ، فـإنـه ـ بالضرورة ـ يجب أن تتحكم فيه آلات السرد وآلياته العميقة ؛ ولذلك ، فإنه يتحتم البحث عن مكونه التركيبي العميق بعناصره المختلفة . وبدءاً نتساءل عن ماهية المرسل المتسـامي ، وعن المرسل إليه ، وعن النقص الحاصل ، والفقد المرغوب القضاء عليه ؟ أيقـدم لنا النص عوامله بكل سهولة ويسر أم لا بد من إعمال النظر حتى نستطيع الحصول عليها ؟ ولكن من أين البداية ؟

للإجابة عن هذه التساؤلات ندخل إلى فضاء النص لاستنطاقه وتبويحه بالسر ، لكننا لا نحصل على أجوبة صريحة إذا انطلقنا من بداية النص ، ومع ذلك ، فإنه يجب وضع اليد على العوامل المحركة له . لذلك نعتقد أنها هي هذه :

* المرسل المتسامي الذي تخلى عن شيء من سلطته ، ومنحها للمرسل إليه هو : الأنانية أو الطبيعة البشرية للمرأة وأوصافها ، وقدراتها التي حملت عليها ترجح هذا التأويل .

* المرسل إليه هو الطفلة التي خضعت لعملية تهييء وإقناع وإغراء ، فتاقت إلى اجتماع الشمل والعيش في كنف الإخوة حيث الرفاهية والعيش الرغد .

* الموضوع الثمين المبحوث عنه هو الإخوة الذين يعيشون في غابتهم .

* العامل المساعد هو النار الهادية إلى مكان الإخوة .

* العامل المعوق هو الخوف ومشاق السفر .

* البطل هو الطفلة التي ضحت واستمرت في سيرها حتى حصلت على مبتغاها .

وعملية اتصال المرأة بالطفلة . . . واتصال هذه بإخوتها تحتاج إلى إيضاح المراحل التي مرت منها والاختبارات التي تجاوزتها ، وقد تجلى ذلك في تسلسل مركبي أساسي يسمى البرنامج السردي الذي يتكون من أقوال حالة ومن أقوال عمل :

المرأة : + الوظيفة (الذات ← الذات ∪ الموضوع الوظيفة (الذات ← الذات
(المرأة) (المرأة) (الطفلة)
1 2

∩ الموضوع) ء الوظيفة (الذات ← الذات ∪ الموضوع) .
1 3

فالمرأة كانت فاقدة للموضوع بداية ثم وقع اتصال به عن طريق قول العمل ، ثم تخلت عنه .

الطفلة : +	بداية :	الذات	∩	الموضوع
بداية		(الطفلة)		(القهر)
الاتصال	وسط :	الذات	∪	الموضوع
بالمرأة		(الطفلة)		(القهر)
	بداية :	الذات	∩	الموضوع
استئناسها بها		(الطفلة)		(الخوف)
	وسط	الذات	∪	الموضوع
		(الطفلة)		(زوال الخوف)

بداية :	الذات	∩	الموضوع
الاتصال بالإخوة	(الطفلة)		(الفرح)
نهاية :	الذات	∪	الموضوع
	(الطفلة)		(زوال الفرح)

وهكذا، فإن النهاية سالبة كما كانت البداية سالبة ، بل إن النهاية أشد قسوة من البداية : فمن « التمارة » ، و « الشقا » إلى الهلاك . وقد تحول ما بين الطرفين بحسب القانون السردي المعتاد: فقد / امتلاك ، أو امتلاك / فقد . وأثناء ذلك مر البطل بالمراحل الثلاث المعروفة :

تهييئية	وحاسمة	وتشريفية
(وقع الظل . . . فأسرعي إليها)	(وحين . . . نحو بعضهما)	(بالاحضان)

ولكن هذا التشريف إنقلب إلى تعذيب وقتل .

* **الأطفال** : على ضوء ما تقدم نتساءل عن مرسل « الأطفال » . نعتقد أن الجواب أصبح واضحاً ، ونعني أنه هو الذي أرسل « المرأة » أي الأنانية أو الطبيعة البشرية ، فإذا كان ليس مصرحاً به في بداية النص ، فإنه مذكور في وسطه ، فـ :

المرسل	←	الموضوع	←	المرسل إليه
(الانانية)		(ارضاء الأنانية)		(الأطفال)
		↑		
المساعد	←	البطل	→	المعوق
(ما في الغابة)		(قانون الغاب)		(بعض ما في الغابة)

وقبل أن يصبحوا أبطالاً بقانونهم الغابوي مروا بالمراحل الثلاث الأساسية :

* التهييئية التي تتجلى في وقوف الأطفال على حافة الغابة متعرضين للبرد والخوف ، ولكنهم ـ بمجرد ما وقع التعاقد بينهم ـ توفروا على الشجاعة والجمال واللياقة ثم العنف فالاستسلام والابتلاع .

* الحاسمة التي تظهر في تأقلمهم مع فضاء الغابة إذ صاروا جزءاً منه فتحولت الغلبة للأقوى ، فقد ذهبوا إلى الغابة لسد النقص والقضاء على الظلم ، ولكنهم عززوه وعمقوه .

* التشريفية التي تعكس ادعاءهم واشباع حاجات أنانيتهم ونفاقهم وتناقضهم : إنهم ذوو بطولة من نوع خاص ـ بطولة الأنانية والذاتية ـ بطولة خيانة المُثُل .

الحكاية انطلقت من : الذات ∪ الموضوع ثم الحصول عليه :
(الأطفال) (الأمن)

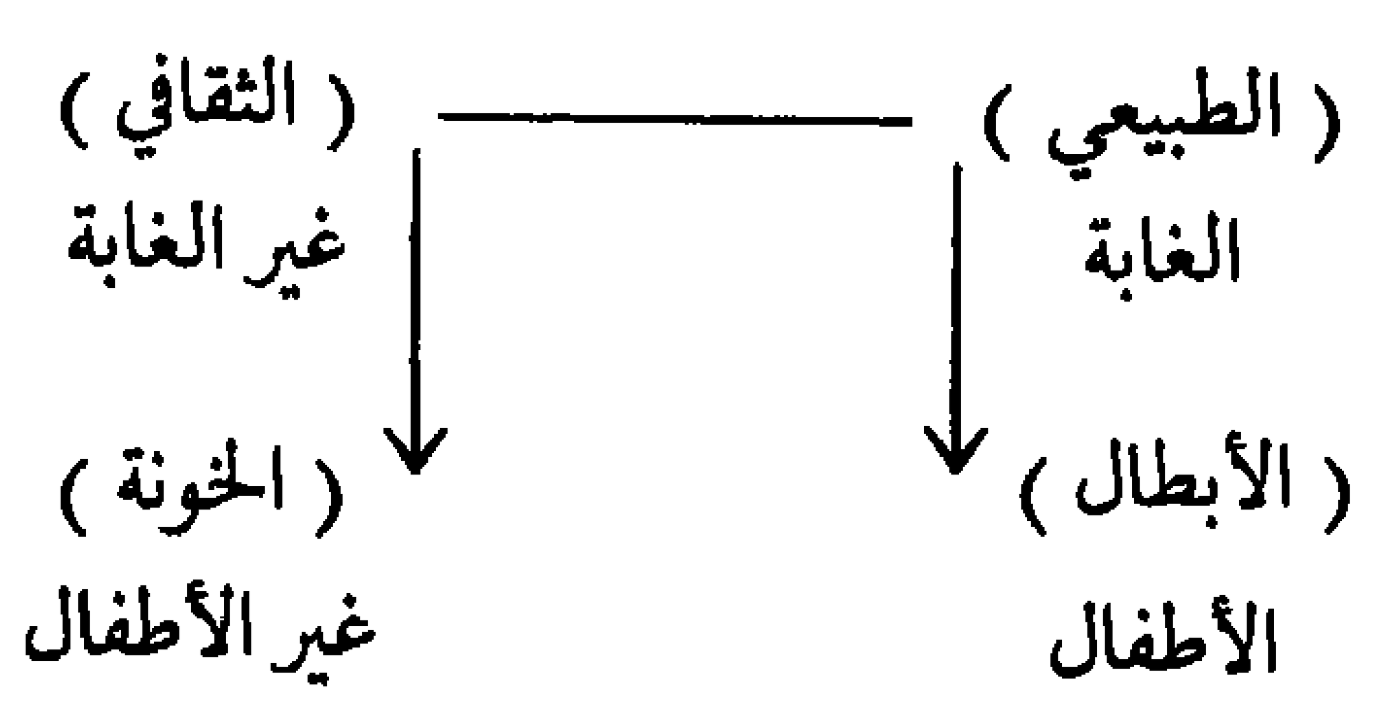
الذات ∩ الموضوع أي الوظيفة (الذات ← الذات ∪ الموضوع)
1 1

الأطفال (الأمن) الوظيفة الذات ← الذات ∩ الموضوع
2 1

: الذات ∩ الموضوع ثم الذات ∪ الموضوع
(الأطفال) (الوداعة) (الأطفال) (الوداعة)

أي : الوظيف (الذات ← الذات ∩ الموضوع) ء الوظيفة (الذات ← الذات ∪ الموضوع) .
2 1 1 1

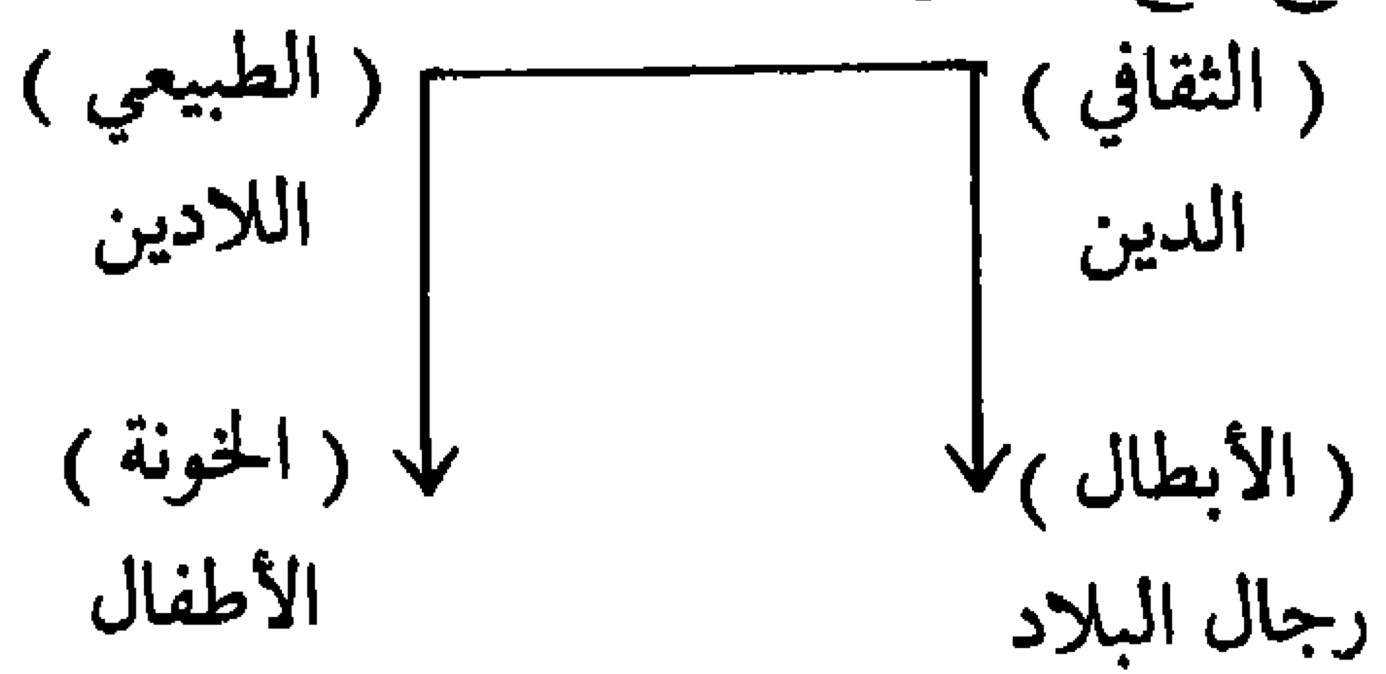
إن هذا الموقف النهائي يبين ازدواجية الموقف أيضاً : ذلك أنه جرت العادة في التخريف أن يقع التعاقد مع بطلٍ لاعادة التوازن لوضع ابتدائي محدد وتصفية نقص حاصل ، ولكن الأمر في حكايتنا ليس على هذه الشاكلة ، فإذا ما وجدنا فيها حقاً تحقيقاً لقانون التخريف ومعياريته أي (الشعور بالخلل ثم محاولة إعادة التوازن ، فإنا نجد ـ وهذه هي المفارقة ـ تعميقاً للاختلال وتجذيراً له . ولكن هذا القول يجب أن يخصص بداخل الغابة وبخارجها ، فهناك بطولة داخل الغابة ولكن هناك خيانة خارجها . ومع هذا ، فإن هاجس النص هو المقابلة بين الخارج / الداخل / القانون (اللاقانون ـ المثال / الواقع ، ولمزيد الإيضاح نقول : إن النص الذي بين أيدينا قلب الوضع التخريفي المشهور بين الناس ، ذلك أن المتعارف بينهم هو الحديث عن الثقافي ومكوناته المختلفة وإضمار الطبيعي ومكوناته ، في حين أننا نجد في « الغابر الظاهر » العكس :



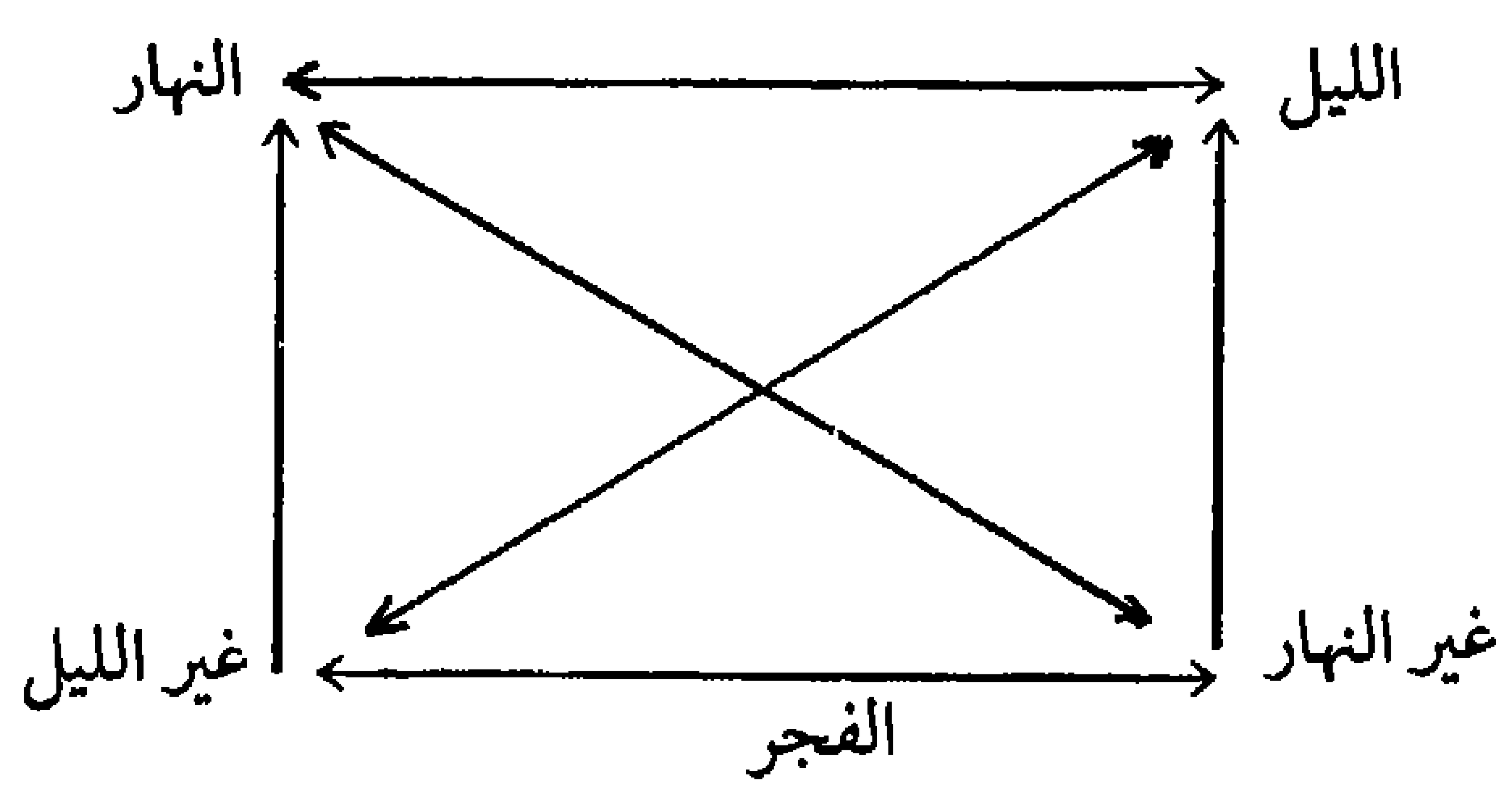
قد يصطدم القارىء الراغب في الثقافي ونتائجه ، الراغب عن الطبيعي وعَقَابِيلِهِ ، ويحتار في تأويل الإلحاح والتهميش ، ولكنه عَلَيْه أن يعلم أن مقصدية النص هي السخرية مما هو موجود وهجاؤه.

انقلبت المعايير واختل التوازن واحتدت المفارقة، فأين الملجأ ؟ إن النص يقترح وسيطاً

يعيد التوازن ويصحح الأوضاع ويجمع بين أطراف المفارقة . إن الوسيط هو الدين « رجال البلاد » . أي أن التصحيح يقع بالثقافي :



ولكن رجال البلاد ، مع اعترافهم بأن الزمن فاسد والجيل ماسخ ، لم يهتدوا إلى حل وإنما صلوا وركعوا أو على الأقل صلوا الفجر جماعة أي التوسط :



فقد عجزوا ، ولكن هناك أملاً ـ فجراً سيتلوه صبح جديد ، ولكن أية جدة ؟!

* * *

تبين لنا من هذا أن المكون التركيبي العميق يخضع للآلات وآليات معروفة: هناك فَقْدٌ إذا استمر يؤدي إلى اختلال التوازن، وأمام هذا الخطر يتعاقد مرسل مع بطل لإعادة التوازن بعد تهييئه وإعداده . ثم ينطلق البطل للبحث فيجد معاضدين ومعوقين ، فإذا ما تغلب على الصعاب يكرم ويشرف . تلك هي خطاطة السرد ، ولكننا نرى أن « البطولة » و« الخيانة » تأخذان معناهما بحسب مقاصد المؤلف ومقتضيات الأحوال ، أو فلنقل : إن « البطولة » و« الخيانة » ، في ميدان التخريف والأساطير يتحكم فيها قانون المفارقة « بطولة » لجهة ، « وخيانة » لجهة ؛ فالمفارقة هي الجوهر ، ولذلك يحاول النص أن يوفق بين عناصرها أو أن يُعَلّقها بوسيط .

2 ـ المكون الدلالي العميق :

أشرنا قبل إلى أن المكون التركيبي العميق يرشدنا إلى الآليات والآلات التي تحكم نمو

النص وينبهنا إلى المقولات المستثمرة . وقد حان الحين لتشخيص المقولات الأسطورية التي تكون مادة النص ، وسنحاول ـ في بداية الأمر ـ رصدها على الشكل الذي وردت به في النص، وفي مرحلة ثانية ، تصنيفها بحسب ثلاث مقولات أساسية :

أ ـ الرصـــد :

* التقابلات الثنائية التي يفتتح بها النص وتوجه صورته ومادته : العرج / النقزان ، العور / الخياطة ، الطرش / السماع . . .

* الأعداد (سبعة) ، و « ثلاثة » ، وكل من العددين ضارب الجذور في الذاكرة الانسانية (سبع سموات ، ثلاثية التفكير) .

* الحيوان ، ونجده في ذكر « الخيل » و « الذئب » و « الناموس » و « البقرة » ، ومن هذه الحيوانات ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ومذموم ، ولكن لكل منها في الذاكرة الشعبية مخزوناً يبعثه التداعي والعلاقات .

* الغابة ، ولها مكان خاص في الفكر «البدائي » ، ومن ثمة اهتمت بها الدراسات الأنتربولوجية الثقافية ، وكلها ركزت على المقابلة الأساسية بين الطبيعي (الغابة) / الثقافي (المدينة) . وقد ركز النص على الطبيعة ـ الغابة وأوحى بالثقافة ـ المدينة .

* المطبوخ والطازج ، وقد أبانت الدراسات الأنتروبولوجية مكانة الأطعمة والنباتات في الذهنية الأسطورية .

* المكان ونجده في : خارج البيت / داخل البيت ؛ طرف الغابة / داخل الغابة ؛ خلف / أمام ؛ القرب / البعد ؛ فوق / تحت ؛ يمين / شمال . ويتحكم في هذه المقولة المكانية محوران : أحدهما أفقي في اتجاه الغابة والنار ، وثانيهما عمودي في اتجاه قمم الجبال والسماء .

* الزمان : قبل دخول الغابة / بعد دخول الغابة ؛ قبل الالتحاق بالأخوة / بعد الالتحاق بالأخوة ؛ النهار / الليل .

* بنية القرابة ، فهناك الأب والأم وزوجة الأب . والأخوة والأخت ، وهي من البنيات الأساسية في الفكر الانساني .

* العلاقة الجنسية : الأب والأم وزوجة الأب ودخول الأخ بأخته ، وكما هو معلوم ، فإن هناك زواجاً مباحاً وزواجاً محرماً ، وقد ركز النص على هذا النوع الأخير لمكانته في الفكر « البدائي » .

* رمزية الاسم ، فـ « كوثر » تعني الزاد والكثرة ومنبع الغنى : « انا اعطيناك الكوثر » ، وإذا ما قلبت حروفها بعض القلب تصبح ثروة وثورة .

* الخارق ، ويتمظهر بالنص في عدة أشكال : خارق الدين : قدست الطفلة بعد موتها وبني عليها ضريحٌ بقبة خضراء ، واجتمع رجال البلاد سكان الأضرحة ذوات القبب الخضراء ؛ خارق الجن : سكان المكان ، وإبر الجن وسكان الغدران ؛ خارق الطبيعة : البوم ، والظلام، والماء ، والنار .

ب ـ التصنيف :

تلك هي البنى الأسطورية التي يقدمها الينا النص ، وكل بنية خصصها الأنتروبولوجيون بدراسات مستفيضة ، وليس من همنا نحن أن ندرس كل بنية على حدة ، فمثل هذا الصنيع سيجعلنا نتخذ هذا النص مجرد ذريعة لعرض معلومات موجودة في الكتب المختصة ، ولذلك فإن المتعين هو تبيان علاقة هذه البنى بعضها ببعض ، والوظائف التي أدتها ضمن هذا النص ؛ ومعنى هذا أنه لا مناص من اختزالها وإعادة تصنيفها .

ربما أمكن تصنيفها إلى ثلاث بنيات أساسية تتجذر ضمن فضاء ـ زمان معين ، تلك البنى هي القرابة والدين والاقتصاد . وإذا اتفقنا على هذا فلنخص كلا منها بالتحليل غير مبتعدين عن النص .

1 ـ القرابة : إنها يمكن أن ينظر إليها من حيث هي ، ومن حيث علاقتها الاجتماعية فمن حيث هي نجد المقابلة التالية :

الذكورة :	الأنوثة :
* الأب .	* الأم .
* الأطفال	* زوجة الأب .
	* الطفلة .
	* المرأة .

ويمكن أن تنحلّ هذه المقابلة من حيث علاقتها إلى :

الأكبر :	المتوسط :	الأصغر :
* الأب .	* الأخ المتوسط .	* الأخ الأصغر .
* الأخ الأكبر .		

فهذه المقابلة مرتبية ، بمعنى أن هناك حداً وسطاً (الأخ المتوسط) . كما أن هناك مقابلة أخرى هي :

الأم / زوج الأب .

وقد تمت هذه العلائق جميعها في فضاء وزمان :

« المجتمع »

« المجتمع المثالي » :
حيث التخلص من
كل مظاهر الأنانية

المجتمع العادي

الثقافي ⟵——⟶ الطبيعي

فقبل الدخول إلى الغابة كانت هناك خيل ـ أبطال توحي بالإنقاذ ، ولكن هذا الوهم لم يلبث أن صحح ، إذ ليس هناك خيل ، وإنما هناك ثلاثة أطفال « مع الأسف » ، فهؤلاء الأطفال وإن كانت فيهم براءة فإن جبلتهم الإنسانية تجعل منهم أشراراً بالقوة (جدلية الثقافي ـ الطبيعي) ، وقد صاروا أشراراً بالفعل حين دخلوا الغابة وهيمن عليهم ظلامها : قبل الدخول إلى الغابة حوفظ على ضوابط الثقافي من أعراف ودين وأخلاق ، وبعد الدخول إليها تجوزت الضوابط وديست معايير الدين (دخول الأخ الأكبر بأخته) .

2 ـ الــديـــن :

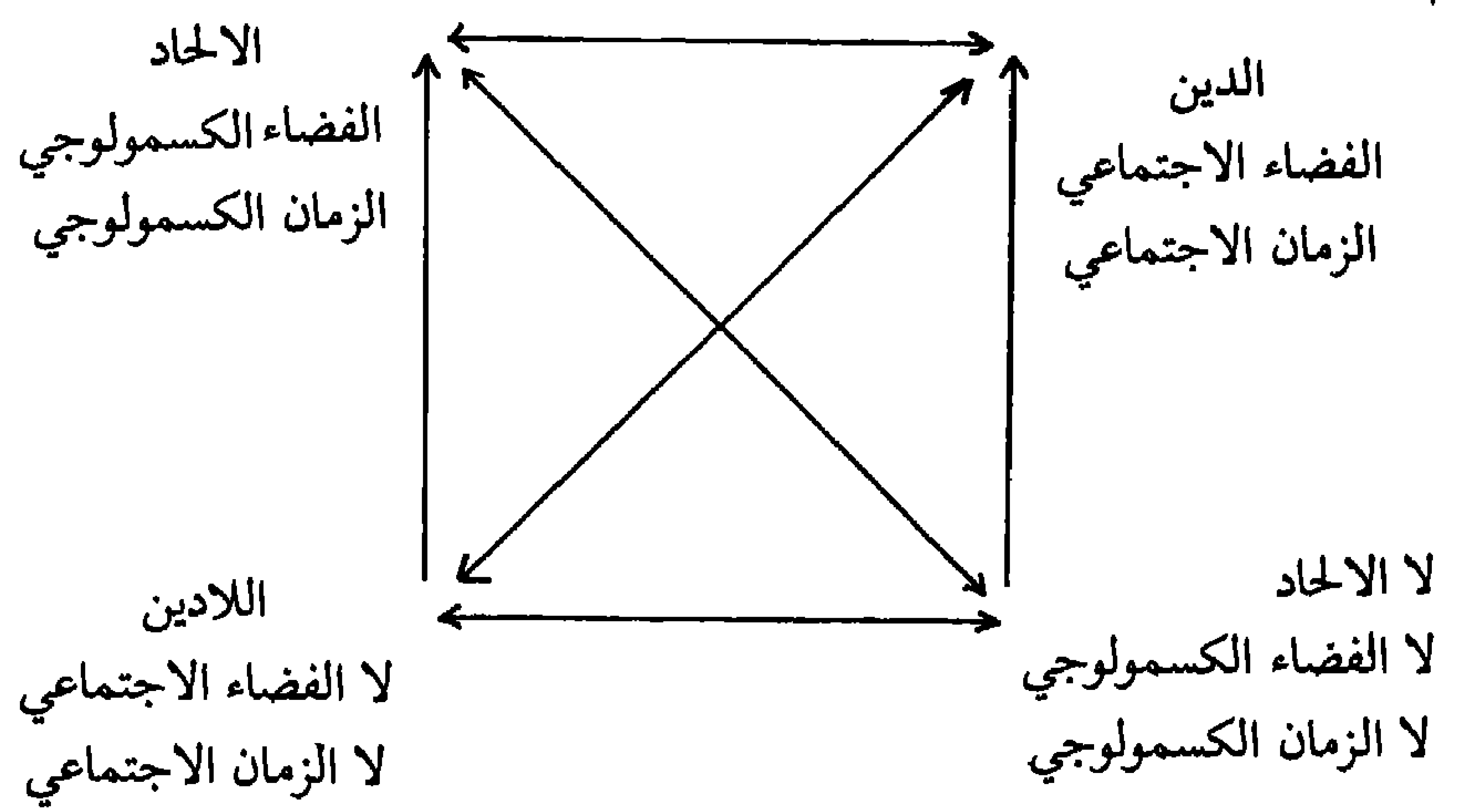
إذا كان الدين من ضوابط المجتمع ، فإنه ، إذن ، ينتمي إلى الثقافي ، ولكن النص ـ كما قدمنا ـ رجح كفة الطبيعي ، وعلى هذا ، فقد يظن أن تخصيص الدين بفقرة شيء لا أساس له ، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ؛ فقد ديست حرمات الدين حين دعت المصلحة وقد أبرز حين تبينت المصلحة .

النص ، إذن ، يبين لنا موقفين مزدوجين من الدين ومعاييره الأخلاقية ، فهناك عدم اكتراث به (الزوج بالمحارم) ، ولكنه يحتفل به لما يدره من سلطة مادية ومعنوية (طوبوا الطفلة قديسة) ، وقدَّموا لها النذور والقرابين وزارتها الغابة حتى امتلأ الصندوق . . . « وكانوا إذا التقوا حول « الربيعة » قالوا نحن اخوة » ..

إذن هناك رفض لمبادىء الدين التي تتنافى مع المصالح ، واستغلال واضح للجانب الذي يقدم منفعة . نظرة « براكماتية » تُسَمِّي الأشياء بأسمائها ، وتتحرك في فضاء جغرافي محسوس ، وهو الغابة . ونظرة إيهامية مضلّلة ترسم فضاء كسمولوجيا ؛ فالفضاء الجغرافي أفقي : من مكان الانطلاق إلى الغابة ، وكسمولوجي عمودي : قبب الأضرحة الخضراء ، الجبل الشامخ ، كما يمكن أن يقال : إن هناك زمناً اجتماعياً أفقياً : قبل دخول الغابة / بعد دخول الغابة ؛ وزمناً كسمولوجياً : قبل ممات الطفلة /.بعد ممات الطفلة وذهاب روحها إلى حيث الخلود ؛ أي : الحياة / المماة .

إن هذه القسمة الثنائية إلى نوعين من الدين والفضاء والزمان ليست تقسيماً كبيراً ،

فَالشَّوْبُ أو التركيب هو الغالب على النصوص التخريفَية الأسطورية بعوالمها الخارقة (الجن ، والظلام ، والكائنات الغريبة) . وتوضيحه :



فهذا المحور الأسفل ـ محور شبه التضاد هو المهيمن في النص .

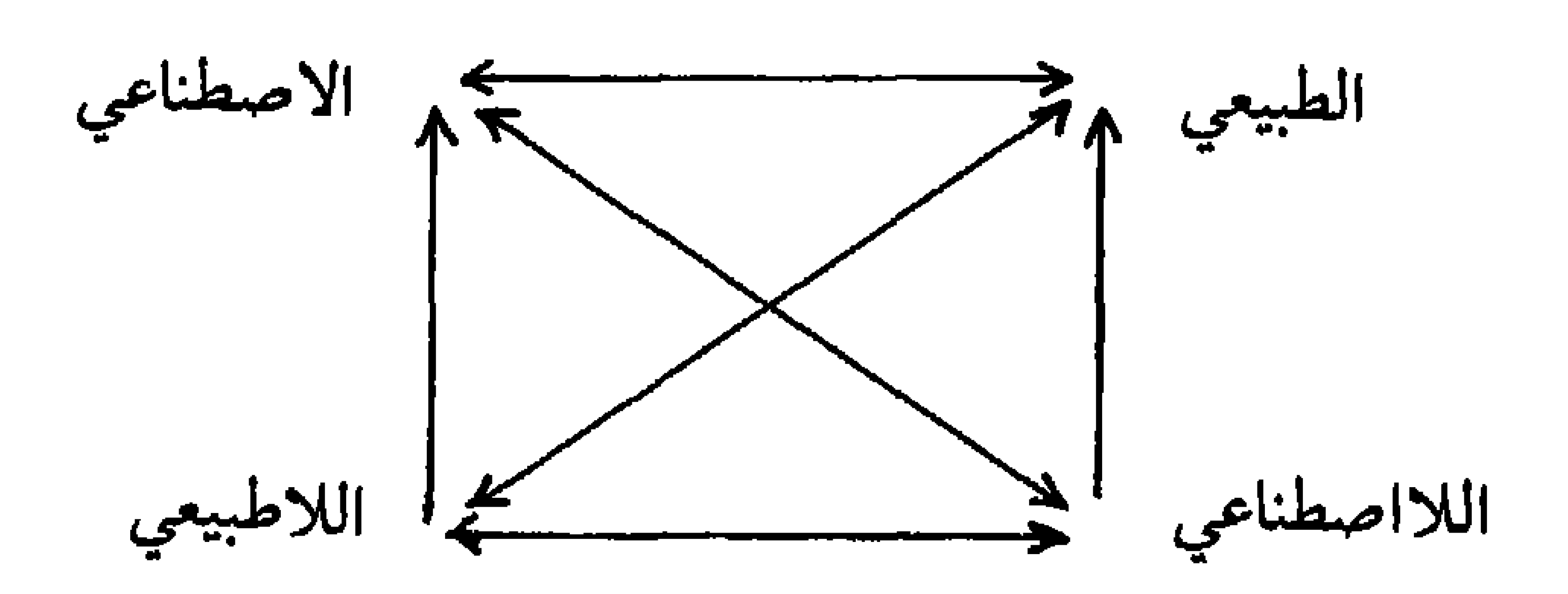
3 ـ الاقتصـــــاد :

تنظيم العلائق الجنسية أساس الحياة ، فإذا ما تمرد على التنظيم وقع الموت : موت أحد الممارسين ، وقد « قتل » النص الطفلة ، ولكن هذا « القتل » سبب في الحياة الرغدة للأطفال ، أو قل قتلها أكبرهم لينعم هو وإخوته بلذائذ الغنى والجاه تحت غطاء الدين ؛.وعلى هذا ، فإن ما يضمن الحياة ويبعد المماة هو المهيمن أي ما يمكن أن نسميه بـ « الاقتصاد » ونعني به هنا مجرد الطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع ما يقدمه إليه الطبيعي والثقافي ويحوله لصالح استمرار حياته . ويهيء الينا النص مواد « طبيعية » و « اصطناعية » ، أهمها : الأطعمة ، والنباتات ، والحيوان ، والدين . وسنعالجها على ضوء المقابلة الرئيسية التالية :

* الطبيعي / الاصطناعي .
* الطبيعي / الأصطناعي / الاصطناعي .

نقصد بالطبيعي ما لم يعالجه الانسان بمهاراته المختلفة وتركه غفلاً ، ونجد أمثلة له في الثمار ، والجداول ، والأعشاب . فقد اقترحت نفسها طعاماً ، وشراباً ، وفراشاً ، وبطبيعة الحال ، فإن الأطفال لم يبذلوا جهداً في إيجادها أو تهذيبها وتثقيفها ؛ وأما الطبيعي ـ الاصطناعي فهو ما نجد له أمثلة من الحيوانات (الخيل ، والبقر) فهذه كائنات طبيعية ولكنها ثقفت حتى صارت وسيلة لقضاء الحاجات المختلفة : يؤكل لحمها ويرضع لبنها ويحارب عليها ويسافر . . . بيد أن الاصطناعي هو ما « ابتدعه » الانسان ابتداء ، ويمكن أن يوجد مثل له في

النص . ولكن أهناك ابتداع مطلق ؟! لا نعتقد ذلك موجوداً في نصنا الخرافي ـ الأسطوري :



فمؤشرات الإثبات ، ومحور شبه التضاد يهيمنان على صورة النص ومضمونه .

* * *

تلك ، إذن ، ثلاث بنيات متداخلة ومتقاطعة ، إذ لا يمكن التفرقة فيها بوضوح بين الديني والتاريخي ، فإذا كانت، تظهر سيطرة الخارق ـ ومنه الدين على مستوى سطح النص ، فإن التاريخي هو المحرك العميق ، لأننا نظن أن مقصدية المؤلف لم تتوخ مجرد نسج لأسطورة بشكل بدائي على شاكلة أحاديث الجدات ، وعلى هيئة ما يوجد في التراث الانساني ، وإنما له مآرب أخرى ؛ ولذلك ، فإن المحلل لن يقف عند هذا الحد وإنما سيتعداه لإعطاء دلالة للنص بمساعدة مقصدية المؤلف والنص وَهَيْأة المخاطب ومقتضيات الأحوال ..

3 ـ المكـــون التداولـــي :

معنى هذا أننا سنحاول تبين العناصر التي تجعل نصاً ما ذا قيمة تداولية ، لأن أي نص إذا لم يتداول يبقى حبراً على ورق ، ومن ثمة لا تعطى له الأهمية التي يستحقها ولا يثمن المجهود الذي بذله المؤلف في صياغته وصنعته ، كما أنه لا يكفي حسن الظن بالمؤلف قبل التحليل والتمحيص. لهذا لا مناص لنا أن نستنطق النص من جديد لكشف البنيات الاجتماعية الموازية لبنيات التخريف ، وعلى ضوء هذه الموازاة نستشف مدى توفق الكاتب أو إخفاقه .

أ ـ من الخارق إلى الواقع :

على ضوء هذا الأساس نتساءل ؟ ما موازى السبعة والأطفال الثلاثة والغابة والمرأة والطفلة ورجال الغابة ؟ إذا سلمنا بوجود بنيتين متوازيتين ، إحداهما لغوية ، وثانيتهما اجتماعية ، فإنه يتعين قراءتان : إحداهما حرفية ، وثانيتهما مجازية متعلقة بالإنسان وبيئته . وإذا اتضح هذا فلنبدأ في التبيان :

1 ـ الطبيعي / الانساني :

ليس من المبالغة القول : إن موضوع الغابة هو المحور الأساسي الذي تدور عليه التوابع الأخرى . فقد دعـا هذا المـوضوع الحـديث عن الأشجار والغـابة والبـوم والأغصان والحصى والثمار والأعشاب والفراش . . . ولكن الوقوف عند ذكر هذه الأشياء ـ في هذا السياق ـ ليس مهما في حد ذاته ، وإنما تأتي الأهمية من الدلالة المبنية التأويلية الموازية للعناصر الطبيعية .

وعليه ، فإننا نظن أن الغابة هي المجتمع الذي ساد فيه قانون الغاب ؛ للتدليل على هذا نرجع إلى العناصر الطبيعية السابقة مع اقتصارنا على ثلاثة منها ذات أهمية خاصة :

أ ـ الأشجار :	التشاكل الأول :		الترابط		التشاكل الثاني
	الطبيعي :	→	أشجار الغابة العريانة	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قالت الأشجار . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قالت الثمار . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قال العشب . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	أشجار الغابة الحبلى	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	رقصت الأشجار . . .	←	الانساني :

ب ـ الأحجار :	التشاكل الأول :		الترابط		التشاكل الثاني :
	الطبيعي :	→	أحجار الغابة السهرانة	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قالت الأحجار . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	سلموا على الحصى . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	أحجار الغابة الثكلى	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قالت الأحجار . . .	←	الانساني :

ج ـ البوم :	التشاكل الأول		الترابط		التشاكل الثاني :
	الطبيعي :				الانساني :
	الطبيعي :	→	يا بوم الغابة اليقظان	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قال البوم . . .	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	باسوا الفراشات	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	ويا بوم الغابة المظلوم	←	الانساني :
	الطبيعي :	→	قال البوم من . . .	←	الانساني :

* هذه ، إذن ، ثلاثة عناصر أساسية من الغابة تحتمل قراءتين : طبيعية وإنسانية ، بناءً على ما قدمته اللغة من مؤشرات . ولنعط أمثلة لكيفية القراءة حتى يمكن أن يسار عليها :

* الشجر والحجر والبوم :
(المقومات الأساسية ـ القَوْلُ ـ الحَبَلُ ـ السَّهَرُ ـ الثُّكْلُ) .

* الانســـــان :
(المقومات الأساسية + العريُ + القَوْلُ + الحَبَلُ + السَّهَرُ + الثُّكْلُ) .

وعلى هذا ، فإن النص أسند خصائص إنسانية للجماد والنبات والحيوان ، وهذا الإسناد يوحي بالموازاة ولكنه لم يعينها . وعلى ضوء هذا الوحي نزعم أن :

* الأشجار العارية الحبلى هي ← البادية وسكانها .
* الأحجار الساهرة الثكلى هي ← المدينة وسكانها .
* البوم اليقظان المتكلم بالحكمة هو ← المثقفون .

ولهذا التخريج مرجحات تلتمس في الثقافة « الشعبية » و« العالمة » الإنسانيتين والمحليتين . وقد انعكس هذا في توزيع المؤلف للأوصاف بوعي منه أو بدون وعي ؛ فكلنا يعلم مقولة « أهل الوبر والمدر » ، فأهل الوبر ـ الأشجار هم سكان البادية ، وأهل المدر ـ الحجر هم سكان المدينة ، وكلنا يسمع عن إنباء البوم بالشر ، أولاً يسمى في بعض المناطق المغربية بـ« طائر الموت » ؛ وتلميحاً لهذه الدلالات الأسطورية فقد وجهت إليه أسئلة فكان يجيب بالأسباب الوجيهة وبالحكم البالغة .

2 ـ الانساني / الانساني :

إن هذه البنية ذات المكونات الثلاثة تتحكم فيها بنية ثلاثية أخرى متمثلة في الأطفال الثلاثة ، فهم الذين دخلوا الغابة ، وتأقلموا مع عالمها الخارق الموحش فعروا ، وأثكلوا . . . وهكذا ، نجد :

* الأقوى يستأثر بالأخت « كوثر » ويلحق الأذى بأخويه .
* الأجمل يريد أن يستميلها .
* الأذكى يميل إلى استعمال الحيلة .

ولكنهم جميعاً ـ بعد الخصومة والعنف ـ تصالحوا ودفنوا الأخت « كوثر » هذا هو المعنى الحرفي ولن نقف عنده ، وإنما سنوازي ونتأول عن طريق المشابهة ، وعليه ، فإن :

* الأقوى : هو الفئة العليا في المجتمع التي استأثرت بالمغنم ثم تنازلت بعد الهيمنة وقضاء المآرب .

* الأجمل : هو الفئة الوسطى .
* الأذكى : هو الفئة المثقفة .

على أنه مهما اختلفت « أنصباؤها » من الاستفادة ، فإنها جميعاً اغتنت من « ربيعة » كوثر . فمن كوثر هذه ؟ يقدمها النص طفلة بريئة راعية للبقرة مقهورة قائمة بـأشغال المنزل معانية « التمارة » و « الشقا » حتى أقنعتها امرأة للحاق باخوتها في الغابة فاقتنعت ولحقت بهم بعد مشاق عظيمة ولكن الأخ الأكبر اغتصبها .

لتأويل هذه الأحداث الحرفية نرجع إلى رمزية الأسماء في الفكر الأسطوري ، فـ « كوثر » يمكن أن تقلب إلى « ثروة » و « ثورة » . . . ويعزز هذا التخريج الآية القرآنية المعروفة ، والحاح النص على دلالة الثروة ، فالصندوق ممتلىء و « الربيعة » معين لا ينضب . . . ألا تكون هذه الثروة ناتجة عن الثورة التي ادعى الأخ الأكبر أحقيته بها ثم تنازل عن بعض الفتات .

إن هذا الاستئثار لم يقع بالتي هي أحسن وإنما نتج عن شيء غير قليل من العنف . فقد فقأ الأخ الأكبر عيني الأجمل وكسر ساقي الأذكى وبات يضرب أخته لعدم وجود الدم ، فقد استعمل ، إذن ، العنف والقهر للدخول والامتياز ، ولكن هذا العدوان الشامل الذي أصاب الأشخاص والأمكنة لن ينجو صاحبه من العقاب ، إذ ستتجمع الدماء لتكون عوامل كافية للفتك : ذلك أنه ارتكب محرماً للاعتداء على العذرة بدون شرع ، واعتداؤه محرم شرعاً لأنه زواج بالمحارم ، وجزاء كل هذا الثأر .

ب ـ جدلية الواقع والخارق :

تبين من خلال ما تقدم أن موازي الغابة بما فيها من أشجار وأحجار وطيور وذئاب وسكان المكان هو المجتمع بسلطته وتنظيماته المختلفة ، ولكن المجتمع نوعان : مثالي لا يوجد إلا على مستوى الحلم والأمل ، ومجتمع الغابة الموحش الغريب المؤلم الذي يمنح امتيازات ترضي الأنانية في مقابل أداء الضريبة . وقد صورت هذه المادة في وجهين : حرفي يمكن أن يُحْكَى للأطفال الصغار لاستخراج بعض العظات والعبر ، ومجازي ينبىء عن مقاصد وأهداف معينة يريد أن يبلغها ويصل إليها ، ولكن النص يتجاوز صاحبه ويوحي بما لم يرغب المؤلف في التعبير عنه ، وحينئذ تكون مقصدية النص ذات فائدة كبيرة في التأويل ؛ فمقاصد المؤلف ومقصدية النص يتلقاهما قارىء عبر العلامات اللغوية فيفهم ما تيسر ثم يتأول حسب العلاقات التي تكونت لديه . وعليه ، فان الناس قد يتفقون معنا في الموازيات التي منحناها للنص وقد يختلفون ، ولذلك فإنا ندعهم يجتهدون لتقدير مواز لـ :

* الأب .

* زوجة الأب .

وندعوهم لمناقشتنا فيما اقترحناه للعناصر الأخرى من توازيات ؛ على أنه مهما كانت المواقف فان ما يجب التمسك به هو أنَّ النص ترجمة تفاعل اجتماعي إلى لغة تشبيهية واستعارية . أي أن هذا النص هو مشابهة لواقع معيش ، ولكن لماذا الالتجاء إلى هذه الوسيلة الملتوية للتعبير عما يكتب فيه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بلغة « مستقيمة وواضحة » ؟ يجيب عن ذلك باحثون كثيرون : علماء النفس المعرفي ، والتحليل النفسي والأنتروبولجيا . . .

III ـ أفقية التحليل وعموديته :

لقد حاولنا أن نجيب بعض الإجابة معتمدين على منهاجية الدراسات الأنثروبو ـ سيميائية مع إدخالنا عليها تعديلات لتساير أحدث الاجتهادات في ميداني تحليل الخطاب والأساطير . ومعنى هذا أننا لم نطبق حرفياً منهاجية كريماص ، إذ انها تعاملت مع نصوص « عادية » ليست فيها صنعة كتابية حديثة : ليست فيها « مقاطع شعرية » ولا أنواع من البياض ، ولا ضروب من الحذف ، ولا هيمنة تداخل اللغات والأقوال . . . كما أن تلك المنهاجية وضعت قبل أن تتسرب مفاهيم الذكاء الاصطناعي ، ويشتد ساعد التداولية ، ويتغلغل الأخذ بدينامية النص .

ومراعاة منا لهذه الثغرات والمستجدات فقد سَيَّرْنَا مقاربتنا الأوَّلية هذه بحسب المفاهيم التالية : **الاتساق ، والانسجام، والحوارية ، والسياقية ، والمقصدية** ؛ ومن ثمة ألححنا على تبيان العلاقة التي يقيمها النص مع غيره ومع نفسه عن طريق « الحوار الخارجي » و « الحوار الداخلي» وتنوعاتهما المختلفة التي تعرضنا لها في بحث آخر، وعلى هذا فَقَدْ خرجنا من شرنقة التحليل الأسطوري البنيوي لليڤي ستراوس . فقد عني هو وأتباعه باستخراج المقولات الإنسانية الأسطورية ، وتبيان العلائق فيما بينها ، ولكنهم لم يراعوا ـ كما يجب ـ العلاقة بين النص وسياقه ، فلم يبحثوا عن موازيات واقعية لأشكال التعبير التخريفية والأسطورية . قد يكون شفيعهم في ذلك « طبيعية » المادة المحللة ، إذ لم يكن يستطيع الفكر « البدائي » التعبير إلا بها، ولكن الأمر يختلف في الفكر « المتحضر » ، وفي العمل الفني القصدي ؛ فقد تصبح الأسطورة ـ التخريف ليست إلا وسيلة للتمويه والتعمية والإلغاز : لا يريد الناس السخرية علانية من نظم المجتمع وتنظيماته فيلجأون إلى مثل تلك الأساليب .

إذن، استخراج المقولات وإبراز شبكة العلاقات عملية ضرورية في التحليل ولكنها

ليست كافية . فلا مناص لباحث في مثل تلك النصوص أن يبرز المقولات التالية : الحياة - المماة ؛ الطبيعي - الثقافي ؛ الديني - الانساني ؛ الكسمولوجي - الاجتماعي . . . بل لا مفر له من أن يبين « الحد المركب » ، ولكن الوقوف عند هذا القدر سيجعل كل تحليل متأخر تحصيل حاصل . وعليه ، فان وسيلة الخروج من هذا الدور هي الثورة على البنيوية المحافظة لصالح بنيوية متفتحة تعير الاهتمام إلى مقاصد المؤلف وهيئة المخاطب ومقتضيات الأحوال . وهذا ما فعلناه وإن لم يكن إلا خطاطة .

مراجع :

يدرك المطلع أن هذا البحث اعتمد على « بروب » و « ليفي ستراوس » ، و « كريماص » ودراسات أخرى عديدة ، ومع ذلك ، فإننا نذكر له بعض المراجع ذات الأهمية القصوى في هذا الشأن :

- Marilyn RANDALL (1985). Context and Convention - the Pragmatics of Literarness, Poetics. 14, 415 - 431.
- Kathrine YOUNG (1984). Ontological puzzles about narrative Poetics. 13, 239 - 259.
- Jan WIRRER (1982). Learning tofollow the fiction Convention. Poetics, 11, 371 - 391.
- R.E.HASKELL (1985). Thought - things: levy Strauss (The modern mind). Semiotica 55 - 1/2, 1 - 17.
- KARN M.BOKLUND - Logopoulou (1984). the life of Saint Alexius: Structure and fonction of a Medieval popular Narrative Semiotica. 49 3/4/243 - 281.
- Jerry Samet and Roger Schank (1984). Coherence and Connectivity. Linguistics and philosophy, 7, 57 - 82.
- Walter Ong (1984). Orality, literacy and medieval Textualisation New Literary history. Vo XVI.No 1, 1 - 12.
- Jean Petito - Cocorda (1985). Morphogenèsé du Sens. Paris, P.U.F.
- Michel IZard et Pierre Smith (1979). La fonction Symbolique Paris Gallimard.

ملحـــق

الغابــر الظاهـــر

كان حتى كان ، في قديم الزمان ، كانت العرجا تنقز الحيطان ، والعوار تخيط الكتان ، والطرشا تسمع الخبر فين ما كان .

قالت الطرشا : سمعت حس الخيل دازو ، قالت العورا : أنا حسبتهم سبعة ، قـالت العرجا : تحزمو نلحقوهم .

وحين لحقناهم لم نجد خيلاً . . لم نجد غير ثلاثة أطفال صغار في طرف الغابة يقفقفون من البرد ، ويمدون أبصارهم المتوجسة إلى الغابة في الظلام .

فيا أشجار الغابة
يا أحجار الغابة السهرانة
ويا بوم الغابة اليقظان
لماذا يخرج في الليل أطفال هذا الزمان ؟

قالت الأشجار : ماتت الأم
قالت الأحجار : تزوج الأب
قالت البوم : لا يرضى الأطفال الظلم
قالت الأشجار والأحجار والبوم : الحياة حارة .

الأطفال الشجعان ، دخلوا الغابة . الأطفال الجميلون الشجعان ، سلموا على الحصى وباسوا الفَرَاشات وصافحوا الأغصان . قالت الثمار : أنا لكم الطعام، قالت الجداول : أنا

لكم الشراب ، قال العشب الأخضر الطري : أنا لكم الفراش .

لكن الأطفال الشجعان ، قلبوا الغابة . سموا الذئب أباً ، سموا « سكان المكان » زوجة أب ، وسموا ناموس الغابة الظلم . دقوا الحصى بالخشب ، صفروا في القصب ، وهزوا بأقدامهم عنق الأرض البليد ، ففار العشب وضحك الماء ورقصت الأشجار ، جنت الريح وانفضحت كل الأسرار .

أح على الأطفال الشجعان .
بلعتهم مرجة الماء وغار بهم سكان الغدران
الأقدام الحافية الرخصة .
وخزتها إبر الجن
عرفت شوك السر وشوك الظن

وكانوا إذا لقوا بعضهم قالوا نحن اخوة ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .

- 2 -

وقع الظل على الطفلة كوثر ، فالتفتت ورأتها . قالت المرأة مبتسمة :

ـ « تعالي معي » : صدرها واسع وفستانها ملون وصوتها عذب وحنون ، قالت الطفلة مبهورة : أنا أرعى البقرة ، وأبي يضربني إذا . . .

ـ اتركي خلفك البقرة وأباك ، وتعالي معي ، أصنع لك عشرات العرائس ، وأعلمك الغناء ، وأما أكون لك .

قالت الطفلة مقهورة : أنا أجلب الماء ، وأشطب الدار ، وزوجة أبي تضربني إذا . . .

ـ اتركي خلفك « التمارة » و« الشقا » ، وتعالي معي . آخذك إلى إخوتك الغائبين فتفرحين ويفرحون بك ، وَتَعِيشينَ في بيتهم الكبير أميرة . تبعتها الطفلة مسرورة ، وغابت معها في الغابة .

سارت كوثر وراء المرأة طول النهار ، فلما أظلم الليل أرتها في الأفق ناراً صغيرة :

ـ تلك نار إخوتك يا حلوة ، فأسرعي إليها .

وحين التفتت كوثر لم تجد المرأة . . لم تر في الليل والغابة إلا تلك النار الصغيرة تغمز بالخوف وبالحب . . . قالت الطفلة : يا نار ، إن كنت نار اخوتي فاقتربي ، اقتربي ، وإن كنت نار الجن فابتعدي ابتعدي . فلما أجهدها السير والخوف والوحدة ، سالت على خديها الدموع

الصغيرة المرتعشة وقالت : يا نار اقتربي . . حتى لو كنت نار الجن اقتربي .

وسارت الطفلة والنار نحو بعضهما .

لما وصلت كوثر ، دقت الباب ، فسمعت صوت أخيها الأكبر : من يدق الباب ؟ من الأعداء أو من الأحباب ؟ . . قالت الطفلة فرحة : « أنا كوثر » .

ففتحوا لها الباب ، واستقبلوها بالأحضان .

- 3 -

ثم أن كوثر حكت لإخوتها جميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر ، وكذلك هم أخبروها بجميع ما جرى لهم ، وأقيمت الأفراح ، والليالي الملاح ، وقال الأقوى : أنا عريسها . قال الأجمل : أنا حبيبها ، قال الأذكى : دعوها تختار . قالت كوثر : أنا أختكم ، يا ويلكم . قالوا لها : دعي عنك القيل والقال ، ولا تتعلقي بالمحال ، فلا بد للنساء من الرجال ، ثم إن الأقوى لم يسمع كلام أخويه ، ولطم الأجمل ففقأ عينيه . ، وضرب الأذكى بعصا فكسر ساقيه ، فهربا منه إلى خارج البيت ، ودخل هو بأخته تلك الليلة فلم يجد بها دماً . وبات أخواه يسمعانه من خارج البيت يضربها بالعصا طول الليل وهو يصيح : أين الدم ؟ أين الدم ؟ أين الدم ؟

فيا أشجار الغابة الحبلى

فيا أحجار الغابة الثكلى

ويا بوم الغابة المظلوم : أين الدم ؟

قالت الأشجار : دم العذرة ، ثلث الشعرة

قالت الأحجار ، دم القرابة ، الثلث الثاني

قال البوم : من يفلق الشعرة ، تفلقه الشعرة ، ودم الثأر ، الثلث الباقي .

قالت الأشجار والأحجار والبوم : الخوا حارة .

وفي الصباح ، تصالح الأخوة الثلاثة ودفنوا أختهم ، وبنوا على قبرها ضريحاً بقبة خضراء . قال الأكبر : كانت ابنتي . قال الأوسط : كانت أختي ، قال الأصغر : كانت أمي . طوبوا الطفلة قديسة ، وقدموا لها النذور والقرابين ، وزارتها الغابة حتى إمتلأ الصندوق . . . وكانوا إذا التقوا حول « الربيعة » قالوا نحن اخوة ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون .

آح على الطفلة الصغيرة المسكينة كوثر .

ويا أيتها الأشجار والأحجار والأبوام : الموت حارة .

رجال البلاد ـ سكان الأضرحة ذوات القبب الخضراء اجتمعوا في قمة جبل شامخ ـ وادار كوا أمر الأرض والزمن الفاسد والجبل الماسخ ـ لم تقبل في الجمع شفاعة ـ اتفقوا وأعطوا التسليم ـ وصلوا الفجر جماعة .

أحمد بوزفور ـ 1985

الفصل السادس

الإنسجام في النص القرآني

I ـ وضع الإشكال :

تهدف هذه المحاولة إلى تعميم النظرية التي اختبرناها قبل في النصوص الأدبية لتشمل النص القرآني ، على أننا سنخص بالتناول منه ما يدعى بـ « ناسخ القرآن ومنسوخه » فقط .

من المؤكد أن الحديث عن هذه الإشكالية من أي باحثٍ ، أكان متخصصاً أم غير متخصص يعتبر ضرباً من المغامرة الفكرية المحفوفة بكثير من المخاطر ؛ إذ ليس هذا الموضوع غفلاً مهملاً لم يتناوله الناس ، ولكنه شغلهم من القرون الأولى الإسلامية إلى الآن . كما أنه ليس موضوعاً منفصلاً لا يمت إلى ما حوله بصلة حتى يأمن الباحث مما يترتب عَنْ آرائه من نتائج ؛ فهو ذو صلة وثيقة بالأسس الفلسفية التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية ، وهو ذو وشائج قوية بعدة مفاهيم كلامية وأصولية ، أو إن شئنا قلنا: إنها تولدت عنه مثل تعارض الأدلة والتدرج في التشريع وتأخير البيان عن وقت الحاجة ومسألة شرع من قبلنا . . .

لقد كتب ، في « ناسخ القرآن ومنسوخه » ، باحثون يكادون لا يحصون عدداً ؛ ومن ثمة فان من أراد أن يتعرض لآراء كل من خاض في هذه المسألة فإنه يكادُ يروم مستحيلاً ، ولذلك ، فإن الوجهة السليمة هي التصنيف بحسب الاتجاهات ؛ وعليه فإن الباحث يستطيع أن يرصد ثلاثة اتجاهات أساسية ، هي :

1 ـ القائلون بوجود النسخ في القرآن ، ويمثل هذا الاتجاه بصفة خاصة مؤلفو « الناسخ والمنسوخ في القرآن » ، وقد أخرج كثير من هذه المؤلفات إلى عموم المهتمين للاطلاع عليها ، كما كتبت حولها دراسات مفيدة .

2 ـ القائلون بندرة ناسخ القرآن ومنسوخه ، وهم أقلية بالقياس إلى الاتجاه الأول ، ونذكر من بينهم « فخر الدين الرازي » و « أبا بكر بن العربي المعافري » و « أبا اسحاق الشاطبي » و « مصطفى زيد » ، و « محمد أبو زهرة » . . .

3 ـ المنكرون لوجوده ، وأشهرهم أبو مسلم الأصفهاني من القدماء ، وجماعة كثيرة من فقهاء مصر المحدثين . ويمكن للمهتم أن يطلع على آراء أبي مسلم الأصفهاني في كتب التفسير والأصول كما يمكن له أن يتعرف على آراء الفقهاء المصريين من خلال مناقشاتهم وفتاويهم التي ورد بعضها في كتاب « لا نسخ في القرآن »[1] .

تلك أهم وجهات النظر في هذه المسألة الشائكة ، وهي ـ كما رأينا ـ وجهات نظر علماء الإسلام ؛ على أنه يمكن أن يضاف إليها وجهة نظر استشراقية تركز على وجود النسخ في القرآن لتبني على ذلك دعوى التناقض التي تَسِمُ بها القرآن ، ونجد آراءهم هذه مبثوثة في مقدماتها لترجمات القرآن ، وفيما ألف حول « العقيدة والشريعة في الإسلام »[2] . بيد أن هذا الموقف المحدث من هؤلاء المستشرقين ليس إلا امتداداً لآراء اليهود والأمم الداخلة في الإسلام وبعض الملحدين .

إن موقف الداخلين في الإسلام من أمم أخرى وثقافات مُخْتلفة ، أو الكاتبين عنه تحكمهم وتوجه آراءهم نظرات فلسفية كالمسلمين الصادقي الإسلام أنفسهم ؛ فالذي يقول بالنسخ يقدم حججه على فضائل النسخ ومزاياه ، والمحتاط من القول بالإفراط فيه يعي مغزى موقفه ، والمنكر له يرى أن القول به يسيء إلى دين الإسلام وروحه .

القول بالنسخ في القرآن أو بعدمه ، إذن ، ليس رأياً سائباً أو كلاماً يُلْقَى به على عواهنه ،وإنما كل وجهة نظر تسير حسب استراتيجية معينة مشروطة بمقصديّتها وأنواع مخاطبيها ومقتضيات أحوالها . على أنه إذا كان هناك مفكرون أفذاذ يتصرفون بحسب نظام فكري مضبوط ويقولون على ضوئه ، فإن شراحهم وشراح الشراح لم يستوعبوا ـ غالباً ـ عناصر ذلك النظام الفكري . لذلك يجد القارىء مزيجاً بين عدة أنظمة فكرية مختلفة وأقوال متناقضة مسوقة

---

(1) أحمد حجازي السقا ، لا نسخ في القرآن ، دار الفكر العربي . ط . 1398 هـ/1978 م .

(2) أنظر كولد تسيهر ، وبخاصة كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام ».

بدون تمحيص ولا إعمال روية في المؤلفات المقلدة . كما أن أغلب الدارسين المحدثين لم يَعْدُ أَنْ يَنْقُلَ ويستشهد ، وكأن تلك النقول والاستشهادات منسجمة مما لم يُؤَدِّ إلى تقدم البحث العلمي ، وإنما نتج عنه إعادة واجترار وهوامش . . .

بناءً على هذا ، فإنه على كل باحث جاد أن يدرك هذه البديهية المشار إليها آنفاً ، وهي : أن الخلاف في القول بناسخ القرآن ومنسوخه هو خلاف في النظرة إلى دين الإسلام وروحه ؛ وأسس الخلاف اقتصادية واجتماعية وسياسية ؛ وقد بدأ بعد موت الرسول وتجذر في القرون اللاحقة وتعمق .

إن الباحث الحديث في بعد زماني (ومكاني أيضاً) عن خلفيات ذلك الصراع القديم الذي تولد عَنْهُ خلاف في التأويل ؛ على أنه ليس في مأمن مطلق ، إذ ما زال الصراع على أشده بين الفئات المتناحرة . ومن وسائل تناحرها النص القرآني . ومعنى هذا أن أي باحث مسلم (وعربي) ليس محايداً تمام الحياد لأن ذلك ليس متصوراً ، ولأنه غالباً ما تكون له فلسفة ما في الحياة .

ومع ذلك ، فإن هذا الباحث لا يريد أن يتقمص دور الداعية ، ولا وظيفة الواعظ وإنما سينظر إلى المشكل في موضوعية مسترشداً بما تراكم له من خبرات في ميدان « تحليل الخطاب » . وقد هدته خبراته تلك إلى أن يتبنى القول بعدم وجود النَّسْخ الابطالي في القرآن .

محاولته ، إذن ، هي دفاع عن الرأي الثالث بنَظَريَّةٍ متماسكة أثبتت جدواها وفعاليتها في تحليل الخطاب الدنيوي ؛ على أن هذه النظرية يجب أن تقوّم بحسب مفاهيم فلسفة العلوم المعاصرة لا بالعاطفة والكلام اللامسؤول .

II ـ التصريح بالمبادىء :

إذا توضح هذا فلنصرح بمبادئنا التي سننطلق منها ، وهي :

1 ـ اعتبار آراء السلف :

خصوصاً من صاحب منهُمُ الرسول ومن قارب عهده ـ في مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن ، وغض الطرف عن الآراء الأصولية المتأخرة التي جاءت نتيجة للصراع بين مفكري الإسلام ومفكري اليهود والأمم الأخرى ؛ ويَتَوَلَّدُ عن هذا المبدأ ما يلي :

أ ـ قصر معنى النسخ على نسخ الكتاب ونقل الشيء وتحويله من حالة الى حالة مع بقائه في

نفسه، وتحويل الميراث من واحد الى واحد[3]. . . أي أن ما يهم الباحث في هذه الدلالة اللغوية هو: **النقل، والتحويل**؛ فهاتان الكلمتان العاديتان أصبحتا في الدراسات الحديثة مفهومين أساسيين لضبط العلاقة بين أنواع الخطاب ، ولهذا ، فإن الباحث سيتبناهما وسيرفض معنى النسخ بمعنى ارتفاع الحكم وإبطاله، ويغض الطرف عما تولد عن هذا المفهوم المتأخر من أقسام وشروط وقواعد وإن وجدت عند علماء مشاهير طبق صيتهم الآفاق ، لأن هذا المفهوم الأصولي المتأخر للنسخ يقتضي : « أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ **متناقضاً** »[4] ، ويزعم الباحث ـ وسيبرهن على ذلك ـ أن علاقة التناقض والتعارض وما أدى مؤداهما من الألفاظ ليست موجودة في القرآن .

ب ـ اعتبار فهم السلف للدليل الشرعي وعملهم به . يقول الشاطبي : « يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون ، وما كانوا عليه في العمل به ، فهو أحرى بالصواب »[5] .

ج ـ « لا اختلاف في أصل الشريعة »[6] .

2 ـ استثمار المناهج اللسانية والسيميائية :

أ ـ اعتبار النص القرآني كلا لا يتجزأ لأنه يهدف إلى غاية واحدة وإنْ تنوعت مظاهر تعبيره ، وينطلق من فلسفة منسجمة وإن تبين للناظر إلى سطح الأمور تنوعاً في القضايا . لذلك يجب التسليم بأن الآيات التي تدور على قضية واحدة ، وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف ، لها **ثابت بنيويّ** تنطلق منه لتفصله أو تكمله أو تبينه في الآيات المكية أو لتخصصه أو تقيده[7] في الآيات المدنية ، ولكنه مهما كان الحال فانها لا تناقضه . وكذلك الأمر في الآيات التي تتحدث عن قضية واحدة (آيات الصيام مثلاً) ويمكن أن تُدْعى هذه الوشائج **بالعلاقات الداخلية** .

ب ـ مراعاة مقتضى الأحوال التي نزل فيها القرآن ، ومجاله التداولي ، وزمانه ؛ أي علاقات النص القرآني بالشرائع والعادات والأعراف السابقة والمعاصرة . ونستطيع أن نطلق على هذه العلاقات اسم : **العلائق الخارجية** .

---

(3) تجد هذا المعنى في أي كتاب يتناول الناسخ والمنسوخ في القرآن .

(4) أبو حامد الغزالي ، المستصفى ـ باب الناسخ والمنسوخ ، القاهرة ، المطبعة الميريّة ، 1322 هـ .

(5) أبو اسحاق الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة (ج : 1، ص 77) دار المعرفة ، بيروت لبنان .

(6) هذا المبدأ كثير ما ألح عليه الشاطبي في كتابه السابق .

(7) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 406) .

على أن هذه النظرة الشمولية تقتضي من الباحث أن لا يعير كبير اهتمام لأسباب النزول[8] التي ليست موثوقة ، إذ كثيراً ما أفسدت علاقات الآي بعضها ببعض وشوشتها بدلاً من أن تلحم بينها وتلقي عليها مزيداً من الضوء .

إن هذه المبادىء التي انطلقنا منها ترجع إلى رافدين أساسيين ، هما :

أولاً : الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة قبل أن تَتَعمَّقَهَا الإسرائيليات والمسيحيات والهنديات والفارسيات . . . وتنظير بعض الأصوليين الذين أدركوا مَغَازي الخطاب القرآني وروحه .

وثانياً : نتائج الدراسات المدعوة بتحليل الخطاب وبالسيميائيات .

III ـ مفاهيم التحليل :

على أن وضع الإشكال وإعلان المبادىء لا يكفيان ، وإنما يجب أن تَتَوَافَرَ على مفاهيم إجرائية لإنجاز تلك المبادىء واخراجها من النِّيَّةِ إلى العمل ، ولذلك ، فإننا سنعمد إلى غرضنا تواً ، فنقول : إنها هي : المقصدية ، والمماثلة والمشابهة ، ونوع العلاقة ؛ هذه ثلاثة مفاهيم أساسية سنتناول بالإيضاح كلاً منها على حدة .

أولاً ـ المقصدية[9] :

نعني بها ما يَكْمُنُ ويَحْكُمُ من معتقدات ومقاصد وأهداف . . . فِعْلَ الكلام الصادر من متكلم إلى مخاطب في مقتضيات أحوال خاصة . وبناء على هذا ، فإنه ينحل من هذا القول ثلاثة عناصر أساسية هي : المخاطِب ، والمخاطَب ، وظروف التنزيل ، أو ما عبر عنه الشاطبي بالمقاصد ومقتضيات الأحوال .

1 ـ المخاطِب :

هو الرسول الذي يعرف كل مسلم سيرته جملة أو تفصيلاً ، لذلك ، فإن الأهم في هذا السياق هو التركيز على النظرة الفلسفية إلى هذا المخاطب ؛ وأهمها نظرتان أساسيتان ، وثالثة مستخلصة .

---

(8) إذا صح سبب النزول ، فهو بطبيعة الحال يدخل ضمن مقتضيات الأحوال ، وإنما نقصد أسباب النزول الواهية التي احترز منها السلف أنفسهم .

(9) تناولناها في بحثنا « الحوار في الخطاب الشعري » .

أ ـ انه كان يخاطب الناس بلسان عربي مبين ، فقد « اتفق المؤلف والمخالف على أنه (القرآن) منزل بلسان عربي مبين »[10] ، وقد انبنى على هذا الأصل عدة نتائج وهي : **تفضيل النص** «وهو الذي لا يحتمل التأويل »[11] على غيره ، وإذا كان هناك تأويل فـ « يجب أن يبنى على ما تعرفه العرب في حقائقها المستعملة وفي مجازها »[12] ، **وإعطاءُ الأسبقية للحقيقة على المجاز** . يقول الشاطبي : « إذا كان الدليل على حقيقته في اللفظ لم يستدل به على المعنى المجازي إلا على القول بتعميم اللفظ المشترك بشرط أن يكون ذلك المعنى مستعملاً عند العرب في مثل ذلك اللفظ وإلاَّ فَلاَ »[13] ، ويقول في فقرة أخرى جامعة ما يلي : « فإن وجد في الشريعة مجمل أو مبهم أو ما لا يُفهم فلا يهم أن يكلف بمقتضاه لأنه تكليف بالمحال وطلب ما لا ينال »[14] .

إن وجهة النظر هذه ترى وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير التواصلي ، أي أنه يجب في التعبير اللغوي أن يكون واضحاً دقيقاً شفافاً يعبر عن مستويات « الواقع » بكل حياد وأمانة وصدق . ومؤدى هذا الرأي ـ إذا تجاوزنا سطح الأشياء إلى عمقها ـ أن الإحكام أفضل من النسخ ، والصدق مؤثر على الكذب ، ونتيجته القصوى رفض النسخ جملة وتفصيلاً ، والوسطى عدم القول بنسخ الأخبار والوعد والوعيد .

ب ـ أن الرسول مبلغ مشيئة الله ، ولذلك ، فإنه يمكن له أن يخاطبهم بالمحكم وبالمؤول وبالمشترك وبالمتشابه وبالمجمل . ولهذا الاتجاه أتباع عديدون مثل الباطنية ، والمعتزلة وصوفية الإشراق . ونعتقد أن كل من شدا شيئاً من الثقافة العربية ـ الإسلامية يهوله غزارة التراث التفسيري والعقدي المدافع عن هذا الاتجاه ، ولذلك فإنه لا داعي للإكثار من ضرب الأمثلة ، وإنما نسوق مِثَالاً واحداً فيه كفاية للاستدلال على ما نقول ؛ يقول الزمخشري : « لو كان كله (القرآن) محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق التي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما في المتشابه من الإبتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه »[15] .

ج ـ تلك قسمة كبرى تقدم لنا وجهتي نظر مختلفين؛ **إحداهما** : تعبيرية ، وهي أقرب إلى طبيعة الإسلام وأكثر ملاءمة لظروف التنزيل ، **وثانيتهما** : تعكس الاتجاه الاعتزالي وأضرابه

(10) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 391) .
(11) الغزالي ، المستصفى ، ص 384 .
(12) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 55) .
(13) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 45) .
(14) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 343) .
(15) نقلاً عن « لا نسخ في القرآن » ، ص 255 .

الذي أبعد في التأويلات والتخريجات ، تلك التأويلات والتخريجات والتوجيهات التي تعكس هموم القائلين بها أكثر مما توضح طبيعة الإسلام .

على أن وجهتي النظر هاتين ـ وإن كان يظهر فيهما تنافر واضح ـ بينهما قواسم مشتركة ، أهمها : أن الرسول مؤهل لأن يبلغ رسالة ربه ، ومتسامٍ لا رادّ لكلماته ، ولكنه إذا اتفق على هذا من حيث المبدأ فإن بعض الأصوليين ذهب بـه إلى أبعد مـدى وهو التكليف بما لا يطاق ، ولكن أغلبية الآراء ترى أن التكليف بما لا يطاق مرفوع عن الأمة . كما أنه من الصعوبة بمكان أن نصنف تلك الآراء المتضاربة ـ ظاهرياً ـ إلى تلك القسمة الكبرى. ذلك أننا إذا وجدنا من يتبنى تلك النزعة الظاهرية ، فإننا نراه في الوقت نفسه يتبرأ مِنْ نَزْعَتِها . وإذا ما وافق على بعض آراء الاتجاه التأويلي ، فإنه لا يلبث أن يسدد سهام النقد إليه ؛ ومع صعوبة الضبط هذه ، فإنه يتحتم التصنيف والتبسيط وتجاوز الظاهر لصياغة نظرية متماسكة .

2 ـ المخـاطَـب :

مهما يكن ، فإن الرأي الغالب لدى باحثي الإسلام هو التقليل من أهمية المخاطب في تكييف عملية الخطاب وإن كنا نجدهم يقولون : إن الشريعة جاءت لمصالح المكلفين ، ويفرقون بين ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة .

لهذا ، فإننا نستثمر هذه المؤشرات ـ مصالح العباد ومقتضيات الأحوال ـ لندفع بها إلى أقصاها فنمنح دوراً للمخاطب أساسياً في تكييف الخطاب . ذلك أن القرآن بُلِّغَ منجماً في مدة ثلاث وعشرين سنة ، وكان الرسول في هذه المدة ، يواجه أناساً متعددي المعتقدات ومتنوعي الثقافة ومختلفي البيئة . وتبعاً لهذا الاختلاف ، كان الرسول يكيف خطابه الموحَى إليه بهِ بحسب نوعية المخاطب ؛ وكتب السيرة والحديث والآثار مليئة بهذه المحاولات التكييفية ، إنها عملية تربوية ضرورية ، إذ ليس من الحكمة أن يُخَاطَبَ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وعلي . . . بنفس المستوى الذي يوجه به الكلام إلى بدويٍّ أعرابي آتياً ، وسيفه في يده ؛ ففي النمط الأول تكفي الإشارة واللمحة لفهم المقصود ، إذ هناك معرفة خلفية مشتركة بين الرسول وبين هؤلاء الصحابة إن لم تكن مشتركة بصفة كلية فإن كثيراً من عناصرها مشتركاً فيه . وفي الطراز الثاني ، كان الرسول مضطراً لأن يفصل ويوضح ويضرب الأمثلة المستقاة من البيئة حتى يحصل الإدراك والفهم .

بالمثلين السابقين ـ جلة الصحابة والبداة الأعراب وما بينهما من مراتب ـ نستطيع أن نوفق بين وجهتي النظر : التعبيرية والتأويلية ، فقد كان الخطاب يتم بإبانة ووضوح أو بإيجاز وتلميح إذا كان الفهم مضموناً ، وقد يقتصر فيه على التفصيل إذا كان المخاطب لا يدرك إلا به .

نتيجة هذا التحليل أنه لا يمكن جعل الخطاب القرآني كله واضحاً صريحاً لا يحتاج إلى شرح وتبيان لأي كان وإن وجد في عصر التبليغ ، كما أنه لا يمكن أن ينسب إليه قصد الإتيان بالمشابه للابتلاء والاختبار ، وإنما الصحيح ـ في نظرنا ـ أن أسلوب القرآن تكيف بحسب نوعية مخاطبيه ، وبحسب القضية المتحدث عنها والسياق الذي دار فيه الخطاب .

3 ـ ظــروف التنزيــل :

عملية الخطاب ، إذن ، وإن كان دينياً لها أركان ، وهي : مخاطِب ↔ مخاطَب ، ويكونان كلا لا يتجزأ ، وخصوصاً في الخطاب الديني التبليغي الذي يهدف إلى التأثير والإقناع والدعوة إلى الإيمان ؛ على أن هناك ركناً ثالثاً يحيط بهما معاً ويؤثر في كل منهما ، وهو مقتضيات الأحوال . ذلك أن ظروف مكة التاجرة الحاوية لمعبودات العرب ليست هي ظروف المدينة ـ يثرب التي كانت فيها قبائل متنوعة شمالية وجنوبية ويهودية . كما أن ظروف الرسول وظروف صحبه الصعبة في مكة ليست هي ظروفه في المدينة التي تقوى فيها جانبه وتعضد . . .

لقد أفاض القدماء والمحدثون في هذه النقطة ، وأتوا فيها بآراء صائبة ، وقد أشرنا إليها لا بقصد الإعادة والتكرار ولكن لننبه إلى أن الخطاب القرآني تكيّف بحسبها ولنبني عليها وجهة نظرنا في مشكل ناسخ القرآن ومنسوخه .

مهما يكن ، فإن محلل الخطاب ، ومنه الخطاب القرآني ، ملزم بأن يراعي تلازم هذه الأركان الثلاثة : مخاطب يأخذ مبادرة الحديث ، ومخاطب يكون له تأثير في اختيار المخاطب ألفاظه وتعابيره وأسلوبه ، وظروف جرت فيها عملية الخطاب مما يؤدي إلى نجاحه أو فشله .

ثانياً : المماثلة والمشابهة :

على أن أهم ما يضمن نجاح الرسالة هو مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وبما يفهمونه ، وهذا ما راعاه الرسول المعلم والمربي ، فانقاد بعض المتلقين وآمن بعضهم أو جحد وكفر . وقد حصلت ردود الفعل هذه بالمعرفة الخلفية المشتركة المتجلية في معجم القرآن وتركيبه ودلالته ومضمونه . ذلك أن القرآن نزل بلسان عربي مبين وتحدث عن موضوعات معلومات لدى مخاطبيه .

مبدأ المماثلة والمشابهة ، إذن، وسيلة ضرورية لإشراك المخاطب وتوقع ردود فعله . على أن ما سَنَهْتَمُّ بِهِ ـ في هذا السياق ـ هو دور هذا المبدأ في مشكلنا الذي نبحث فيه . لذلك يتوجب توضيحه ثم توظيفه في الدفاع عن أطروحتنا .

إذا كان هناك موضوع ما عبارة عن (+ أ، + ب، + ج ، + د . . .) ، وكان هناك موضوع آخر عبارة عن (+ أ، + ب، + ج). وموضوع ثالث عبارة عن (+ أ ، + هـ، + و)،

وموضوع رابع عبارة عن (+ ص، + ك ، + ل)، فان العلاقة بين الأول والثاني هي المماثلة وبالأولى المشابهة ، إذ هما يشتركان في كثير من المقومات ؛ على أنها بين الأول والثالث هي المشابهة ، إذ لا جامع بينهما إلا مقوم واحد. ويظهر أن لا علاقة بين الثلاثة الأولى والرابع أي أن هذا الأخير ينتمي إلى مجموعة مستقلة .

نخرج من هذا بالملاحظات التالية :

ـ أن المطابقة بين مجموعتين غير ممكنة في عملية الخطاب إذ لا يمكن أن تحصل إلا إذا كان الموضوع والزمان والمكان هي نفسها من جميع الجهات ، وهذا شيء لا يحصل البتَّةَ ، فإذا توافر عنصر وحدة الموضوع فإن الزمان والمكان يفتقدان .

ـ أن ما أتى في الموضوع قد يأتي مُخَصَّصاً أي حاذفاً لبعض المقومات مثلما نجد في المجموعات الثلاث الأولى ، ولكنه قد يضيف معلومات أخرى فيكون حينئذ بياناً وَتَفْصيلاً ، وهذا يعني أن كل موضوع ـ قضية هو عبارة عن مجموعة منفتحة يمكن أن تضاف له مقومات جديدة ويمكن أن يحذف منه بعضها . ولنسق مثلاً لتوضيح هذا ، وليكن كلمة « رجل » . فهو عبارة عن :

[+ حي]، [+ انسان]، [+ ذكر]، [+ بالغ]، [+ طويل]، [+ شجاع]، [+ غني]، [+ أنيق] . . . إلى آخر ما يمكن أن يضاف من مقومات ، على أن بعضها ذاتي وجوهري وهي الأربعة الأولى ، وأما ما تبقى فهو عرضي ؛ فنفي عرض (مفهوم) مثل : [+ أنيق] أو [+ شجاع] لا يعني نفي ما يصدق عليه « رجل » ، ولكنه إذا نفي أحد المقومات الذاتية فإن ما صدق « رجل » ينهدم . غير أنه ممكن أن تعتريَ بعض الأعراض للمقومات الذاتية فتجمد أو تنزع ، ولكن « الماصدق » يستمر وإن في أدنى ما يَدُلُّ عليه .

إذا ما نقلنا هذا التحليل الماصدقي ـ المفهومي إلى ميدان الكلمات الإصطلاحية المعبرة عن العبادات والمعاملات ، فإنه يؤدي إلى نفس النتيجة ؛ فالصلاة لها أركان وهي المقومات الذاتية ، ومستحبات وهي الأعراض ، فإذا أزيلت بعض الأعراض أو كلها ـ المستحبات فإن هذه الإزالة لا تعني انهدام عبادة الصلاة ، وإذا لم يستطع الشخص القيام بركن من الأركان ـ لضرورة من الضرورات ـ فإن جوهر الصلاة لا يرتفع أي جنسها . وإذ سنزيد هذا توضيحاً ـ فيما بعد ـ فاننا سنحاول الآن التماس المماثلة والمشابهة بين الخطاب القرآني ومحتويات الديانات والأعراف والعادات السابقة والمعاصرة له . فإذا لم توجد هذه العلاقة فليس هناك ناسخ ولا منسوخ ، وهذا ما لم ينتبه إليه كثير من المفسرين والأصوليين[16] ، فجعلوا علاقة بين آيات لا رابطة بينها .

(16) أنظر ص 216 من هذا الكتاب .

ثالثاً : نوْعُ العلاقــة .

1 ـ العلاقة الخارجيــة :

على أن علاقة المماثلة والمشابهة معقدة تحتاج إلى تحليل وتركيب . فلنبدأ بالتحليل ، ذلك أنها يمكن أن تقسم إلى نوعين كبيرين هما : التعضيد ، والرفع ، ويمكن أن نمثل للتعضيد بـ « شرع من قبلنا شرع لنا » وللرفع بـ « ما خالف شرعنا » .

بيد أننا ـ حين نركب بين مفهومي التعضيد والرفع والمقصدية والمماثلة والمشابهة والعلاقة ـ نحصل على ست عشرة حالة بيّنّاها في موطن آخر[17] . وسنختار منها ـ هنا ـ خمس حالات متعلقة بموضوعنا ، وهي :

أ ـ أقصى حالات التعضيد هي : المقصدية + المماثلة والمشابهة + علاقة التبجيل : **آيات القصاص** ، فقد حافظ الإسلام على هذا الحد كما جاء قبله .

ب ـ أوسط حالاته هي : ـ المقصدية + المماثلة والمشابهة + علاقة الاحترام = **آيات الصيام** ؛ فمقصدية الرسول تخالف مقاصد الديانات الأخرى في الصيام، ولكن آيات الصيام تناولت الموضوع ، كما تناولته الكتب السماوية الأخرى ، بتعديلات تقتضيها مقتضيات الأحوال .

أ ـ أقصى حالات الرفع هي : + مقصدية تغيير الرأي + المماثلة والمشابهة + علاقة الاستهزاء = ما وَرَد من آيات لرفع المعتقدات اليهودية والمسيحية المتعلقة بالألوهية .

ب ـ أوسط حالاته هي : ـ مقصدية تغيير الرأي + المماثلة والمشابهة + علاقة السخرية = **آيات** نسخِ بعض المحرمات اليهودية كأكل بعض أنواع اللحوم بإباحتها للمسلمين .

تلك حالات أربع : حالتان معضدتان ومقويتان ومحكمتان ومحصنتان ـ بدرجات متفاوتة ـ لما ورد عند من سبقوا الدين الإسلامي أو عاصروه ، وحالتان رافعتان ومبطلتان ـ بدرجات متفاوتة ـ لما ورد عندهم .

ج ـ (مشترك) على أن هناك حالة إضافية تحتمل التعضيد في سياق ومساق وتتحمل الإبطال والنَّقْضَ في مساق وسياق ؛ ويمكن أن يمثل لهذا النوع ببعض الحكايات والقصص الواردة في القرآن ؛ يقول الشاطبي « كل حكاية وقعت في القرآن فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ، وهو الأكثر ، ردّ لها أولاً ، فإن وقع ردّ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه ،

(17) بحث : « الحوار في الخطاب الشعري » .

وإن لم يقع معها ردّ فذلك دليل صحة المحكي وصدقه »[18] .

2 ـ العلاقـة الداخليـة :

على أن هذه التقسيمات ، إذا صحت في علاقة الخطاب القرآني بغيره ، فـإنها لا تجوز جميعها في العلاقـة الداخليـة بين آي القـرآن . قبل البـرهنة عـلى هذه الـدعوى نتعـرض إلى العـلاقات المعنـوية الأوليـة التي هي : التناقض ، والتضـاد ، وشبه التضـاد ، والاقتضاء في الإثبات ، والاقتضاء في النفي .

أ ـ العلاقات المرفوضة والمقبولة :

1 ـ علاقة التناقض :

إن دعوى النسخ لدى الأصوليين تقوم على التناقض والتعارض بين نصين بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال . والتناقض ـ بمعناه المنطقي ـ هو ما يحتوي على طرفين لا يجتمعان ولا يمكن أن يرتفعا معاً ، وله شروط مذكورة في كتب المنطق والأصول والجدل والاستدلال ، وسنختار استشهاداً واحداً للدلالة على مقصودنا . فقد جاء في كتاب البرهان : « قال أبو بكر الصيرفي في شرح رسالة الشافعي : « جماع الاختلاف والتناقض أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه الى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض ، وإنما التناقض في اللفظ ما ضادّه من كل جهة على حسب ما تقتضيه الأسماء ، ولن يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء من ذلك أبداً ، وانما يوجد فيه النسخ ، وقـمـين بـأن يـوجب حكماً لم يُحِلَّهُ ، وهـذا لا تناقض فيـه ، وتناقض الكلام لا يكون الا في إثبات ما نفي ، أو نفي ما أثبت بحيث يشترك المثبت والمنفي في الاسم والحدث والزمان والأفعال والحقيقة ، فلو كان الاسم حقيقة في أحدهما وفي الآخر مستعـاراً ، ونفي أحدهما وأثبت الآخر لم يعد تناقضاً»[19]، إن مثل قول أبي بكر الصيرفي هذا نجده لدى ابن الحاجب والسكاكي[20] .

بناء على آرائهم جميعاً ، فإن التناقض بمعناه المنطقي الدقيق ليس موجوداً في القرآن ولا في السنة، ولكن النسخ موجود في رأي الصيرفي ولم يعده تناقضاً لأن هناك تراخياً بين الخطاب الأول والخطاب الثاني . وهذا صحيح لأننا لا نجد في القرآن مثل : صلِّ ـ لا تصلِّ ، صم ـ لا تصم . . . بالشروط السابقة أي توارد الأمر والنهي على شيء واحد من جهـة واحدة في وقت واحد ، وإذا ما عثر على أمر ونهي فإن الأمر يرجع إلى الجملة والنهي إلى بعض أوصافها ، وهذا

(18) الشاطبي ، الموافقات (ج : 3، ص 353) .

(19) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن (ج : 2، ص 53)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ط. ثانية .

(20) نجد هذا عند الغزالي وغيره .

ينسجم مع قول أغلب الأصوليين : إن الأمر بالتناقض من تكليف ما لا يطاق .

إذا كانت الآراء الأصولية مجمعة على أنه ليس في القرآن تناقض ، فان غالبيتها ـ مع ذلك ـ تقول بالنسخ الأصولي أي الرفع والإبطال ، ويؤدي هذا القول ـ في نهاية المطاف ـ إلى التسليم بالتناقض والتعارض في القرآن . على أنه قد يقال : إن شروط التناقض لا تتوافر ، ولكن هذا اللاّ توافر ليس إلا ظاهرياً . ذلك أننا إذا قبلنا أن الأوامر والنواهي الدينية مجرّدة عن الأشخاص المعينين والزمان والمكان الخاصين فإنه يجب علينا أن نقبل أن الأوامر والنواهي التي تتحقق فيها المماثلة والمشابهة متى وجدت فهي منصبة على شيء واحد من جهة واحدة . القول بالنسخ ، إذن ، قول ملطف بتناقض القرآن ، وبإعدام آيات منه ، ولغة بعض الأصوليين فيها شيء من ذلك . فقد تعبر بالتناقض والتعارض .

إن اشتراط بعض الأصوليين (الشاطبي مثلاً) في النسخ توارد الأمر والنهي على موضوع واحد من جهة واحدة لَشَيْءٌ في غاية الأهمية : ذلك أن كل لفظ شرعي مثل الصلاة والصيام يمكن لجنسه أن يتنوع . فالصلاة جنس تتنوع إلى صلاة السفر وصلاة الخوف . . . وهناك الأوقات التي تجب فيها والأوقات المنهي عن الصلاة فيها ، والصيام جنس يتنوع إلى صيام واجب وصيام مندوب . . وإلى من يجب عليه وإلى من يحرم عليه[21] . وهكذا ، فإذا ما وجدنا مثل : صلّ ـ لا تصلّ ، وصم ـ لا تصم . فإن الأمر والنهي يتعلقان بنوعين مختلفين ؛ ومن ثمة فان النهي يكون متعلقاً بنوع من الصلاة والصيام من شخص معين في زمان ومكان خاصين لا بجنس الصلاة والصيام . وقد عبر الشاطبي عن هذا الإشكال بكل وضوح ، يقول : « الأمران يتواردان على الشيء الواحد باعتبارين إذا كان أحدهما راجعاً إلى الجملة والآخر راجع إلى بعْضِ تفاصيلها وإلى بعض أوصافها أو إلى بعض جزئياتها ، **فاجتماعهما جائزٌ**[22] توارد الأمرين، الأمر والنهي ـ على شيء واحد باعتبار واحد ليس موجوداً في القرآن ، وما نجده في كتب ناسخ القرآن ومنسوخه ليس إلا توهماً للتعارض . وهذا ما أكده الشاطبي ومحمد أبو زهرة ؛ يقول الأخير « وقد يكون سبب التعارض من ناحية توهم أنَّ نَصَّيْنِ من النُّصوص يدلان على حكمين متعارضين ، بينما النصان في الواقع لا تعارض في حكمهما ، بل لكل واحد منهما جهة غير جهة الآخر ، **فالتعارض في عقل المجتهد لا في النص ولا في مدلوله** »[23] .

(21) يجب الرجوع إلى كتب الفروع .

(22) الشاطبي ، الموافقات (ج:3، ص 204) .

(23) محمد أبو زهرة ، أصول الفقه، القاهرة ، دار الفكر العربي، 1973 ص 296.

الخلاصة في هذه النقطة أن أهم دعامة ترتكز عليها دعوى النسخ قد تهاوَتْ ، وهي التناقض ، إذ هو غير موجود في القرآن ـ لا صراحة ولا ضمناً ، ولكن هناك علاقات أخرى ممكن أن يتصور وجودها في القرآن ، وهي :

2 ـ علاقة التضاد :

هو ذو طرفين لا يجتمعان ويمكن أن يرتفعا معاً ، كأن يقال : الصلاة واجبة / الصلاة غير واجبة ؛ فمثل هذا القول لا يقبل إذا توارد على شيء واحد في وقت واحد ، أي أنه لا يمكن أن يطالب بالوجوب وبالتحريم في آنٍ واحد من جهة واحدة ، ولكن يمكن أن يرتفعا معاً ، وحينئذ يبقى **التخيير** .

3 ـ علاقة شبه التضاد :

هو الطرف المحايد بين مناقض «الصلاة واجبة» ⟵⟶ «ليست الصلاة واجبة» ، وبين مناقض « الصلاة غير واجبة » ⟵⟶ « ليست الصلاة غير واجبة » ، فهو مزيج أو مشوب بالطرفين ، ويدعوه الأصوليون بالإضافي المذبذب بين الطرفين أو الواسطة المتجاذبة[24] بالدليلين .

4 ـ علاقة الاقتضاء :

وتتجلى في الحدين : « ليست الصلاة غير واجبة » ⟵ « الصلاة واجبة » وفي « ليست الصلاة واجبة » ⟵ « الصلاة غير واجبة » .

هكذا يتضح أن العلاقات المعنوية الأساسية بين القضايا (الجمل) ليست بسيطة كَمَا يتصَوَّرُ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ . وقد أدرك المناطقة والفلاسفة المسلمون هذا ، ولكنهم لم يحاولوا أن يطبقوها على النص القرآني الذي لا يحتوي على مثل هذه الحدود الركيكة . ومهما يكن الأمر ، فان علاقة التناقض غير موجودة في القرآن البتة ، ولكن العلاقات الأخرى موجودة شرعاً ومتصورة عقلاً ، ولذلك تعرضت لها كتب أصول الفقه[25] .

ب ـ العلاقات المهيمنة :

إن من ينظر إلى هذه العلاقات يرى أنها تمر بصفة عامة بطريق نفي الإثبات أو إثبات النفي ؛ على أن أهم العلاقات المهيمنة التي اهتم بها الأصوليون هي الإثباتية المتجلية في بيان المجمل وتخصيص العموم وتقييد المطلق وتفصيل ما لم يفصل وتكميل ما لم يظهر تكميله . على أننا سنختزل هذه العلاقات إلى مفهومين :

(24) الشاطبي ، الموافقات (ج : 4، ص 137).

(25) إذ تعرضوا للتخيير والإباحة ، واستعملوا مصطلحات مثل : الاضافة ، والواسطة .

أولهما : التنمية ، ونعني بها تنمية قضية كلية أو فكرة ما بِتَقْلِيبِهَا في صور مختلفة ، إنْ على مستوى الخطاب القرآني جميعه أو إن على مستوى آيات متتابعة تحتل فضاء واحداً . وقد اهتم الناس بالآيات المتشابهات (من الشبه) المبثوثة خلال المصحف فألفوا فيها مستدلين بها على إعجاز القرآن[26] . وقد قدمنا قبل أن اختلاف هيآت المخاطبين والأوقات والأمكنة كانت سبباً في هذا التنويع .

ثانيهما : النقص (تخصيص العموم وتقييد المطلق) . وفي هذه الحالة تأتي آية أو آيات مزيلة لبعض الأوصاف . وهذا النوع غالباً ما يصيب الآيات المدنية وحدها .

بناء على هذا ، نقول : إن علاقتي التنمية والنقص أساسيتان في الخطاب القرآني ، ذلك أن هناك جملة قضايا مثل العقائد والعبادات والمعاملات والقصص هي التي دار عليها الخطاب القُرآني فأعادها وكررها في مواطن متفرقة وصيغ مختلفة أو متشابهة منمية أو ناقصة مما يصح معه القول المشهور : القرآن يفسر بعضه بعضاً . وهناك نص أساسي للشاطبي ؛ يقول « المدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكّي ، وكذلك المكّي بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في النزول وإلا لم يصح »[27] ، ويقول أيضاً : « والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي ، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه دلّ على ذلك الاستقراء »[28] .

إن هذه العلاقات جميعها ، سواء أكانت من التضاد أو شبه التضاد أو الاقتضاء أو الاثبات ، هي التي تحرك آليات النص القرآني بالزيادة فيها أو بالنقص من أوصافها . وقد أبعدت علاقة وحيدة وهي التناقض سواء أكان بالفعل أم بالمآل .

إن مؤدّى إبعاد علاقة التناقض هو رفض النسخ بمعنى الإزالة ، والإبطال . إذ هو مجرد دعوى قائمة على أوهام لغوية و« إديولوجية» أغرت كثيراً ممن ألف في الموضوع من القدماء والمعاصرين معتبرين فيه تدرجاً للتشريع ومراعاة للظروف الاجتماعية والاقتصادية ؛ على أن الدفاع عن النسخ إذا كان مجدياً في العصر الأموي والعباسي ، فإنه يعود اليوم على عقيدة المدافعين عنه بأبلغ الضرر ، إذ لا يلبث مخالفوهم أن يوافقوا عليه ليحلّلوا القرآن على ضوء المنهاجية التاريخية الجدلية كما يحلّلون النصوص والقوانين الوضعية . وَمَنْ قَبِلَ هذه المماثلةَ من أهل المعتقد فعليه أن يتحمل النتائج .

---

(26) الشاطبي ، الموافقات (ج: 3، ص 406) .

(27) نفس المصدر والصفحة .

(28) نفس المصدر والصفحة .

إن الأسلم لهؤلاء أن يقولوا بالبيان والتّفْصيل والتكميل والتخصيص والتدقيق للآيات الواردة في الضروريات المجمع عليها من سائر الأديان وهي الدّين والنفس والنسل والعقل والمال ؛ فالمحافظة عليها ليست خاصة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان ؛ وعليه فإن ما ينزل للمحافظة عليها لا يجوز أن يبطل أو يزال كلية ، وإنما تصيبه إحدى العمليات السابقة[29] . ومن أراد أن يسميها نسخاً كما فعل الأولون من السَّلَفِ فله ذلك .

يتلخص مما سبق : أن علاقة القرآن بغيره من النصوص يمكن أن تشمل جميع أنواع العلاقات ، ومن بينها النسخ الذي هو علاقة تناقض ضمنية ، ولذلك فإنه لا نكران عليه في أن أزال بعض الأحكام من شرائع من قبلنا وحافظ على أخرى كما هي وعدل بعضها لتتلاءم مع مقتضيات أحوال المسلمين ، ووقف موقف الحياد مع بعض آخر . بيد أن علاقات القرآن بعضها مع بعض لا يجوز فيها النسخ بمعناه الأصولي .

IV ـ نتائج هذا الموقف النظرية والمنهاجية والعملية :

إن النتائج النظرية والمنهاجية والعملية التي نتوصل إليها بهذا الموقف تجعلنا نرجحه على غيره . ذلك أن تبنينا مفهوم السلف لـ « لنَّسْخِ » تجعلنا نحصل على نظرية منسجمة واحدة وشاملة لعموم أنواع الخطاب القرآني الهادفة جميعها إلى تبليغ الرسالة مع مراعاة أحوال المخاطبين الذين هم أنواع عديدة : منهم الخل الحميم للمبلِّغ ، ومنهم العارف المتنور ، ومنهم الأعرابي والبادي ، ومع اعتبار مقتضيات الأحوال .

تتجلى نجاعة هذه النظرية الموحدة في تناول المحاور التي يتحدث عنها القرآن أو فلنقل يحتويها . ذلك أن الأصوليين صنفوا مضمون القرآن إلى الأوامر والنواهي والأخبار والوعد والوعيد . على أنهم اختلفوا فيما يعتريه نسخٍ إبطالي من هذه الأقسام . وقد رأى أكثرهم أن الأخبار والوعد والوعيد لا ينالها نسخ ، وأما ما يصيبه النسخ فهي الأوامر والنواهي . وقد تبين لأقلهم أن النسخ ممكن وجائز في جميع الأقسام . وقد قدمنا قبل أن أسَّ الخلاف فلسفي ؛ فالذي تبنى مبدأ **الصدق** رأى أن في القول بالنسخ في الأخبار والوعد والوعيد **تناقضاً** . ومن راعى ظروف التنزيل العامة لم يفرق بين أي نوع من أنواع الخطاب القرآني فادعى أنها كلها يمكن أن تنسخ .

هذا ما نجده في الكتب الأصولية والتفسيرية . من خلاف واختلاف في هذه النازلة .

---

(29) سيأتي توضيح هذا في « تذكير وآفاق » .

كيف العمل ، إذن ، للترجيح بين هذه الآراء المتعارضة أو التوفيق بينها ؟ نعتقد أننا نصل إلى مبتغانا بما قلناه سابقاً ، وهو اعتبارنا إطلاقَ الأولين من السَّلفِ للنسخ أي بيان المجمل وتفصيل ما لم يفصل وتكميل ما لم يظهر تكميله ، وتخصيص المطلق . . . ومعنى هذا أن هذه الآليات تشمل جميع أنواع الخطاب القرآنية بأوامرها ونواهيها وأخبارها ووعدها ووعيدها .

1 ـ مبـدأ التـدرج :

على أن هذه النتيجة التي انتهينا إليها قد تواجه باعتراضات شتى آتية مما تركه الأصوليون ، ومِمَّا صار ثقافة مشاعة بين الناس ، وأهمها مبدأ التدرج في التشريع ، فقد دوفع عنه قديماً وحديثاً ، ونحن ندافع عنه أيضاً ، ولكن منطلق كل منا يختلف عن الآخر . فإذا كان بعضهم يرى أن البداية في الشريعة تكون ـ في المعاملات ـ من الجزئيات إلى الكليات أو أن المنطلق دائماً من الجزء إلى الكل ، فإننا نسلم نحن أن الكليات هي الأساس سواء أكانت متعلقة بالعبادات أو بالعقائد أو بالمعاملات ، وأن ما يأتي بعدها جزئيات بيانية أو تكميلية أو تفصيلية أو تخصيصية . أي إضافة أوصاف أو حذفها .

كلٌّ مِنَّا ، إذن ، يقول بالتدرج ، ولكن منطلق كل منا يختلف ؛ وأشهر مثل يمكن أن يقدم ـ في هذا الشأن ـ هو تحريم الخمر ، فبناء على منطلقنا نقول : إن الخمر حرمت ابتداء ، وأن ما أتى بعد من آيات حولها إن هو إلا شرح وتوضيح لطالب الشرح أو التوضيح طلباً صريحاً أو ضمنياً ؛ يقول الشاطبي بصدد التدرج في قضية الخمر : « ولم يتعرض في الشرع للنص على حكمها حتى نزل (يسألونك عن الخمر والميسر) فبين ما فيها من المنافع والمضار ، وأن الإضرار فيها أكبر من المنافع ، وترك الحكم الذي اقتضته المصلحة ، وهو التحريم لأن القاعدة الشرعية أن المفسدة إذا أربت على المصلحة ، فالحكم للمفسدة ، والمفاسد ممنوعة ، فبان وجه المنع فيها ، غير أنه لما لم ينص على منع ، وإن ظهر وجهه ، تمسكوا بالبقاء مع الأصل الثابت لهم بمجرى العادات »[30] .

للتدليل على صحة وجهة نظرنا وتوجيه رأي الشاطبي ، نقول :

أ ـ إن المخاطبين بالقرآن لم يكونوا على مستوى واحد من الفهم والإدراك ولم يكونوا على درجة واحدة في اتصالهم بصاحب الرسالة ، وعلى هذا ، فلا يعقل أن يتساوى إدراك أقرب الصحابة إلى الرسول مع الأعراب الوافدين عليه من مناطق نائية ، فالمقربون يفهمون مضمون الرسالة ومغزاها بالإيحاء والتلميح دون ذكر التفاصيل وضرب الأمثلة ، إذ أطرهم المعرفية

(30) الشاطبي ، الموافقات (ج : 1 ، ص 174) .

مشتركة . ومن ثمة كانت تكفي الاشارة عن العبارة . وأما من كانوا أبعدين ثقافياً وحضارياً فإنهم كانوا محتاجين إلى الإطناب .

ب ـ إن القرآن أخرج أوامره ونواهيه مخرج الاستفهام أو الإخبار أحياناً كثيرة تلطفاً وتأنيساً . وقد كان المقربون والمؤمنون يدركون التوضيحات والتلميحات والتلويحات فيطيعون ويستجيبون . وقد كان البعيد ، أو الذي في قلبه مرض يتجافى عقله عن الفهم فيستمر في سلوكه أو يسأل فتأتي آيات أخرى فيها مزيد إيضاح حتى ترفع كل شبهة وتقطع كل ذريعة .

ج ـ إن كثيراً من التعابير العربية ، وتبعاً لذلك الآيات القرآنية ، يحكمها مبدأ الترابط ، ومعناه أن بعض الكلمات ترتبط بأخرى أو تدعوها، وهكذا، فإنه غالباً ما تأتي الصلاة مقرونة بالزكاة ، والفحشاء بالمنكر . . . ولكن أن تذكر الصلاة إلى جانب الخمر شيء لا يقبله العرف اللغوي ، فالصلاة يدعو حقلها الدلالي مجموعة من الألفاظ ويرفض أخرى ، ومن ثمة ، فإن ممارستها أثناء السكر تَعْني عملاً غير مقبول أي محرماً .

على أن سؤالاً يطرح وهو : ما الآيات التي تتخذ كلية ليجعل ما جاء بعدها بياناً أو تكميلاً أو تفصيلاً أو تخصيصاً أو تقييداً ؟ للإجابة عن هذا الاستشكال نقترح ما يلي :

أولاً ـ اعتبار ما جاءت الأخبار المتواترة في سبق نزوله واتخاذه أصلاً ، إذ بحسب منطلقنا لا يكون إلا قاعدة كلية صريحة أو ضمنية ، وما عضده المساق الوارد فيه أي ينظر إلى علاقته بما قبله وما بعده من آيات ، إذ أنه إذا بتر من سياقه يفقد خصوصيته ويصبح قابلاً لأن يمنح أية دلالة .

ثانياً ـ إذا وردت أخبار في سبب النزول ولكنها ليست متواترة أو لم تتوفر فيها شروط الحديث الصحيح ، فإنه يَجِبُ ، حينئذ ، تحليل الآية أو الآيات في ضوء مساقها تحليلاً دقيقاً ، كل منها على حدة ، ثم تجميعها حتى تصير مكونة لموضوع قائم الذات ثم يقارن بين دلالة كل منها حتى يتبين كليها من جزئيها .

ثالثاً ـ الاسترشاد ببعض القواعد الأصولية من مثل حمل المطلق على المقيد والعام على الخاص[31] . .

رابعاً ـ كل ما تقدم يجب أن يحكم بقاعدة عامة ، هي : أن الضروريات سابقة على الحاجيات والتحسينيات ، فما جاء محافظاً عليها فهو الأصل الأصيل ، وما جاء لازماً لها أو خادماً فهو فرع .

---

(31) أنظر ص 209 من هذا الكتاب، وكتب الأصول في هذه النقطة .

2 ـ مبدأ تأخير البيان عن وقت الحاجة :

تلك هي عناصر النتيجة الأولى التي أدت إليها وجهة نظرنا ولكنها تؤدي أيضاً إلى وضع مبدأ أصولي شهير موضع نقاش إن لم تجعله لاغياً . وهو : مبدأ « تأخير البيان عن وقت الحاجة » ، كيف ذلك .

للاجابة نسوق بعض آراء مشهوري الأصوليين ثم نبين النظرة الفلسفية والنفسية التي تحكمها ، ثمّ نُدْمِجُها في النظرية التي صغناها ؛ يقول الشاطبي : « قد اتفق الأصوليون على امتناع تأخير البيان عن وقت الحاجة إلا عند من يجوز تكليف المحال[32] ، وإذا قدم لنا الشاطبي المذهب الشائع فإننا نجد لدى الغزالي تفصيلاً في ذلك ، يقول : « لا خلاف أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة »[33] ، ولكنه يستدرك ويقول : « أما تأخيره إلى وقت الحاجة فجائز عند أهل الحق »[34] .

إن الرأيين معاً تحكمهما نظريتان فلسفيتان للغة ـ أشرنا إليهما قبل ـ كأنهما انسانيتان :

أ ـ وظيفة اللغة هي التعبير الشفاف الواضح ، وبخاصة إذا تعلق الأمر بتبليغ رسالة ونشر دِينٍ ؛ وعلى هذا ، فإنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لأن هذا التأخير معناه الإبهام ، وعدم الإفهام ، والإلغاز ، والإلباس مما يؤدي إلى تكليف ما لا يطاق ؛ ولكن هذه النظرة إذا بولغ فيها تؤدي إلى الفهم الحرفي أحياناً .

ب ـ طبيعة اللغة هي الالتباس واللاتفاهم والخداع والتعمية . . . وعلى هذا يجوز وجود المجمل والمبهم والظاهر والعام والمطلق والمنسوخ .

تلك بعض الأسس الفلسفية الكامنة وراء القول بذلك المبدأ ، ولكن هناك أسباباً نفسية أيضاً . ذلك أن الذين وضعوه طابقوا بين الخطاب التبليغي التعليمي الذي يتحدث إلى كل واحد بحسب عقله ومقدار علمه من المعرفة ، وبين أسلوب المناظرة والجدال والحجاج الذي يسلك استراتيجية التمويه والتحايل للانتصار على الخصم ، ولهذا ، فإننا نظن أن هذا المبدأ وضع في المناخ الكلامي الذي عرفته الثقافة العربية ـ الاسلامية ، وإن شئْنا قلنا : إنها إشكالية طرحها المتأخرون الذين بدأوا يختلفون في تفسير القرآن وتأويله ، فكان كل منهم يوجه آي القرآن لحساب الطائفة التي ينتمي إليها ، معتمداً على ما فهمه أو تفهمه ؛ وعلى هذا ، فما دعي عاماً ومجملاً وشرطاً مطلقاً . . . هو بحسب ادراكهم لا بحسب ادراك السلف المعاصر

---

(32) الشاطبي ، الموافقات (ج: 3، ص 344) .

(33) الغزالي ، المستصفى. ص 368 .

(34) الغزالي ، المستصفى . ص 388 .

للرسول (ص) أو الذي جاء بعده بقليل . فقد كان يستوعب الخطاب القرآني بسهولة ويسر ، ولم تكن تخطر ببالهم هذه الأوصاف ، فإذا استعصى عليهم شيء بينه لهم الرسول (ص) بما يلائم مؤهلات السائل ، كما أن كثيراً منهم عاين الأمارات التي صاحبت الخطاب ، وهي ضرورية كما أكد ذلك الباحثون من القدماء والمحدثين ، يقول الغزالي : « واعلم أن كل مقيد من كلام الشارع وفعله وسكوته واستبشاره حيث يكون دليلاً ، وتنبيهه بفحوى الكلام على علة الحكم ، كل ذلك بيان »[35] .

بيد أن التوفيق بين النظريتين ـ التعبيرية والالتباسية ـ ممكن . ذلك أننا إذا رجعنا إلى ما انطلقنا منه ، نعني المخاطب والمخاطبين الذين وجهت إليهم الدعوة ومساق الخطاب وسياقه ، فان مناقشات الأصوليين ، حول تأخير البيان ، ستتهاوى من تلقاء نفسها ، فخطاب الرسول لأقرب صحابته يمكن أن يكون مبيناً أو أن يكون مجملاً مختصراً ، لأن الموجه إليهم يدركون ما ظهر من معانيه وما بطن ، وإذا كان مخاطبوه يحتاجون إلى التوضيح وضرب الأمثلة فانه يفعل ذلك . والنتيجة المستخلصة هي أن عملية الخطاب تتحكم فيها ثلاثة أركان أساسية ، هي المخاطب والمخاطب والسياق ، وإذا غلب أحد الطرفين أسيء إليها .

V ـ برهنة :

ذلك هو الإطار النظري الذي رسمناه ، فقد انطلقنا ، نرسمه ، من وضع الإشكال فإلى التصريح بالمبادىء فإلى توضيح مفاهيمه التي هى ثلاثة : المقصدية والمماثلة والمشابهة والعلاقة . وقد فرعنا المقصدية إلى مخاطِبٍ ومخاطَبٍ ظروف التنزيل ، وَأَبَنَّا أن المماثلة والمشابهة ضابط أساسي لإثبات نوع العلاقة بين موضوعين ، كما أننا استخلصنا أنواعاً من العلاقات ـ سواء أكانت مع خارجٍ أم مع داخلٍ ـ فقبلنا منها ما يسوغ ، ورفضنا منها ما لا يجوز .

لقد كان خلف هذا الإطار مبدأ أساسي يسلم بوجود ضروريات أبدية ، وقد جاءت الآيات القرآنية لتعبر عنها في كلية واطلاق ، إذن هناك أبدي « انعكس » في كلي ، وأما ما أتى بعد ذلك من آيات فهو تبيين وتفصيل وتكميل لذلك الكلي أو تخصيص أو تقييد له .

لوضع هذا الإطار على المحك لاخْتِبَارِ صِحَّتِهِ أو تبيان زيفه ، فإننا اخترنا في مرحلة أولى آيات واردة في فضاء واحد متصل بعضها ببعض ، وهي آيات الصيام ، وعمدنا في مرحلة ثانية إلى آيات مبثوثة في مواضع متفرقة من المصحف تظهر « متعارضة » ، وما هي بمتعارضة في الحقيقة .

---

(35) الغزالي ، المستصفى . ص 367 .

1 ـ الآيات المتصلة الفضاء والزمان :

فلنبدأ ، إذن ، بالنوع الأول المتصل الفضاء والزمان ، وآياته :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون 183 ـ أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية إطعام مساكين، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وان تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون 184 ـ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون 185 ـ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون 186 ـ أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله ، فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون 187 ـ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون 188 » . **قرآن كريم**

ستتناول النقط التالية للبرهنة على إحكام هذه الآيات :

أ ـ المماثلة والمشابهة :

قدمنا قبل أن موقف القرآن من الديانات والأعراف والعادات السابقة له والمعاصرة يتلخص في موقفين أساسيين : أحدهما تعضيدي ، وثانيهما إبطالي ، ويهمنا في هذا السياق أن آيات الصيام تدخل ضمن التعضيد ، ولكنه من الدرجة الثانية ـ (ـ المقصدية + المماثلة والمشابهة + الاحترام) . إذ هذه الآيات التي بلغها الرسول (ص) عضدت الصيام ، ولكن مقصدية الدين الإسلامي تختلف عن أهداف الصيام الموجود قبل ، لذلك أدخل عليه تعديلات تلائم روح الإسلام وطاقة متحمليه ، ومقتضيات أحوالهم . وعلى هذا ، فان ما يفعله بعض المعاصرين ويتجشمه من عناء لتقديم أدلة لدفع تأثُّر الصيام الاسلامي هو غير ذي جدوى ، فجنس العبادة واحد ، ولكن كل مجتمع وظفها بحسب مقاصده . وقد أدرك المفسرون والأصوليون القدماء هذا ، فنجد في كتبهم حديثاً عن أنواع الصيام التي كانت قبل الإسلام ومعه .

ب ـ دعاوى النسخ :

معنى هذا ، أن إثارة مشكل النسخ بين صيام الإسلام وغيره مشروعة من حيث المبدأ ، لأن المماثلة والمشابهة متوافرة بين النوعين ؛ على أن المسلمين اختلفوا فيه ، فبعضهم أنكره وبعضهم قطع به . جاء في تفسير الرازي : « يروى عن بعض المسلمين إنكار النسخ ، واحتج الجمهور على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل دلت على نبوة محمد (ص) ونبوءته لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله ، فوجب القطع بالنسخ » ، وقد قدمنا رأينا في **فقرة العلاقة** .

مهما يكن الأمر ، فإن هذه الآيات لا تفهم بكل دقة إلا إذا نظر إليها في إطار علاقة حوار الخطاب القرآني مع النصوص السابقة له والمعاصرة ، سواء أكانت شفوية أم كتابية . وقد أدرك بعض الأصوليين هذا . يقول أبو مسلم الأصفهاني حسبما جاء في تفسير الرازي : « احل لكم ليلة الصيام الرفث » هذه الحرمة ما كانت ثابتة في شرعنا بل كانت ثابتة في شرع النصارى ، والله تعالى نسخ بهذه الآية ما كان ثابتاً في شرعهم » ، ولكن مثل هذه النظرات بقيت جزئية لم ترصد كل مظاهر الخلاف بين الصيام الإسلامي وغيره ، ولكنها متقدمة بالنسبة إلى الآراء الأخرى التي ترى أن آية تنسخ أخرى ضمن القضية الواحدة ، وقد نتج هذا الموقف من انتزاع الآية أو الآيات من مساقها اللغوي ومن سياقها الديني والاجتماعي والثقافي . ولئلا نظلم أحداً نعرض آراء الفئة المغرقة في دعوى النسخ ، يقولون :

* الأمة مجمعة على أن قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرّفث » نَسخ هذا الحكم أي حكم الطعام والشراب والجماع بعد النوم .
* « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين » منسوخ بقوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .
* أن قوله تعالى : « أياماً معدودات » منسوخ بـ « شهر رمضان » .

ج ـ رفض هذه الدعاوي :

وقد تجرد لدعاوي النسخ هذه بالدحض أبو مسلم الأصفهاني بكيفية جذرية ، وإلى حد ما فخر الدين الرازي ، وبعض المحدثين من المصريين . يقول الرازي ـ ناقلاً عن بعض المفسرين ـ في « أياماً معدودات » : أن المراد بهذه الأيام المعدودات شهر رمضان ، قالوا : وتقريره أنه تعالى قال أولاً : « كتب عليكم الصيام » وهو محتمل ليوم ويومين وأيام ، ثم بينه بقوله تعالى : « أياماً معدودات » ، فزال بعض الاحتمال ، ثم بينه بقوله : « شهر رمضان » ، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره وإثبات النسخ فيه ، كما أننا نجده بعد مناقشة القراءات المختلفة في « وعلى الذين يطيقونه » ، يقول : « إن على أقوالكم لا بد من إيقاع النسخ

في هذه الآية ، وعلى قولنا لا يجب ، ومعلوم أن النسخ كلما كان أقل كان أولى ، فكان المصير إلى إثبات النسخ من غير أن يكون في اللفظ ما يدل عليه غير جائز »، ويقول أيضاً : « ان، القائلين بأن هذه الآية منسوخة اتفقوا على أن ناسخها آية شهود الشهر ، وذلك غير جائز لأنه تعالى قال في آخر تلك الآية : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ولو كانت الآية ناسخة لهذا لما كان قوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » لائقاً بذلك الموضع ، ويقف عند « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » فيقول : « ولأبي مسلم أن يقول : قد بينا أن الخيانة عبارة عن عدم الوفاء ، بما هو خير للنفس ، وهذا أولى ، لأن الله تعالى لم يقل : « علم الله أنكم كنتم تختانون الله » بل قال : « كنتم تختانون أنفسكم » فكان حمل اللفظ على ما ذكرناه إن لم يكن أولى فلا أقل من التساوي ، وبهذا التقدير لا يثبت النسخ » كما أنه ناقش دلالات العفو وتبنى معنى التخفيف والتوسعة والسهولة كما رأى أبو مسلم « لأن تفسيره لا يحتاج إلى إضمار ، وتفسير مثبتي النسخ يُحْتاجُ إلى الإضمار »[36] .

تلك آراء أبي مسلم الأصفهاني والرازي لرفض دعوى النسخ في آيات الصيام ، ومقاييس رفضهما هي : مراعاة علاقات الآي بعضها ببعض كأن تكون بياناً أو تخصيصاً ، ولكنها ليست ـ على كل حال ـ علاقة تناقض ، واعتبار أن النسخ كلما كان أقل كان أولى ، وأنه لا يجوز القول به ما لم يكن في اللفظ ما يدل عليه كما أنه لا يجوز الالتجاء إلى الإضمار . وقد تبنى كثير من الفقهاء المصريين آراء أبي مسلم الأصفهاني وفخر الدين الرازي معتمدين ـ تقريباً ـ على الدلائل نفسها . وبما أنه لا يسعنا المقام للاستشهاد بآرائهم فإننا نحيل على كتابي « النسخ في القرآن الكريم »[37] ، و« ولا نسخ في القرآن » .

د ـ انسجام النص القرآني :

إن رفض دعاوى النسخ في القرآن يعني الدفاع عن انسجامه . ذلك هو الهاجس الذي كان مهيمناً على أبي مسلم ومن سار على رأيه كما أنه كان هو الدافع الذي حفز بعض المفسرين من مثل ابن العربي وأبي حيان وغيرهما ليجدوا ويجتهدوا لإثبات العلاقات بين آي القرآن وسوره . يقول أبو حيان : « مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه أخبر تعالى أولاً بكتب القصاص ، وهو إتلاف النفوس ، وهو من أشق التكاليف فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل ، ثم أخبر

(36) يراجع ، للإطلاع على مواقع هذه الآراء ، تفسير فخر الدين الرازي ، مفاتيح الغيب ، القاهرة ، المطبعة الحسينيّة 1327 هـ .
وتفسير الألوسي ، روح المعاني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان . (ج: 2، ص 56 - 69).

(37) مصطفى زيد ، النسخ في القرآن الكريم ، دراسة تشريعيّة تاريخيّة نقديّة . ط . ثانية ، دار الفكر ، بيروت .

ثانياً بكتب الوصية ، وهو إخراج المال الذي هو عديل الروح ، ثم انتقل ثالثاً إلى كتب الصيام وهو منهك للبدن مضعف له . . . »[38] كما نقل صاحب كتاب « البرهان في علوم القرآن » رأياً طريفاً لأبي بكر بن العربي في المناسبة بين الآيات .

إذن ، قد نبخس قدماءنا حقهم إذا لم نشر إلى ما قاموا به من مجهودات نظرية وتطبيقية لإثبات انسجام النص القرآني . فقد حاول ذلك المفسرون والأصوليون وَمُعْرِبُو القرآن ، وعلى هذا ، فإن صنيعنا لن يعدو إلا أن يكون تعميقاً لمجهوداتهم بوضع إطار نظري له حتى يكون التناول منسجماً . والإطار هو :

1 ـ الكلمة ـ المحور :

نقصد بها الكلمة التي تدور حولها الآيات ، وهي ـ في هذه الآيات ـ الصيام المذكور في المطلع . فقد ذكرت الكلمة ظاهرة مرتين ، ومضمرة في « كُتِبَ » وفي « يُطِيقُونَه » ، وبصيغة الفعل : « وأن تصوموا » ، و « فليصمه » ، وعبر بالمحل عن الحال في « شهر رمضان » ، و « الشهر » .

إن هذا التكرار المعجمي ـ وبأي نوع من الأنواع السابقة ـ يفيد الإلحاح والدوران على موضوع واحد أو قضية واحدة ، وقضيتنا هذه هي الصيام ، فالمعجم ، إذن ، ضمن انسجام الآيات فيما بينها . . . وما قيل عن هذه الكلمة ـ المحور يقال عن مثيلاتها ؛ فالآيات واحدة . آي : أي أن الكلمة تستدعي ألفاظاً مطابقة أو مماثلة ومشابهة أو بينها علاقة ما (الكل بالجزء ، المحل بالمحال)، (السبب بالمسبب . . .) وكل هذا يؤدي إلى الانسجام المؤكد للنص .

إن القضية التي مدار الحديث عَنْهَا ـ في هذه الآيات ـ لم تكن مجهولة من قبل المخاطبين بها ، وعلى هذا الأساس ، فإن الرسول كان يعلم أن مخاطبيه الحاضرين كانت لهم معرفة خلفية مشتركة ، ولهذا ، فإننا نظن أنه بمجرد ما ذكر الصيام توقعوا تحريم بعض الأشياء في أوقات معينة وتحليلها في أوقات أخرى بناء على ما كانوا يعلمون من عاداتهم وأعرافهم أو ما كانوا يرونه في الديانات الأخرى أو يسمعون عنه .

إن هذه النظرية تجعل المخاطِب وهو الرسول ومخاطَبيه بينهما عقدة ، أي أنه بمجرد ما ذكر الصيام اقتضي منه حينئذ التعرض لبعض الأحكام المتعلقة به ، كما أن مخاطبيه كانوا يتوقعون ما سيتحدث عنه . على أن هذا التوقع والانتظار لم يأت ـ بطبيعة الحال ـ مطابقاً لما كانوا يعرفونه ويسمعون به تمام المطابقة ، وإلا كان الدين الإسلامي في هذا الركن من أركانه نسخة أمينة لما

---

(38) البرهان في علوم القرآن . (ج:2، ص 36)، وارجع أيضاً إلى الفُصُول السابقة والمراجع الأجنبيّة ، وخصوصاً ما هو مكتوب بالإنجليزية في « انسجام النص » .

سبقه وعاصره في هذا الشأن . على هذا كله ، فإن الآيات منسجمة فيما بينها بغض النظر عما يقال في أسباب نزولها وزمانه .

2 ـ الثابت البنيوي :

ولنبرهن على هذا الانسجام بواسطة مفهوم آخر يمكن أن نعطيه اسم الثابت البنيوي ، ويمكن أن نعبر عنه بالجملة المنطلق ، ونعني بها « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » . . فهذا الجزء من الآية هو القضية الواحدة ، وما جاء بعدها فهو بيان وتكميل وتفصيل لعمومها ، ونجد هذا في كل خطاب ، سواء أكان دينياً أم دنيوياً ، أدبياً كان أم علمياً . لهذا نرى أن « أياماً (أيام) معدودات تخصيص للصيام ، و« شهر رمضان » بيان وتخصيص لها . و« فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه » بيان وتخصيص لـ « الذين آمنوا » ، و« فمن تطوع خيراً فهو خير له » بيان لـ « فدية إطعام مساكين» « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » تخصيص لـ « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، و« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » بيان لسبب التخفيف ، « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » بيان لـ « فعدة من أيام أخر » ، « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب . . . » بيان لـ « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » ، و« أحل لكم ليلة الصيام الرّفث . . . » تخصيص للعموم السابق ـ أي الآية المنطلق ـ وبيان له .

قد ذكر الصيام ولكنه لم يصرح بأحكامه ، بناء على ما كان معروفاً لدى المخاطبين ، ثم أشار إلى المريض والمسافر وغير المُطِيقِ له ، ولكنه في الآية الأخيرة بين ثلاثة أشياء مباحة هي : الرفث إلى النساء ، والأكل ، والشرب ، ولكن إلى وقت معين من الليل . فالآية (187) ، إذن ، تخصيص وبيان ، على أنها دخل أجزاءها بيان وتخصيص أيضاً :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » بَيَّنَهَا « هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ » و« علم الله أنكم . . . فالآن باشروهن » و« ابتغوا ما كتب الله لكم . . . » .

« فالآن باشروهن » خُصِّصَتْ بـ « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » .

3 ـ الجملة المكثفة :

وأوضح دليل عليها هو : « تلك حدود الله » فهي تكثيف لما بين من تحريمات ومباحات وعزائم ورخص . وعلى هذا ، فإن الآيات التي تحكمت في نمو الآيات هي :

* التداعي الناتج عن تحكم الأطر المعرفية في المخاطب والمخاطبين .
* التكثيف ورأيناه كما نراه في « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، فكلمة « الشهر »

هذه كثفت : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

* ما يمكن أن ندعوه التخصيص المضمر ونجده في « اعادة » : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر . . . » «ومن كان مريضاً أَوْ على سفر . . . » فقد سكت في الإعادة عن «وعلى الذين يطيقونه . . . » .

* البيان والتخصيص ، وهو الغالب في العلاقات بين الآيات إذ بدأت بعموم ثم بينت وخصصت ، ولكننا نجد أثناءها بياناً وتخصيصاً متقدماً على العموم . وقد تفطن الأصوليون لهذه الظاهرة فرأى بعضهم أن من شرط المخصص أن يكون متراخياً موصولاً ، ومنهم من جوز كونه متقدماً .

4 ـ الجملة ـ الهدف :

إن كل ما تقدم يعزز مفهوم الانسجام الذي يستبطن النظرية التي نعالج على ضوئها العلاقات بين هذه الآيات ، وسنعززه بمفهوم آخر ، وهو الجملة الهدف ، ونعني بها ما يكون مركز اهتمام ، على أنها قد يكون بينها وبين ما أسميناه بالتكثيف تداخل ، ولكننا نعطيها تسمية خاصة بها مراعاة للفضاء الذي تحتله وللقرائن الخارجية .

معنى هذا المفهوم أن ما قبل الجملة ـ الهدف يتجه إليها ليستقر فيها ، وما بعدها يتفرع منها ، إنها مركز القرار ، وإن شئنا قلنا : إنها منطلق الإشعاع . والجملة التي تتوافر فيها هذه الحيثيات في آيات الصيام هي : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وسنبرهن على هذه الدعوى بدليلين :

أحدهما : ما دَعَوْنَاهُ قبل بِرُوح الشريعة الإسلامية . ذلك أن الدين الإسلامي ـ كأي دين آخر ـ جاء لحفظ الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل ، وكل ما أدخل الفساد على المكلف فيها فهو حرام ، ولذلك ، فإنه جاء بمبدأ يتفق عليه الجميع وهو رفع المشقة . وقد كتب فيه القدماء والمحدثون واستدلوا عليه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، منها آيتنا هذه .

إن آيات الصيام هذه جاءت للمحافظة على الضروريات :

* الدين : تشريع عبادة الصوم .
* النفس والعقل (ومن كان منكم مريضاً . . . وكلوا واشربوا . . .)
* النسل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . . .)
* المال (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . .)

رفع المشقة أو اليسر جاء به الإسلام وحافظ عليه السلف ودافع عنه ورفض ما يخالفه كالرهبنة والاعتكاف في الصوامع ، وصاغوا له مبادىء من مثل : عدم التكليف بما لا يطاق والضرورات تبيح المحظورات . . .

ثانيهما : ونعني به مساق الآيات ، ذلك أنها أخرجت مُخْرَجَ التلطف والرأفة لا مُخْرَج الغلاظة والفضاضة ، وهذه سمة نجدها في أسلوب القرآن مثلما نجدها في جميع اللغات الراقية ، وهكذا تصاغ الأوامر بصيغ الاستفهام أو بالجمل الخبرية . وفي كتب الأصول تفصيل لهذه المسائل .

وإذ قد توضح هذا ، فلنعمد إلى الآيات لمزيد البرهنة عليه :

« كتب عليكم الصيام » ← صوموا
« لعلكم تتقون » ← اتقوا
« فعدة من أيام أخر » ← عليكم أياماً أخر
« أن تصوموا خير لكم » ← صوموا
« لعلكم ترشدون. . » ← أرشدوا
« أحل لكم . . . » . ← باشروا

على أنه يجب التفرقة بين نوعين من الأمر اللامباشر في هذا السياق : الأمر المحتم إذا لم يقم به يختل الأمر كالمسائل الضرورية ـ مع مراعاة وسع الطاقة دائماً ـ والأمر الاختياري الذي لا يلزم عن عدم القيام به إخلال بالضروريات الخمس ، أو بإحْدَاها .

* * *

إن قصدنا ليس هو تفسير آيات الصيام أو استخلاص الأحكام منها ، وإنما هدفنا هو اثبات إحكامها وانسجامها ، ولذلك فقد أتينا بدعاوي النسخ ورفضناها بأقوال القدماء أنفسهم ، ثم صغنا إطاراً لتعزيز الرفض ، وهو يتلخص في إثبات انسجام الآيات فيما بينها إن على مستوى المعجم والتركيب والدلالة والتداول . والإطار السابق يمكن أن يطبق على أية آيات أخرى متصلة في الفضاء والزمان (زمان القراءة) . والخلفية التي وراء هذا التناول اعتبار النص عملية لها بداية ووسط ونهاية ، وجوهر العملية هو التفاعل بين المتكلم والمخاطب الحاصل عن طريق السؤال والجواب الظاهر أو المضمر . ويمكن أن يلتمس دليلنا على ذلك بتفكيك الآيات إلى أسئلة وأجوبة :

المتكلم	المخاطب	المتكلم
« يا أيها الذين آمنوا كتب . . . »	لماذا ؟	« كما كتب . . . »
	لماذا ؟	« لعلكم تتقون »
	كم عدد أيامه ؟	« أياماً معدودات »
	أعلى كل واحد ؟	« فمن كان منكم مريضاً . . . »
	ما هي الأيام المعدودات ؟	« شهر رمضان . . . »
	ماذا نفعل في الشهر ؟	« فمن شهد منكم الشهر . . . »
	أعلى كل واحد ؟	« ومن كان مريضاً . . . »
	لماذا هذا التخفيف ؟	« يريد الله بكم . . . »
	أين الله ؟	« أجيبُ دعوة . . . »

وقد أدرك القدماء من المهتمين بتفسير القرآن وتأويله دور علاقة التفاعل بين الطرفين ، ولذلك فإنهم أكثروا من التماس أسباب النزول التي غالباً ما تكون جواباً عن سؤال ، ودليلنا على ما نقول ما نجده في آياتنا هذه فقد ذكروا لـ « فمن كان منكم . . . » ولـ « على الذين يطيقونه . . . » ، ولـ « وإذا سألك عبادي . . . » سبباً لنزول كل منها أو أسباباً .

نمو النص ، إذن ، تحكمه علاقة التفاعل سواء أكانت صراعية أو تعاونية، وتحدد درجة الصراع أو التعاون بوضع الهيئتين معاً . وطبيعي أن يتغلب ، في حالتنا هذه ، التعاون والامتثالِ .

2 ـ الآيـات المنفصلة :

تناولنا ، فيما سبق ، الآيات المتصلة فضائياً ، وقد حان الوقت الآن ، للاتيان بالآيات المُنَبَثَّة خلال المصحف التي يزعم فيها علاقة نسخ ،ولتبيان أن العلاقات التي بينها إنما هي بيان أو تكميل أو توضيح أو تخصيص أو تقييد . على أنه ، قبل أن نضرب بعض الأمثلة ، نقدم الملاحظات التالية :

أ ـ أن دعاوى النسخ تسبب فيها سُوءُ تفاهم بين **الأولين والآخرين ؛ فالأولون أطلقوا** على التقييد والتخصيص بأنواعه المختلفة اسم النسخ ، وقد رد عليهم المتأخرون وحاكموهم في ضوء مفهومهم للنسخ الاصطلاحي الأصولي ، مما أدى إلى نقاشات غير مبنية على أساس .

ب ـ عدم مراعاة مبدأ المماثلة والمشابهة ، إذ كثيراً ما نجد آيتين أو آيات **تتحدثان أو**

تتحدث عن موضوعين مختلفين ؛ ومع ذلك ، فإننا نعثر على من يزعم أن بينهما علاقة تعارض ليبني عليها قوله بالنسخ الإبطالي . وليس هناك ، في الحقيقة ، تماثل أو تشابه إلا في بعض الألفاظ . ولنعط أمثلة لهذا ، فقد ورد : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » في كفارة القتل ، وقد جاء : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » في كفارة اليمين . كما أنه قد أتى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » في صلاة اليهود . وقيل : « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » في صلاة المسلمين . وعلى هذا ، فإن الموضوع مختلف بين القتل واليمين ، وبين صلاة اليهود وصلاة المسلمين ، ومع ذلك ، فإننا نتساءل : أهذا الاختلاف كلي وحاصِلٌ في أية جهة من الجهات ؟ لا نعتقد ذلك ، لأن الآيتين الأوليين تَتَعَلَّقانِ معاً بالكفارة ولأن الآيتين الأخريين تتناولان الصلاة ، إذن هناك علاقة ما تسوغ احدى العلاقات ما عدا التناقض والتعارض المطلق .

في ضوء هذه النتيجة سنؤسس قاعدة أخرى فنقول : إننا سنفرع المماثلة والمشابهة إلى ثلاثة أنواع :

أولها : المماثلة والمشابهة المعطاة التي تظهر جلية بين الآيتين أو الآيات (آيات الطلاق ، وآيات الميراث . . .)

وثانيها : المماثلة والمشابهة المبنية ، وسنمثل لها بكفارة قتل الخطأ : « ومن قتل مؤمناً فتحرير رقبة مؤمنة » ، وكفارة الظهار : « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ، فهنا نجد موضوعين مختلفين ، ولكننا إذا ما أضفنا مقومات إلى الموضوع المراد الحاقه نحصل على موضوع بينه وبين الأول مماثلة أو مشابهة ، ذلك أن الظهار = عدم المماسّة = عدم الانجاب = القتل اللامقصود ، وهكذا يصير الأمر = كفارة الظهار والقتل اللامقصود. بهذا البناء تصبح العلاقة وثيقة بين الموضوعين لأن كلاً منهما يؤدي إلى نفس المآل . وحينئذ يصح تلمس إحدى تلك العلاقات (العموم والخصوص ، والتقييد والاطلاق . . .) .

على أنه يجب أن نقصر عملية بناء الموضوع إلى ما تصح فيه ، ولذلك ، فإنه على المحلل ألا ينساق إلى أوهامه فيتمحل ويتكلف فيعقد صلات واهية بين موضوعين مختلفين تمام الاختلاف كأن يحاول ـ مثلاً ـ إضافة مقوم أو مقومات ليربط علاقة بين تحريم الزواج وتحريم الخمر ، أو بين قصة متعلقة بمن قبلنا ، ولمن تعطى الصدقات . ولكن السؤال الذي يمكن أن يثار هو : ألدينا مقاييس يمكن أن نحكمها في عملية بناء المماثلة والمشابهة أو استبعادها ؟ إننا نظن أن أهم مقياس هو المسلمة التي انطلقنا منها أي مراعاة العلاقة الوثيقة بين الضروريات الخمس ومتعلقاتها ، فمثلاً ، إذا ما دار موضوع على المحافظة على النفس وآخر على المحافظة

على النسل ، فإنه يمكن إيجاد علاقة بينهما .

وثالثها : **اللاتماثلة واللامشابهة** : على أن معترضاً يمكن أن يقول : إن الضروريات والحاجيات والتحسينات هي سر الوجود وفحواه ، ومن ثمة ، فإن كل ما في العالم بينه علاقة ما . إن هذا الاعتراض وجيه . ذلك أن كل ما فيه حياة له صلة بالإنسان ، وما فيه حياة فقد يوظفه الإنسان ، ولكنه ، مع ذلك ، جرت ، عادة ، التفرقة بين أنواع الحيوان نفسها ، وبينها وبين الجماد ، ولذلك ، فإنه لا مناص من الاعتراف بوجود اللاتماثلة واللامشابهة أيضاً .

إن هذا الذي أشرنا إليه بلغة معاصرة هو ما أدركه كثير من أصوليي الإسلام الذين انتبهوا إلى دور وحدة الموضوع في إقامة العلاقة بين الآيات والأحاديث . وهكذا وجدناهم تعرضوا إلى الأقسام التالية : اتحاد الموضوع واختلاف الحكم وهو ما أسميناه بالمماثلة والمشابهة المعطاة ، واختلاف الموضوع والحكم ، وهو ما دعوناه باللاتماثلة واللامشابهة ، وما بين هذين الطرفين هو اتحاد الموضوع واختلاف الحكم ، واختلاف الموضوع واتحاد الحكم ، وهو ما أعطيناه اسم المماثلة والمشابهة المبنية ، وقد أظهرنا صعوبة البناء ، إذ تختلف فيه وجهات النظر بحسب المؤول والظروف المحيطة به ، ولذلك فلا غرابة أن يختلف الأصوليون في حمل آيات هذا النوع وأحاديثه .

تلك بعض الأسباب التي أدت إلى كثرة دعاوي النسخ في القرآن ، وقد نقلها خلف عن سلف تقليداً أو تحرجاً ؛ إلا أن بعض المحدثين بدأ يجرؤ على التخفيف من غلوائها أو على القول برفضها. وسنبين نحن أن ما أبقى عليه دارس مخفف مثل « مصطفى زيد » يمكن التوفيق بينه بكل سهولة :

* لقد أبنا قبل أن ما يحكم آيات الصيام ويؤلف فيما بينها هي علاقة البيان والتخصيص ، وكذلك الشأن في آيات « المزمل » . ففي أول السورة : « يا أيها المزمل قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » ، وفي آخرها . . « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه (. . .) فاقرأوا ما تيسر منه » ، وهكذا ، فإن آخرها يبين بالتخصيص ما جاء في أولها ، إذ كان هناك عموم داع إلى ترتيل القرآن بدون تحديد ، ثم جاء الأمر ـ بعد ذلك ـ بقراءة ما تيسر منه . بيد أنه قد يقال : أننا غضضنا الطرف عن زمان نزول الآيات ، إذ هناك أحاديث تجعل فرقاً زمنياً بين ما نزل في الأول وما نزل في الآخر ، وهذا صحيح ، لأن ما اهتممنا به هو مراعاة الاتصال الفضائي ، وزمان القراءة المسترسل . غير أن هذا الاعتراض لا يقدح في وجهة نظرنا ، ذلك أننا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حديث عائشة المشهور في النازلة فإنه يؤكد ما ذهبنا إليه . إذ أن فرض قيام الليل تحول

إلى التطوع ، وفي كلتا الحالتين ـ القرآن والحديث ـ لا رفع ولا إبطال ، وإنما وقع النقل من ترتيل القرآن إلى ما تيسر منه ، ومن الفرض إلى التطوع . وسنذهب في نفس الطريق لنثبت أن الآية (12 - 13) المتعلقة بالمناجاة الواردة في سورة المجادلة لا نسخ فيها . وقبل هذا نشير إلى أن موقع هذه الآية يجعلها مخصصة لعموم سابق عليها . ذلك أن السورة تعرضت للنجوى بين أفراد معدودين ، وسردت حكاية الذين ينهون عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، وبينت نوع عقابهم ، ثم تلا هذا نهي الذين آمنوا عن المناجاة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا ما وقعت فلتكن بالبر والتقوى ، ثم تبع هذا خطاب المؤمنين الذين يناجون الرسول .

هناك اذن تدرج في التخصيص : **الذين يَتَناجَوْنَ ، فالمؤمنون الذي يتناجون ، فالمؤمنون الذين يناجون الرسول** . وفي كل الأحوال هناك ذم للنجوى مما يستوجب صدقة في حالة القيام بها لأنها مظنة الولوغ في أعراض الناس . ولكن ما هي هذه الصدقة ؟ إن المفسرين يذهبون بها إلى المعنى اللغوي المعروف الذي هو العطية ، ولهم تفاصيل في ذلك . ويؤيد تفسيرهم : « فإن لَمْ تجدوا » .

على أننا نرى في ورود « صدقة » نكرة ، ووورودها بعد ذلك نكرة جمعاً « صدقات » يلزمنا بأن لا نجعل الصدقة المادية إلا نوعاً من بين أنواع عديدة ، وعلى هذا ، فإنها تعني : العطية ، والصلاة والزكاة . وطاعة الرسول . . . أي كل ما يظهر صدق العبودية . ولتوضيح هذا نرصد العلاقات بين جزئي الآية :

العموم	بيانه	الخصوص
* إذا ما ناجيتم الرسول . .	بيانه	* ثبتت نجواكم
* صدقة	بيانه	صدقات
(كل ما يظهر صدق العبودية)	بيانه	(الصلاةوالزكاة وطاعة الرسول)
* فإن لم تجدوا	بيانه	فإن لم تفعلوا مع الوجد
* فإن الله غفور رحيم	بيانه	وتاب الله عليكم . . .

لهذا كله ، فإن العلاقة هي البيان والتخصيص وليست علاقة النسخ والإبطال ، فقد حذفت بعض أوصاف ما يطلق اسم الصدقة ، ولكنها لم ترفع بكيفية نهائية ، كأن نجد : « قدموا بين يدي نجواكم صدقةً » ، « لا تقدموا بين يدي نجواكم صدقة » . ففي هذه الحالة هناك تناقض وتعارض ولكنه ليس موجوداً بهذه الصيغة .

* أما مسألة **تحويل القبلة** فيمكن دفع دعوى النسخ فيها بعدة أدلة ، **أهمها** : أن الموضوع ليس واحداً ، إذ هناك آيات واردة في قبلة الصلاة اليهودية ، وأخرى واردة في قبلة

الصلاة الإسلامية ، وقد يكتفى بهذا لِنَنْفُضَ اليد من المسألة ، ولكنه يمكن أن يحاجنا غيرنا بما قدمناه سلفاً ، وهو بناء وحدة الموضوع ، إذ كل ما جاء من آيات منصب على جنس عبادة الصلاة ، ومن ثمة صح وجود علاقة الرفع والإبطال ، بل يمكن أن يذهب إلى القول بكون كل ما ورد نزل في المسلمين ؛ على أننا نجيب قائلين : إننا نقبل بناء الموضوع ، ومن ثمة وجود علاقة ، ولكنها علاقة تخصيصية . وتبيان ذلك أن ما نزل أولاً هُوَ « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله » وما نزل ثانياً هو « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فما نزل أولاً ـ بحسب اجتهادنا ـ ذكر فيه الشرق (البيت الحرام) ، والمغرب (بيت المقدس) ، وبقي الإطلاق وهو الشمال والجنوب ، وأما ما نزل ثانياً فقد اقتصر فيه على ذكر « المسجد الحرام » المشرق ، ومهما يكن، فإنه سواء أخذنا بخصوص السبب وبعموم اللفظ أو اقتصرنا على عموم اللفظ فاننا نصل إلى نفس النتيجة» وهي : أن ما نص فيه على « المسجد الحرام » مخصص لما ذكر فيه « المشرق والمغرب » . سواء أتعلق الأمر بغير ديانة الإسلام أم بها . إذن ليس هناك نسخ إبطالي بحال ، إذ لا يكون إلا إذا وجدنا تعبيراً مثل : لا تستقبلوا أية قبلة . وهذا التخريج يدخل ضمن ما ألمحنا إليه قبل من أن علاقة البيان . . . أو التخصيص . . . هي المهيمنة على علاقة الإسلام بغيره من الديانات والعادات والأعراف ، ومن ثمة ، فإنه ليس هناك نسخ إبطالي إلا في مسائل جوهرية ، ولكنها قليلة ، وإنه لا يوجد في القرآن البتة .

* قضية تحريم الخمر ، فانطلاقاً من المبدأ الذي أصلناه : أي أن ما حرم حرم ابتداء ، وما أحل أحل ابتداء ، إن في الآيات المكية ، وإن في الآيات المدنية ، وأن ما جاء بعد من آيات في نفس الموضوع إن هو إلاّ بيان أو تكميل أو توضيح أو تخصيص أو تقييد . . . وعليه ، فإننا نزعم أن تحريم الخمر وقع ابتداء في سورة الأعراف المكية وما جاء ـ بعد ـ من آيات مدنيات ففيه تفصيل وتعضيد وتوضيح لذلك التحريم .

* وتطبيقاً للأصل نفسه نرى أن مبدأ القِتال فرض بصيغ التشديد ثم خفف في الآيات اللاحقة بالبيان أو بالتكميل أو بالتخصيص مما يجعله غير متحتم إلا في حالة الدفاع عن إحدى الضروريات الخمس .

VI ـ تذكير وآفاق :

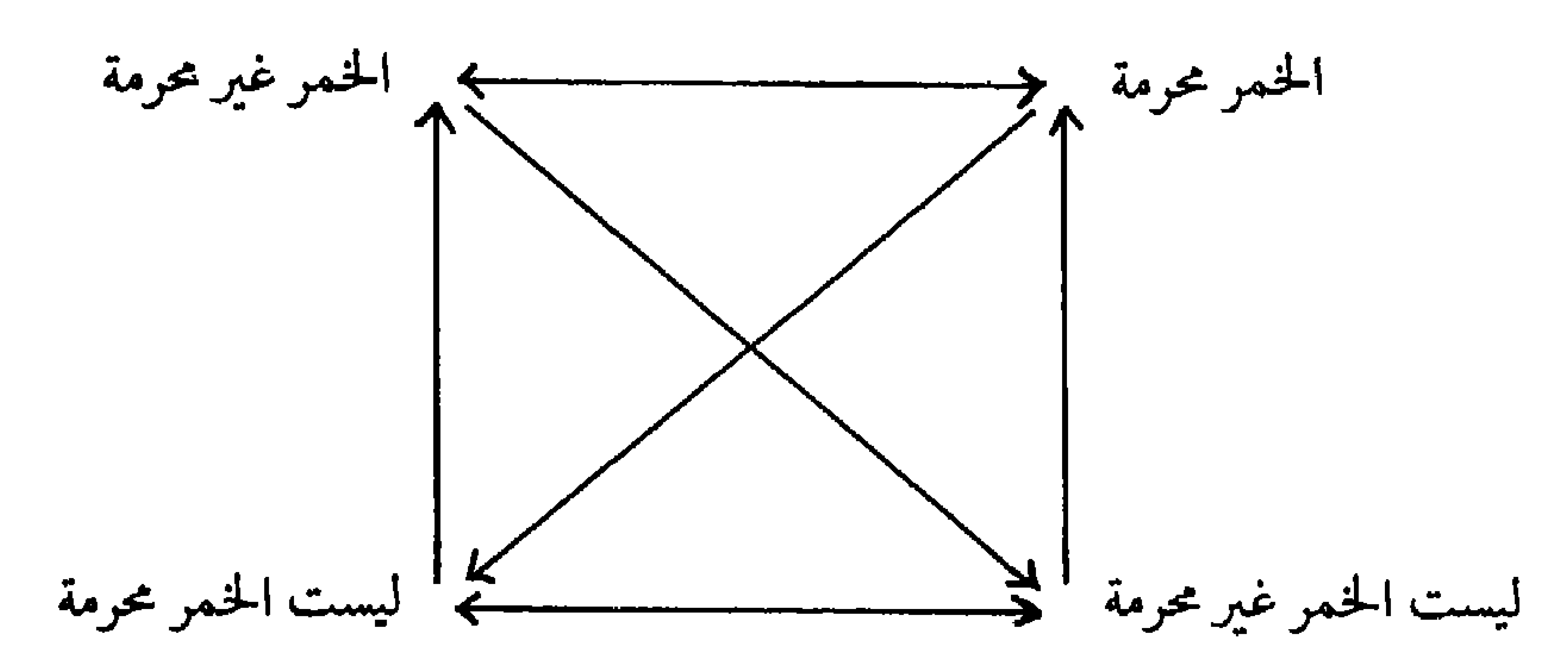
بني هذا البحث على أساس استراتيجية خاصة ابتدأت بوضع الإشكال فإعلان المبادىء فتقديم المفاهيم الوصفية التي جوهرها متكلم ومخاطب ومقتضيات أحوال وعلاقات بين مواضيع

الخطاب ؛ على أن عقدة اشكالنا هي العلاقة فلذلك فصلنا فيها القول فقسمناها إلى تعضيدية ورفعية إبطالية جزئياً أو كلياً .

1 ـ دينامية الخطـاب :

بهذه الثنائية الأولية أنمينا دراسات الخطاب الدينامية التي ركزت على السجال والصراع والمواجهة ، وأغفلت إلى حد كبير التعضيد والمساندة والتعاون . **وإذ إن مفهوم الدينامية ينظر إلى الخطاب في بدايته ونموه ونهايته وآليات انتظامه كما ينظر إلى الكائن الحي في صيرورة مراحل عمره من حيث تعاونها وتنافرها وتساندها وتصارعها ، فإنه يصير من المنطقي النظر إلى تناسل النص من زاويتين :**

* **أولاهما** : دينامية التنافي ، وهي ما ركزت عليه دراسات « كريماص » بواسطة العلاقات بين حدود المربع السيميائي التي هي : التناقض ، والتضاد ، والتضمن المتبادل . ولتوضيح هذا نمثل له بقولنا :



وَلمن ليس لـه ألفة بهـذا المربـع السيميائي ، نَقُـول : أنه يتكـون من محاور خـطاطتين ومؤشرين ، فالمحاور هي : التضاد : الخمر محرمة / الخمر غير محرمة ؛ وشبه التضاد : ليست الخمر غير محرمة / ليست الخمر محرمة؛ والتناقض : الخمر محرمة / ليست الخمر محرمة ، الخمر غير محرمة / ليست الخمر غير محرمة . على أن هناك علاقة تضمنية بـين هذه الحـدود ، فحدّا التناقض يؤديان إلى توليد حدي علاقة التضمن التكاملية ، وفي نفس الوقت تتولد علاقة حدي التضاد وشبه التضاد . وأما الخطاطتان فهما : إيجابية : الخمر محـرمة / ليست الخمـر محرمـة ؛ وسالبة هي : الخمر غير محرمة / ليست الخمر غير محرمة . والمؤشران إيجـابي : ليست الخمـر غير محرمة / الخمر محرمة ؛ وسلبي : ليست الخمر محرمة / الخمر غير محرمة .

توحي تعابير هذا المربع المرفولوجي التصنيفي الإبدالي بطبيعته المنطقية ، وقد استثمرنا

هذه الطبيعة فرفضنا العلاقة التناقضية والتضادية . ولكن البحث المنطقي والرياضي أبـان أن الكينونة الصورية المنطقية لهذا المربع هي غير متسقة وذات ثغرات ، ولـذلك اتجـه إلى اعتبار علاقاته في ضوء جدلية مراعية للفروق اللغوية . وعلى هذا فإن علاقة التناقض سالبة بمعنى أنه إذا أثبت حد انتفى الآخر : الخمر محرمة ـ ليست الخمر محرمة ، وأما علاقة التضاد فإن حديها يمكن أن يرتفعا معاً : الوجوب / التحريم ، ليحل محلهما التخيير ، كما أنه يمكن أن يجتمعا معاً ـ بخلاف التعريف المنطقي التقليدي ـ إذ هي علاقة كيفية ، فقولنا : الخمر محرمة ـ الخمر غير محرمة يمكن الجمع بين قضيتيه بمعنى أن موضوع كل منهـما مشترك أي أننـا أثبتنا وجـود الخمر وحكمها في القضية الأولى ، ولكننـا أثبتنا وجـودها في القضيـة الثانيـة مع نفي الحكم فقط ، وتوضيحه أن :

(مقومات الخمر الذاتية والعرضية + التحريم) .

(مقومات الخمر الذاتية والعرضية − التحريم) .

ومثاله أيضاً : الرجل جميل ـ الرجل غير جميل ، فـ « الرجل جميل » .

[+ حي] ، [+ رجل] ، [+ بالغ] ، [+ جميل] .

و « الرجل غير جميل » :

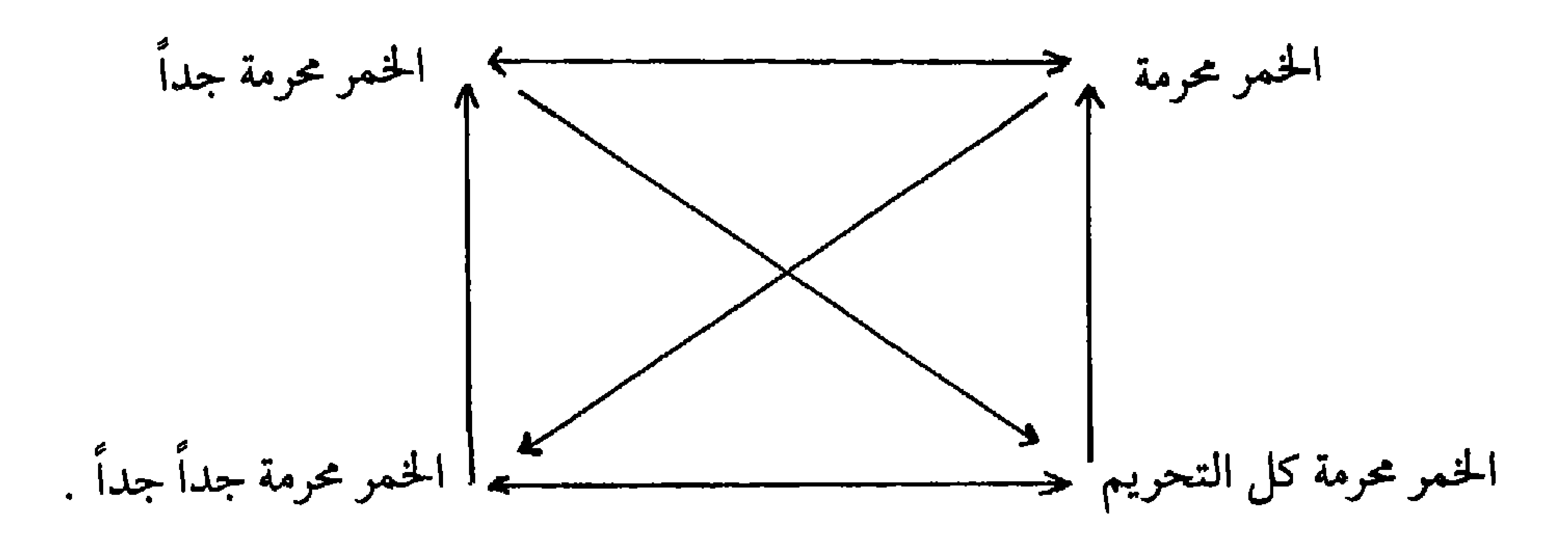
[+ حي] ، [+ رجل] ، [+ بالغ] ، [− جميل] .

بيد أن علاقـة شبه التضـاد مركبـة : ليست الخمر محـرمة ـ ليست الخمـر غير محـرمة + التحريم . أي أن الحكم مشوب ومتردد بين الطرفين ، فهي محرمة بـاعتبار الحكم الأصـلي ، وهي مباحة باعتبار الضرورة لإزالة الغصة مثلاً .

وأما قولنا : ليست الخمر غير محرمة والخمر محـرمة / وليست الخمـر محرمـة والخمر غـير محرمة ، فهما مؤشران للتضمن والتكامل من الناحية الدلالة ولِحُكم القيمة من الوجهة العقدية إذ يثبتان أو ينفيان ؛ فالتحريم إثبات والتحليل نفي ، ولكن الإثبات بالنسبة للمسلم المتدين المتحرج والتحليل نفي بالنسبة له . وطبعاً ، فإننا نجد العكس عند غير المسلم .

ثانيهما : دينامية التثابت . ذلك أن تعـابير اللغـة الطبيعيـة لا تأتي دائـماً بهذه البسـاطة الثنائية : اثبات الحكم ونقضه ، أو نفي بعض صفاته أو الجمـع بين ± السلب والإيجـاب أو التكامل وإنما قدْ نجد تراكماً وتعاضداً واطناباً مما يلزم معه وضع مربع ذي طبيعة خاصة ، لذلك فإننا نقترح ما يلي :

لتوضـيح هذا ، فإننا سنرمز لقضية « الخمر محرمة » بـ (1، 2، 3) ولـ« جداً » بـ (1،2) ولـ « كل » بـ (1،2،3، 4، 5، 6، 7) . وعلى هذا ، فإن محور « التثابت » والخطاطة الإيجابية



هـو: (3,2,1)⟷(3,2,1) (2,1) (2,1) (2,1)، ومحور « التشابت » والخطاطة الأكثر إيجابية (1، 2، 3) (1، 2)⟷(1، 2، 3) (1، 2، 3، 4، 5، 6، 7) . ومؤشر الايجاب الأكثر ايجابية : (1، 2، 3) (1، 2، 3، 4، 5، 6، 7)⟵(1، 2، 3) . ومؤشر الايجاب : (1، 2، 3) (1، 2) (1،2)⟵(1، 2، 3) (1،2) .

محور التماثل : (1، 2، 3)⟷(1، 2، 3) (1، 2) .

محور شبه التماثل : (1، 2، 3) (1، 2، 3، 4،5،6،7،)|⟷(1، 2، 3) (1،2) (1،2).

من خلال هذا الترقيم نخرج بما يلي : أن النواة المعنوية هي : (1، 2، 3) يليها (1، 2، 3) (1،2) ، يتبعها (1، 2، 3) (1،2) (1،2)، وغايتها هي (1، 2، 3) (1، 2، 3، 4، 5، 6، 7) . والنواة المعنوية هي ما دعوناه قبل بالكليات التي تأتي بعدها الجزئيات لبيانها وتكميلها وتفصيلها أي إضافة أوصاف ، وهذا في الآيات المكية ، أو نقص أوصاف أو حذفها في حالة التخصيص والتقييد في الآيات المدنية ما لم يتعلق الأمر بآيات الألوهية والأحكام العامة .

2 ـ شمولية الدينامية :

على أنه قد يطرح اعتراض إبستمولوجي مؤداه : أن هذه الدينامية خاصة بالنصوص القصصية وما أشبهها ولا تشمل النصوص التشريعية العملية المباشرة . إن هذا الاعتراض وجيه إذا ما رعينا تقسيم الخطاب القرآني إلى أنواع ، إذ فيه خبر واستخبار ووعد ووعيد وأمر ونهي ، وبطبيعة الحال ، فإن لكل خصائص بنيوية ووظيفية ، ولكن هذا التمايز الأسلوبي الموجود فعلاً يضمحل من حيث العمق . ذلك أن الرسالة القرآنية تهدف إلى مقصد وحيد . ويمكن أن تدلل على هذا بآراء من التراث الإسلامي نفسه ومن الدراسات الإنسانية الأخرى :

أ ـ ان الأصوليين المسلمين بينوا أن هدف الشريعة هو المحافظة على الدين والنفس والنسل والعقل والمال أي ما يدعى بالضروريات . . وبعض الخطاب القرآني جاء مقنناً لها

وضابطاً ، وبعض آخر منه أتى في شكل قصصي وأمثلة ولكنه مكمل لآيات الأحكـام . وعلى هـذا ، فإننـا نستطيـع حمل آيـات الأحكام عـلى آيات القصص وآيـات القصص عـلى آيـات الأحكام ، فالخطاب القرآني وحدة متماسكة متكاملة رغم سعة فضائه وامتداد زمان قراءتـه ، وتنوع قضاياه .

ب ـ ان المتـأمل لكـلام الأصوليـين هذا يـرى أن هناك ثـلاثيـة مهيمنـة هي : (الله ـ الرسول ـ الكتاب) ، والانسان ، والعالم وإن شئنا قلنا : الانسان والطبيعة ، والواسطة :

، فـالنص القـرآني يتمحـور حـول (الله ـ الرسول ـ الكتاب) ، والانسان العادي . والطبيعة ، (الرسول ـ القرآن) قنن موقف الانسان من الطبيعة عن طريق التحليل أو التحريم أو الإبـاحة أو التخيـير . . . وبه نـظمت علائق الناس فيما بينهم .

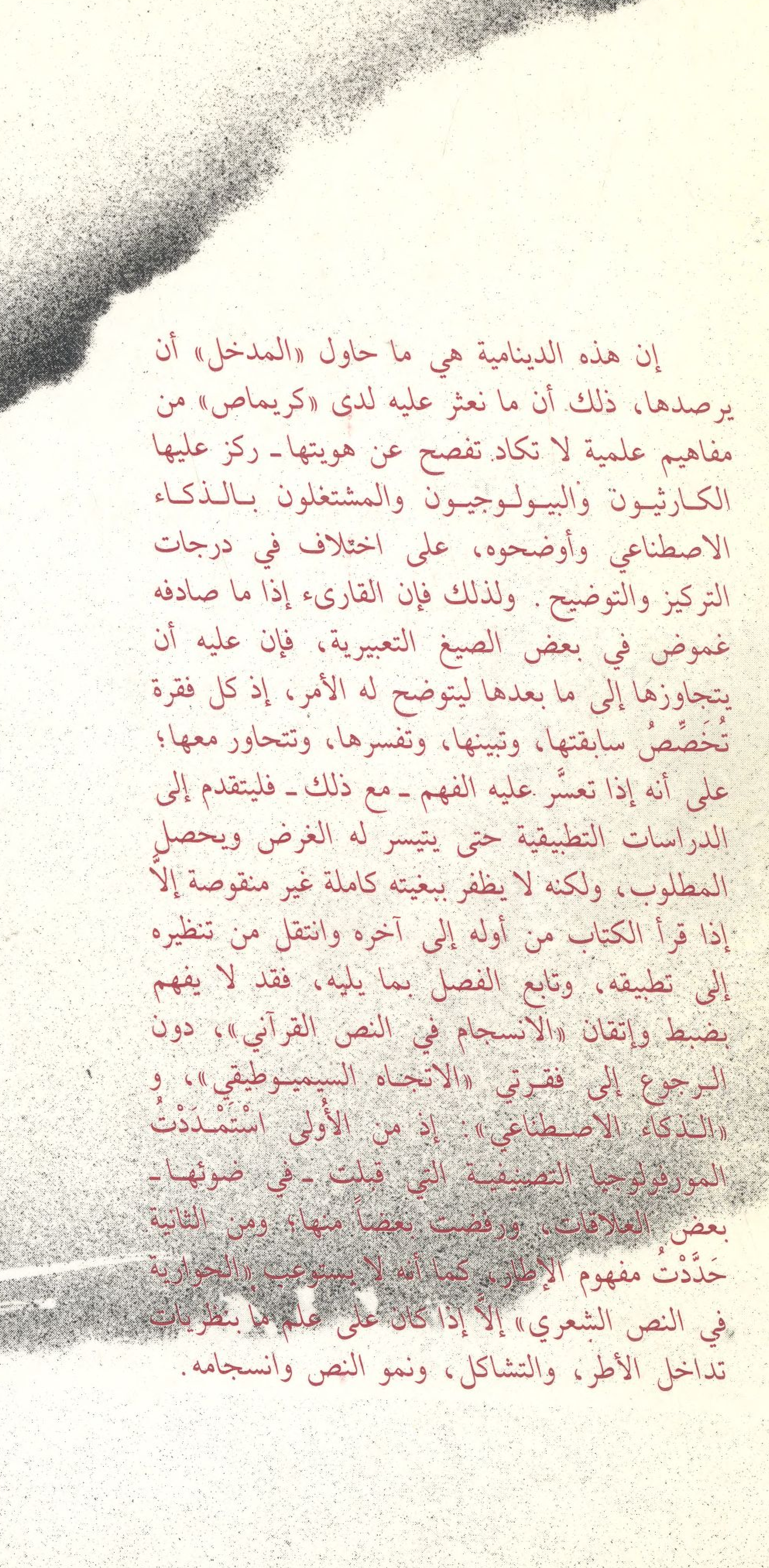
ج ـ إذا كان المقصد وحيداً والنص وحيداً ـ مهما تنوعت مظاهر تعبيره ـ فإن على النظرية والمنهاجية أن تكون موحدة ملائمة للكشف عن الآيات العميقة التي تحكم آياته كلها . وهـذا يقتضي مزيداً من التحليل حتى تؤكد أو ترفض عناصر هذه المحاولة .

3 ـ دينامية الآراء :

ومهما كانت نتائج التمحيص فإنها تصلح أن تفجر كثيراً من الآراء التفسيريـة والفقهية والكلامية القديمة والمعاصرة المبنية على أسس واهية مثل دواعي النسـخ والتأويـلات المغرضـة المتهافتة التي أثقلت كاهل الخطاب القرآني وقولته ما لم يقل ومَنَعَت المسلم السـاذج من إدراك مغـزى كتاب دينه . . . ومع ذلك فإننا لا ننكر أنها زاد ثمين لمن يرغب أن يدرس تطور الفكر الإسلامي في محدداته وشروط إمكانه .

فهرس

تقديم 5
مدخل :
I ـ الأسس العلمية 7
II ـ الأسس الفلسفية والابستمولوجية 33
III ـ تركيب 38
الفصل الاول : نمو النص الشعري (قراءة في قصيدة « القدس » لأحمد المجاطي)
.... 49
الفصل الثاني : الحوارية في النص الشعري 81
I ـ الحوار الخارجي 82
II ـ الحوار الداخلي 94
الفصل الثالث : تناسل النص الشعري 103
الفصل الرابع : سيرورة النص الصوفي 129
الفصل الخامس : الصراع في النص القصصي 157
I ـ افقية النص 157
II ـ عمودية النص 169
III ـ افقية التحليل وعموديته 183
الفصل السادس : الإنسجام في النص القرآني 189



إن هذه الدينامية هي ما حاول «المدخل» أن يرصدها، ذلك أن ما نعثر عليه لدى «كريماص» من مفاهيم علمية لا تكاد تفصح عن هويتها ـ ركز عليها الكارثيون والبيولوجيون والمشتغلون بالذكاء الاصطناعي وأوضحوه، على اختلاف في درجات التركيز والتوضيح. ولذلك فإن القارىء إذا ما صادفه غموض في بعض الصيغ التعبيرية، فإن عليه أن يتجاوزها إلى ما بعدها ليتوضح له الأمر، إذ كل فقرة تُخَصِّصُ سابقتها، وتبينها، وتفسرها، وتتحاور معها؛ على أنه إذا تعسَّر عليه الفهم ـ مع ذلك ـ فليتقدم إلى الدراسات التطبيقية حتى يتيسر له الغرض ويحصل المطلوب، ولكنه لا يظفر ببغيته كاملة غير منقوصة إلا إذا قرأ الكتاب من أوله إلى آخره وانتقل من تنظيره إلى تطبيقه، وتابع الفصل بما يليه، فقد لا يفهم بضبط وإتقان «الانسجام في النص القرآني»، دون الرجوع إلى فقرتي «الاتجاه السيميوطيقي»، و «الذكاء الاصطناعي»: إذ من الأُولى اسْتَمْدَدْتُ المورفولوجيا التصنيفية التي قبلت ـ في ضوئها ـ بعض العلاقات، ورفضت بعضاً منها؛ ومن الثانية حَدَّدْتُ مفهوم الإطار، كما أنه لا يستوعب «الحوارية في النص الشعري» إلاَّ إذا كان على علم ما بنظريات تداخل الأطر، والتشاكل، ونمو النص وانسجامه.